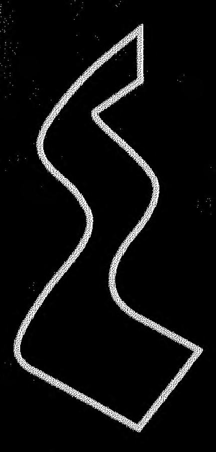
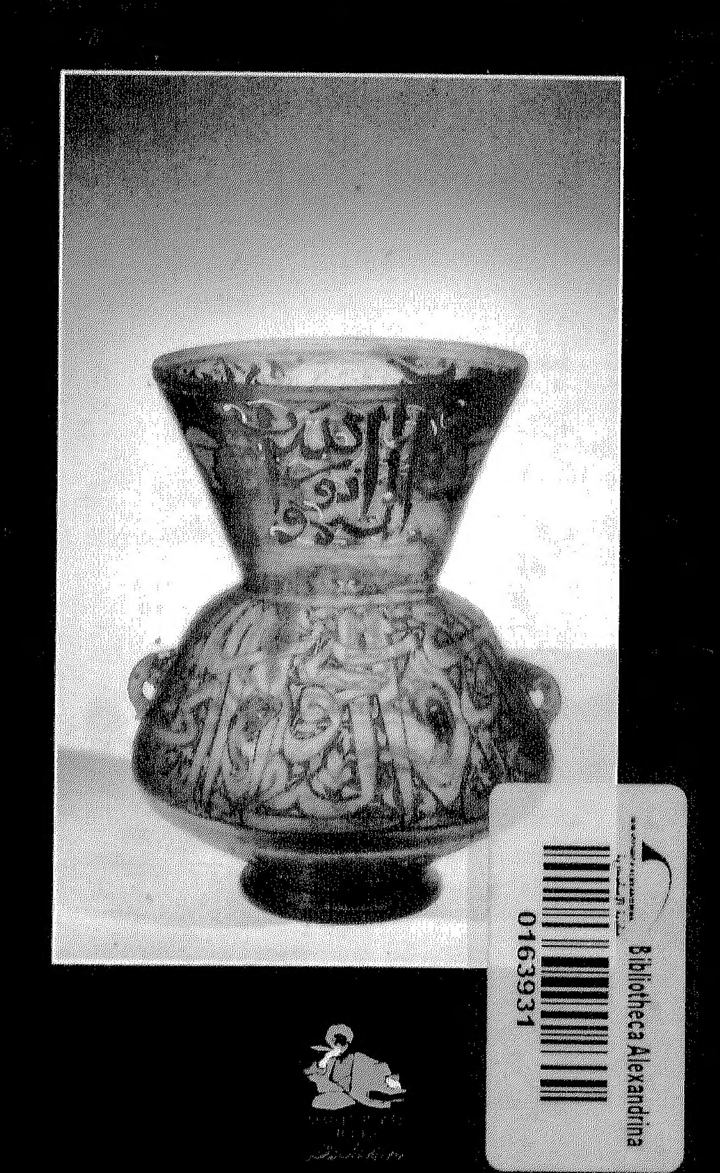
عارف تامر

تاريخ الإسماعيلية





الدولة النزارية

الغلاف: ابريق صيني مصنوع من الزجاج الملوّن له قاعدة، وجد في سوريا، يعود إلى القرن الرابع عشر ميلادي.

(بإذن خاص من المتحف البريطاني)

تاريخ الإسماعيلية -٤-

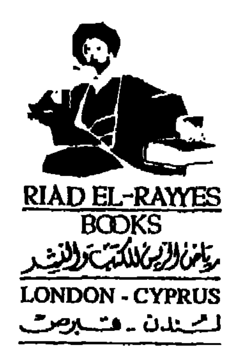
الدولة النزارية

عارف تامر

تاريخ الإسماعيلية

٤

الدولة النزارية


RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

THE ISMAILI HISTORY – 4 –

The Nizari State

BY

AREF TAMER

First Published in the United Kingdom in 1991

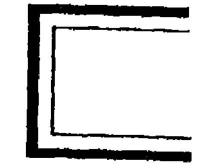
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Tamer, Aref
The Ismaili History
The Nizari State
I. Title
297.20422

ISBN for the complete collection of 4 volumes
1855130599
ISBN for this volume 1855130793
Vol 1 – ISBN 1855130645
Vol 2 – ISBN 1855130696
Vol 3 – ISBN 1855130742

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١



محتويات الكتاب

الحسن بن الصبّاح

ذكرنا القليل عن «الحسن بن الصبَّاح» الذي يرجع إليه الفضل في إقامة الدولة الإسماعيلية «النزارية» في «ألموت» بفارس، وقد تمَّ هذا قبل وفاة الخليفة الفاطمي الثامن الإمام المستنصر بالله، ووقوع الفتنة الكبرى في مصر التي أسفرت عن مقتل ولي العهد الشرعي الإمام «نزار بن المستنصر بالله» وأخوته، وأولادهم، وتنصيب «المستعلي» بن المستنصر بالله ابنه الأصغر من زوجته شقيقة الأفضل ابن بدر الجمالي أمير الجيوش، وقد تمَّ ذلك بقوة السلاح كما ذكرنا.

ولد الحسن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميري اليمني في مدينة الري سنة ٤٤٧ هـ. وهو من أصل عربي، يتصل نسبه بملوك حمير اليمنيين.

وبعد أن أكمل دراسته شاءت الظروف أن يقوم برحلة في أنحاء إيران، فالتقى بأحد دعاة الفاطميين المسمَّى «أبو النجم السراج» فتمكن بعد محادثات عديدة، ومقابلات متتابعة من التأثير عليه، وتصنيفه في عداد أبناء دعوته، وبعد مدة التقى بالداعي الفاطمي الأكبر «عبد الملك بن عطَّاش» فباركه وشجعه على زيارة القاهرة «المعزِّية»، والتشرف بمقابلة الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، فاستجاب لطلبه، وتسلَّم منه كتاباً إلى الداعي «أبي داؤد المصري» يطلب فيه منه تسهيل مهمته.

في القاهرة «المعزِّية» أقام الحسن بن الصبَّاح مدة ثمانية عشر شهراً تمكن في نهايتها من مقابلة الخليفة الإمام المستنصر بالله الذي منحه رتبة «داعي». وتذكر بعض المصادر الإسماعيلية:

قيل أنه خلال هذه المدة كان يتلقى الدروس، والتدريب من «المؤيد في الدين ـ هبة الله الشيرازي» «داعي الدعاة» وقد قام بمهمة الدعوة للإمام نزار لأن الإمام المستنصر بالله كان قد أعلن إمامته أكثر من مرة، كما طلب إليه قبل عودته إذاعة ذلك على الأتباع والمستجيبين في كل مكان. هذا، وعندما أخذ يؤلّب الناس على الأفضل، اعتقل، وزجَّ به في السجن، ولكنه تمكَّن من الإفلات، فعاد إلى بلاد فارس، وأقام في منطقة «قزوين» يخطط، ويعمل على إقامة دعائم الدولة الإسماعيلية النزارية، وكانت باكورة أعماله احتلال قلعة «ألموت» الواقعة في جبال «البرز» إلى الشمال الغربي من «قزوين» وهذه القلعة بناها «حسن الداعي المحق» وهو أحد القواد البويهيين المعروفين. ومن ألموت امتدَّ الحسن بن الصبَّاح إلى القلاع المجاورة الواقعة في تلك السلسلة من الجبال وهي: شاهدوز، وليمون درَّة، وكردكوه، وكمشير، وميمون دز، وتون، وخوان....

وبعد أن تمَّ له ذلك أعلن قيام الدولة النزارية الإسماعيلية، وكان قد تمكن من استحضار «علي الهادي» بن الإمام نزار بن المستنصر بالله من مصر، فبايعه الناس بالإمامة، ثم أخذت هذه الدولة تنمو، وتتوسع، وتزدهر حتى فرضت هيبتها على الدول المجاورة، وأصبحت تحتل مكانة مرموقة، وذلك بفضل التنظيمات الجديدة، والأساليب الإدارية التي اتبعها «الحسن بن الصبَّاح»، والتي اعتبرها المراقبون والمؤرخون جديدة ومتطورة.

اشتهر «الحسن بن الصبَّاح» بدهائه، ومرونته، وبعد نظره. وصفه المؤرخون بالشجاعة والإقدام، والمغامرة، فإليه يعود الفضل بتنظيم فرق «الفدائية» التي أدخلت الرعب في قلوب الدول المجاورة، وقامت بنشاطات كبرى إبَّان الحروب التي خاضتها، وكان قد انتقل نشاطها أخيراً إلى مدينة «مصياف» الشامية في عهد راشد الدين سنان، هذا فضلاً عن تعجيلها بإنهاء دور الدولة الفاطمية المستعلية الجمَّالية من الديار المصرية.

حكم «الحسن بن الصبَّاح» دولة «ألَموت» النزارية مدة خمسة وثلاثين عاماً إلى جانب « علي الهادي بن نزار بن المستنصر بالله» الذي أقام في قلعة «لمسر»، وبعد الصبَّاح تسلَّم شؤون الحكم والدولة خليفته، ونائبه «كيا بزرك أميد».

هذا بالنسبة لإقليم فارس. أمَّا في بلاد الشام فقد أعلن الإسماعيليون فيها استجابتهم للحسن بن الصبَّاح، وانضمامهم، وخضوعهم لدولة ألموت، وكانوا قد رفضوا الإستجابة لدولة المستعلي منذ البدء، وهذا ما جعل الأفضل الجمالي يقابلهم بضغط شديد، ولكنه لم يثنهم عن عـزمهم، وظلـوا عـلى معـارضتهم لإمـامـة المستعـلي، وقـد نتـج عن ذلك انقطاع الدعاة عن الوعظ والإرشاد، وإصابة الدعوة في بلاد الشام بما يشبه الشلل، ولكن كل هذا لم يزحزحهم عن موقفهم، وظلوا على ولائهم لنزار ولولده من بعده، وللداعية الكبير الحسن بن الصبَّاح الذي وقف آنئذٍ موقف العـاجز عن مسـاعدتهم بسبب انشغاله بأحداث بلاد فارس.

وتوالت النكبات على الإسماعيليين في ديار الشام، وكان أكثرهم يعيش في مدن حلب، وحمص، وحماه، ودمشق، ممَّا اضطرهم أخيراً إلى التسلل والاعتصام في القلاع الواقعة في جبال «البَهْرَة» وهي سلسلة الجبال المعروفة الآن بجبال العلويين، وكانت في تلك الفترة تسمَّى «جبال قلاع الدعوة»، وكانت رقعتها تمتد من شرقي مدينة طرطوس جنوباً حتى صهيون شمالاً، ومن البحر غرباً حتى حدود مدينة حماه شرقاً، ويدخل في نطاق هذه الرقعة قلاع: مصياف، والرصافـة، والقـدمـوس، والعلّيقـة، والمينقـة، والمـرقب والخـوابي، والكهف، وصهيون... وغيرها. ومن المؤكد أن قلاعاً أخرى خارج هذا المحيط كقلعة شيزر، وبـانياس الشـام، وطرابلس، وغيـرها حتى قلعـة «الشقيف» كانت داخلة تحت سيطرتهم.

وأخيراً:

قيَّض الله لإسماعيلية بلاد الشام شيخ الجبل «سنان راشد الدين» فنظَّمهم، وسهر عليهم.

ومهما يكن من أمر... فلا بد من الاشادة بمآثر «سنان راشد الدين» وأعماله، واهتمامه بمحاربة الصليبيين الذين وضعوا في برنامجهم مخطط احتلال الثغور، والمـدن السوريـة الواقعـة على شـاطىء المتوسط... وقصة سنان مع «صلاح الدين الأيوبي» معروفة تاريخياً. فهي من القصص المثيرة في التاريخ التي تعطي انطباعات جيدة،

وتظهر عظمة سنان، وقيادته الحكيمة، وإيمانه بوطنه وأمته، وكيف استطاع إخضاع صلاح الدين، بعد أن أعطاه درساً في أساليب الحرب والقتال مع المستعمرين في سبيل مصلحة الوطن والأمة.

أجل... كان سنان راشد الدين من الرجال القلائل الذين لا يجود بهم الدهر إلاَّ حينما تعصف الأزمات، وتتوالى النكبات.

تربَّى في مدرسة الدعوة النزارية الإسماعيلية في «المَوت». وفي سنة ٥٥٨ هـ. جاءَ إلى بلاد الشام فظلَّ شاغلاً هذا المركز حتى وفاته في سنٍ مبكرة سنة ٥٨٨ هـ. وقد دفن في بلدة مصياف السورية.

كان له أثره البعيد في السياستين السورية والمصرية، وكان حاملاً مسؤولية شعبه بنجاح وحامياً له من الضغوط العنيفة التي كان يتعرض لها وخاصة من «صلاح الدين الأيوبي» والصليبيين، وقد استطاع أن يرد الغارات، وأن يتفوق على كل من ناصبه العداء، حتى أن صلاح الدين الأيوبي أعلن أخيراً عن رغبته بمصالحته، والتعاون معه لمحاربة الصليبيين والقضاء على مخططاتهم، وبالفعل تمَّ ذلك في معركتيْ القدس وحطين، حيث ساهم جيش سنان وفدائيته مساهمة فعَّالة في قتال الأعداء والكشف عن مخططاتهم وأساليبهم.

كان سنان قائداً عبقرياً، وشجاعاً مقداماً، وعلى جانب كبير من الذكاء والمعرفة وبعد النظر... وكان مثلاً أعلى للفضيلة، والأخلاق، والوطنية، وامتاز بالإضافة إلى كل ما ذكرناه، بتبحّره في الفلسفة، والرياضيات، وعلم الفلك، والأدب، والشعر... وسنأتي على كل هذا.

من ألمَوت إلى مصياف

زعم المؤرخـون، ومزاعم المؤرخـين أكثـر من أن تحصى - بـأن الإسماعيلية النزارية كانت في العصور التي مضت كافة تشكل خطراً على الكيان الإسلامي، وذلك لأنها أوجدت الجمعيـات السريـة، والمنظمات الإرهابية، وابتدعت التعاليم «الباطنية» التي تهدف إلى التخريب والإفساد وهي تهم درج على تلفيقها بعض المؤرخين.

وقد يكون من العسير على المنصف محاسبة المؤرخين والمستشرقين على ما ارتكبوه من أخطاء وتكذيب أقوالهم في فصولها وأبوابها. ولكن

أحسن ما يمكن أن يقال في هذا الصدد... هو أن الأمم الناهضة لا تخلق نهضة قومية أو فكرية إلّا على ضوء الماضي. والأمة الناشئة لا تقيم حاضرها إلّا على عمد ماضيها، وكم هو حري بنا، ونحن نعيش في عصر نهضة حديثة، وفي ظل الاكتشافات والانتصارات العلمية أن نتجرد عن الأهواء وعصبية القرون ورواسب التاريخ. فننصرف إلى إعادة النظر بما دوّن وكتب، وإبراز الحقائق خاليةمن الأدران والشوائب خدمة للعلم وللأجيال الصاعدة.

أجل... لقد قام في هذه الدنيا العربية والإسلامية علماء منصفون تفرغوا لدراسة هذه النواحي الحيوية الهامة، وكشفوا الستار عن بعض الحقائق المغمورة. فمتى نرى لهؤلاء طلاباً في مجتمعنا يسيرون على غرارهم متخذين من العقل دليلاً وهادياً، متجردين للحقيقة وحدها، عاملين على خدمة التاريخ ليأتي متفقاً والحقيقة، وليتخذ صفة العلاج الناجع لمتاعب الإنسانية المعذبة، ومنهاجاً للاصلاح الكامل.... وعندئذٍ يرى الطالب في تاريخنا كل ما ينشده من حقائق.

لقد سبق لي أن ذكرت: بأن الدولة الإسماعيلية النزارية قد أدَّت للأمة العربية، وللبلاد الإسلامية أعظم الخدمات وأجلها. فهذه المنظمة العسكرية «السرية» كانت مجموعة بأس، وشجاعة، وقوة، وذكاء، وإرادة خارقة. وإن الأعمال التي اضطلعت بها كانت عاملاً أساسياً في صد العدوان الصليبي، والوقوف بوجه الاستعمار، والعناصر الدخيلة المستعمرة.

والملاحظ أن أصعب فترة مرَّت على الإسماعيلية هي الفترة التي تبدأ في أوائل القرن الخامس للهجرة المعروفة لدى الباحثين بعنفها وتقلباتها، وبأنها الفترة الغامضة، أو قل فترة التجارب والمحن البعيدة عن الهدوء والاستقرار، والزاخرة بالمفاجآت الغريبة والانقلابات العنيفة، كهجمات الصليبيين على ديار الشام بعد ظهور الدولة السلجوقية في فارس لمناوأة العباسيين في بغداد، وقيام إمارات الأيوبيين الزنكيين في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية، وظهور الأيوبيين في حلب ودمشق، وبروز النزارية الإسماعيلية في فارس، وبلاد الشام تخططان للقضاء على بقايا الدولة «المستعلية» الفاطمية في مصر، وقد كان من أثر هذا الواقع تأثير النزارية، وخاصة في بلاد الشام بهذه الأحداث الخطيرة، وتعرضها للأزمات وللهزات.

فبعد إقامة الدولة النزارية الإسماعيلية في «أَلَمُوت» بفارس على يد «الحسن بن الصبَّاح» ظهر نشاط إسماعيلي نزاري في ديار الشام تقلَّب على قيادته كل من الدعاة «رضوان» و «بهرام» و «محمد العراقي ـ أبو محمد» فوزعوا أعمالهم في جهات حلب، وديار الشام حتى بانياس، وفي حمص وحماه وطرابلس الشام، ثم انتقل نشاطهم إلى جبال «البهَرَة» كما ذكرنا، وعندما قدم «سنان راشد الدين» تسلَّم الشؤون العامة والقيادة. فاتخذ من «مصياف» قاعدة له بالنظر لموقعها الجغرافي المهم ولوجودها في أول السهل المؤدي إلى داخل البلاد، وعلى أبواب الجبل الكبير، ولأن «مصياف» بلد صغير جميل هادىء، وهبه الله من الجمال والبهاء قسطاً وافراً، وخصَّه بالينابيع الغزيرة، والبساتين الوافرة، والضواحي الساهرة، ومن الجدير بالذكر أن النزارية الإسماعيلية شادت فيها الدور الباذخة، والصروح العالية حتى أصبح ذلك البلد الصغير في فترة قصيرة خصيباً بالثروة، غنياً بالآثار. وكان يزيد في منعة البلدة الصغيرة سورها العظيم ذو الأبواب الأربعة، وقلعتها الكبرى الواقعة في الجهة الشرقية، والقائمة على صخرة كبرى ذات جوانب عمودية يصعب تسلقها، أو الدخول إليها إلاَّ من باب واحد... إذا دخل منه أي زائر كان عليه أن يسير في دهليز معقود يتصل من قمة القلعة وما وراءها، وفوقها من الغرف والحجرات، وكلها مبنية من الحجر الصلد، وعلى السور أبراج متلاصقة مخصصة للحامية التي كان يوكل إليها أمر رمي المهاجمين بالسهام بحيث يستحيل أخذها بالهجوم إلاَّ بعد قتل المئات أو الألوف.

وكأني بهؤلاء المقاتلين المقيمين فيها، قد أمنوا على أنفسهم من هجمات الغزاة والفاتحين والمستعمرين، وهزأوا بأساليبهم وخططهم. وفي هذه القلعة كانت تعقد المؤتمرات السياسية ومجالس الحرب، وعندما فكَّر «صلاح الدين الأيوبي» بغزوها واحتلال القلاع «النزارية الإسماعيلية» التابعة لها، والواقعة في جبال «البهَرة»، عادَ إلى رشده، و كَّر بما سيتعرض له جيشه من أخطار، ثم عزَّز ذلك بزوغ الأخطار الصليبية التي راحت تهدد العرب والإسلام.

فذهب إلى القلعة، وعقد راية الصلح مع «سنان» وتعاونا، واشتركا في التصدي للعدو الصليبي الدخيل. وهكذا اشترك صلاح الدين

الأيوبي، وسنان راشد الدين جنباً إلى جنب في معركة حطين، ومعركة «القدس» من بعدها وحقّقا الانتصارات الرائعة التي كتبت بأحرف من ذهب على صفحات التاريخ.

وقد ذكرت المصادر التاريخية: أن صلاح الدين الأيوبي رأى بعد أن اجتاز سهول «بانياس» ووصل إلى أغوار فلسطين، أن لا يقدم على فتح مدينة، أو الدخول في معركة إلاّ في ضوء المعلومات الصحيحة، وبعد الوثوق من النصر، وكان على قناعة تامة بأن سقوط «بيت المقدس» بأيدي جيوشه لن يتم إلاّ بعد معارك طاحنة ضدّ الصليبيين، يقضي فيها على معنويات هذا الجيش الكبير الذي كان يخيّم في طبريا، والكرك وعكاء، وحيفا، ونابلس، وعسقلان، وبعد أن يفرض على القدس حصاراً عنيفاً ضيّقاً يقطع فيه المدد، كما رأى من الضرورة أيضاً عزل الحاميات المتفرقة في الحصون والمعاقل عن بعضها البعض، وتطويقها تطويقاً محكماً... وهكذا حوَّل وجهه عن «بيت المقدس» وتركها وشأنها، وقسَّم جيشه إلى فرق مستقلة عهد بقيادتها إلى قواد مجربين وجّههم إلى النقاط المرسومة، والمعروفة بموقعها.

وفي هذه الفترة وصلت إلى المكان الذي يخيم على أرضه الفرقة النزارية الإسماعيلية التي سلكت طريق الساحل من قلاع الدعوة الشامية، فرأى صلاح الدين أن يوجه أفرادها في مهمات صعبة كرصد حركات العدو ومعرفة عدده وعدّته وسلاحه، ثم محاولة بذر بذور الشقاق بين أفراده وقواده. وتنكّر هؤلاء كعادتهم في الحروب وتغلغلوا في الجيش الصليبي يفسدون على القواد خططهم، ويزرعون بذور التفرقة بين الجماعات الصليبية المتنافرة، وكانوا في الوقت نفسه على اتصال بقيادة صلاح الدين يطلعونه على كل شاردة وواردة.

أمّا صلاح الدين فكان لا يتقدم من مكان إلى آخر، ولا يقدم على احتلال موقع أو مدينة إلاّ في ضوء التقارير التي ترده من هؤلاء «الفدائية»... وكل هذا مكّنه من تحقيق انتصارات سريعة، وكسب معارك حاسمة، وتحويل جيش العدو إلى جماعات متفككة منهوكة القوى تتصارع في سبيل كسب المغانم، والنفوذ، والسيادة. وعلم

قواد الصليبيين بأن «للفدائية» الإسماعيلية اليد الطولى بإفساد خططهم وعرقلة أعمالهم. فكانوا يوعزون إلى جيوشهم بـالاحتراز منهم، وبمضاعفة الرقابة على تحركاتهم، ولكن أنّى لهم ذلك، وهم مـزيج من أمم وشعـوب مختلفة اللغـات، والعادات يتنـازعون، ويتقاتلون، فيهم الإفرنسي، والجرمـاني، والإسباني والسكسـوني وغيرهم، وكل هذا أوجد بينهم الحسد، والنزاع، والتنافس، فأصبح القائد في الميدان لا يستطيع أن يلقي أوامره إلَّا على أبناء جنسه وطائفته، وهكذا ضعفت ثقة الجيش بقواده، والقواد بالأفراد... ممَّا مهد للعرب خوض المعارك بنجاح، والانتصار السريع الحاسم.

أمَّا الجيش العربي، فكان كتلة مجتمعة تحت قيادة واحدة، وراية واحدة.. يحبّ الكبير منه الصغير، والصغير الكبير، ويضحي القائد بمصلحته الخاصة في سبيل جندي واحد بالإضافة إلى أنهم كانوا متساوين في الحظوظ والواجبات... تقسَّم عليهم الغنائم بالعدل، وكانوا أيضاً يعتقدون بأنهم يحاربون في سبيل واجب أمرهم الله به، فلا غرابة بعد ذلك إذا ما قدموا أنفسهم عن عقيدة وإيمان في سبيل هذه الفكرة المثلى، وهذا الهدف الأسمى.

وبعد أن تمَّ لصلاح الدين إحراز النصر في معركة «حطين» وغيرها تقدم باتجاه «القدس» فطوَّق المدينة، وبعد عشرة أيام من المعارك التي كان يخوضها جيش العرب مع الصليبيين بالنبال. وجَّه صلاح الدين أمراً عاجلاً إلى قواته باقتحام الباب الشمالي المسمّى «باب العمود» أو «كنيسة صهيون»، فتراجع الصليبيون عن الأسوار أمام وابل من نبال «الفدائية»، واقتحم العرب الحواجـز ووصلوا إلى الخندق، ثم جاوزوه، والتصقوا بالسور، وبدأوا بنقبه تحت وابل من السهام، والقذائف المشتعلة، ولم يطل الوقت فالمنجنيقات تمكّنت من إحداث ثغرة أدّت إلى فتح الباب. فاندفعت الجيوش المجاهدة إلى المدينة المقدسة، واختلط الحابل بالنابل أمام الأسوار، وسالت الدماء كالأنهار، وتساقط الرجال كتساقط أوراق الأشجار بفعل العاصفة الهوجاء.

عند ذلك أقدم الصليبيون على إشعال النار في المباني، وكان قصدهم إحراق المدينة بأكملها واتهام العرب بذلك، ولكن صلاح الدين فطن

لهذه الحيلة، فأمر قواده بتأليف فرق للعمل على إطفاء النار...، وعند الغروب خيَّم الهدوء على المدينة المقدسة، وهدأت النفوس الثائرة التي تعبت من القتال، فرفعت الأعلام العربية على الشرفات والمباني والأسوار، وفي تلك الساعات الحاسمة وجَّه «باليان» الصليبي إلى صلاح الدين نداء يقول فيه:

«أيها السلطان، اعلم أنّنا في هذه المدينة، في خلق كثير، لايعلمهم إلاّ الله تعالى، وإنّما يفترون عن القتال رجاء الامان، ظنّا منهم انّك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت، ويرغبون في الحياة. فإذا رأينا الموت لا بدّ منه، فوالله لنقتلنّ أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا وامتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك، أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابّة ولا حيواناً إلاّ قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلّنا (و) قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يُقْتَلُ الرجل حتى يَقْتُلَ أمثاله، ونموت أعزّاء أو نظفر كراماً».

فكَّر صلاح الدين طويلاً ثم أجاب الصليبيين إلى طلبهم على أن يخرج منهم من يريد الخروج سالماً في مدة أربعين يوماً، وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل اثنين. وهكذا ظلَّ صلاح الدين في فسطاطه على جبل «الزيتون» يصدر الأوامر الملكية للجيش المنتصر طالباً إليه عدم الاعتداء على الآمنين من السكان، أو قتل أحد من الصليبيين الذين استسلموا، كما طلب إلى السكان المدنيين فتح متاجرهم، والانصراف إلى صناعتهم وزراعتهم، ورتَّب على أبواب المدينة أمناء ليأخذوا من الصليبيين الراحلين الجزية المفروضة عليهم، وكانت أوامر صلاح الدين شديدة تقضي بمعاملة النساء معاملة حسنة، وعدم التعرض لرجال الدين الذين يمارسون طقوسهم الدينيَّة كما أمر القواد أن يكرموا ملك القدس الصليبي الذي استسلم.

ومهما يكن من أمر... فإن الصليبيين كانوا يتحدثون عن صلاح الدين ومواقفه البطولية ومثاليته، عندما بادر إلى توزيع الأموال والهبات، وتسخير الدواب لنقل المرضى والشيوخ وعن رأفته بالأطفال، وعطفه على الضعفاء، والفقراء... وكانوا يتحدثون في مجالسهم عن

عدله وإخلاصه، وعن جنوده الذين كانوا يسيرون على خطاه في مجال المروءة والشهامة.

هذا الفصل عن صلاح الدين قد يبدو خارجاً عن الموضوع، ولكنه يتعلق مباشرة بالبحث عن «النزارية الإسماعيلية» الذي نحن بصدده، وفيه كافة المصادر التاريخية، والأدلة على مساهمة هذه المجموعة مساهمة فعَّالة في الحروب الصليبية، التي لم يستطع المؤرخون إغماض العيون عنها.

وعلى العموم... فإن الدولة الإسماعيلية النزارية في فارس، المعروفة بدولة «أَلَموت» والدولة الأخرى في «مصياف» السورية، وبقايا «المستعلية» الفاطمية وقفت عاجزة عن استعادة الأمجاد العظيمة التي كانت في عهد الخلفاء الفاطميين في الديار المصرية، والمغرب، والشام، وفلسطين، واليمن، والحجاز، وصقلية.

لقد كان لتلك الدولة الكبيرة صفحات بيضاء في سجل الحضارة، وسطور من ذهب في تاريخ العلم، وعندما عصفت رياح الأنانية، والحسد، وحب السيطرة، والاستهتار، والجنون، وتولَّى أشباه الرجال مقاليد الحكم والمسؤوليات فيها، وعندما أفسح المجال للعناصر الغريبة الدخيلة للدخول إلى حرم الدولة والتحكم بمقدراتها... زالت هذه الدولة، ولم يبق لها أي أثر، إلَّا دويلات صغيرة انبثقت منها، ولكنها لم تستمر طويلاً... وإن أبلغ ما قيل عن الفاطميين ما ذكرته دائرة المعارف الإسلامية بقولها:

> كانت مملكة الفاطميين تمتد من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى داخلية تركستان، وهي عبارة عن كل القسم الغربي من آسيا... أي من حدود خراسان إلى جبال بلاد الشام، ومن بحر قزوين إلى الشواطىء الجنوبية من البحر المتوسط... ناهيك عن الأجزاء الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

النشاط الثقافي في العهد الأخير

تتأثر الحركة الأدبية، والنشاط الفكري عادة، وفي أية دولة بالأوضاع السياسية العامة التي تحياها هذه الدولة، وفي العهد الأخير للدولة الفاطمية طرأ على النشاط الأدبي ما طرأ على الأوضاع السياسية من ضعف وانهيار، وذلك نتيجة للحالة الشاذة التي سادت البلاد

المصرية خاصة بعد وفـاة الخليفة الفـاطمي الثامن الإمـام المستنصر بالله. فكانت الأحداث، والفتن، والاضطرابات التي تعرضت لها البلاد الفاطمية في الداخل والخارج، وما رافقها من وهن، ويأس، وانسـلاخ الأقطار القريبة والبعيدة عن جسم الدولة، عاملاً أسـاسياً في إصـابة الحركة الأدبية بالشلل. فالأدب لا يـزدهر إلاَّ عنـدما تـوجد الحـرية، والأمن، والاستقرار، والسلام.

إن مكتبة القصر الخلافي، وهي أعظم مكتبة في ذلـك العصر، تعرَّضت أكثر من مرة للسرقة والعبث، والتخريب، وتأكد أن الوزير «محمد بن جعفر المغربي» أخذ من هذه المكتبة ما حمولته خمسة وعشرون جملاً من الكتب النادرة النفيسة.. ويجب أن لا يغرب عن البال بأن «بدراً الجمالي الأرمني» عندما أعاد للبلاد الفاطمية استقرارها، عادت الحياة الفكرية تأخذ دوراً جديداً فيه بعض التقدم.

ففي عهد بدر الجمالي الأرمني وابنه الأفضل، اخذت البلاد المصرية تستعيد بعض نشاطاتها الفكريـة، فجذبت إليهـا بعض المفكرين العلماء والشعراء والأدباء الذين أخذوا يبعثون النشاط الفكري بمؤلفاتهم، وبحوثهم، وقصائدهم، وكل هذا أوجد لدى أصحـاب السلطة في الدولة، والمسؤولين بعض الاطمئنان...، واتجهت الأنظار إلى رؤية بعض العلماء الذين برزوا في هذا المجال... أمثال: «محمد ابن بركات السعيـدي المصري» تلميـذ «القضاعي» الـذي تناول موضوع الخطط من بعده في كتابه «خطط مصر»، كما ألَّف في علم اللغة كتاباً أهداه للأفضل الجمالي واسمه: «كتاب الإيجاز في معرفة ما في القرآن من منسوخ وناسخ» ولهذا العالم تصانيف أخرى في النحو، وقد كانوا يطلقون عليه اسم «بحر العلوم» وذلك لما اتصف به من اطلاع وتبحّر في العلوم.

وهناك «علي بن جعفر بن علي السعدي» المعروف «بابن القطَّاع» وهذا العالم رحل عن جزيرة صقلية سنة ٥٥٠ هـ. عندما أوشكت على الوقوع في أيدي الروم، وعندما جاء إلى مصر وجد الرعاية والعطف من قبل المسؤولين، حتى أن الأفضل كلَّفه بتأديب أولاده، وله عدد من المصنفات.

وفي تلك الفترة... انتقل الشعراء من مدح الخلفاء إلى مدح الوزراء،

حتى فرض على الشعراء المادحين أن يقرنوا اسم الوزير إلى جانب الممدوح وإلاّ حلّت عليهم نقمة الوزير وغضبه، والويل للشاعر الذي يتجه بمدائحه إلى غير الوزراء. إذ أنه بذلك يتعرض للإهمال، وللضغط مهما بلغ شعره من الروعة والجودة، وعلى سبيل المثال نذكر الشاعر «إسماعيل بن محمد» المعروف «بابن مكنسة» الذي وصفه «أمية بن أبي الصلت الأندلسي» بأنه الشاعر المتصوف القليل التكلف، المتفنن في وشي جد القريض وهزله، والضارب بسهم في رقيقه وجزله.

وهذا الشاعر بالرغم من تفوقه لم ينل الحظوة لدى الأفضل، لأنه لم يمدحه، ولم يطر أعماله، فحكم عليه بالموت الأدبي، إذ وضعه تحت المراقبة، ومنع عنه الرزق، وسجنه في منزله، وجمّد نشاطه، وطارده حتى ساءت أحواله، كان ذلك عندما مدح أحد عمّال النصارى المسمّى «أبو مليح».. وهذا الرجل كان يعطف عليه ويبره.

وكتب الأدب تذكر على صفحاتها بأن أكثرية هؤلاء الوزراء كانوا يتذوقون الشعر، ويميلون إلى الأدب، وبعضهم كان يقرض الشعر، من هنا كانوا يكرمون رجال الأدب، ويعطفون عليهم، لا حباً في الظهور والدعاية للنفس، ونيل المدائح، بل حباً في الأدب نفسه، وكل هذا شجع رجال الأدب وأعلامه، فوفدوا إلى مصر، ووجدوا على أرضها كل تقدير ورعاية ممّا كان له أثره في عودة الحياة الأدبية إلى جزء يسير ممّا كانت عليه فارتفعت عتيرة الأدباء والشعراء بروائع الشعر، وطرائف النثر، وحفلت كتبهم، ودواوينهم بكل رقيقٍ ورائعٍ من فنون الأدب حتى أصبحت رسائلهم وكتبهم ومقالاتهم مثالاً يحتذى به.. منهم:

أبو الفتح الدمياطي، وابن الخلال، وابن الصيرفي، والقاضي الفاضل. فظلّت النهضة الأدبية محافظة على وجودها، وأصبح لمصر في عهد هؤلاء الوزراء وجود أدبي متفوق بالنسبة للعالم العربي والإسلامي.

فالدولة الفاطمية بالرغم من فقدان الشرعية الخلافية والإمامية ظلت متماسكة إلى حد ما بفضل جهود بعض الوزراء الأقوياء الذين أشرنا إليهم.. فحافظوا على ثروة البلاد الفكرية، واستطاعوا أن يجلبوا الأدباء إلى بلاد الكنانة، والعلماء والشعراء والفنانين من البلاد

الأخرى في حين انتاب الضعف الخلافة العباسية المناوئة في تلك الفترة، فانقسمت إلى دويلات صغيرة وفقيرة، وهذا بعكس مصر التي أصبحت قبلة كل من يسعى إلى الثروة، وبحبوحة العيش، ولكن كل هذا لم يدم طويلاً، إذ جاء في فترات متعاقبة. أمَّا بالنسبة للأدب فإن جود الوزراء وعطاياهم شجَّع الشعراء أيضاً على إرسال مدائحهم وهم في بلادهم، وكانت هبات الوزراء ترسل لهم وهم في أماكنهم دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الحضور إلى مصر.. وهذا معناه أن هؤلاء الوزراء كانوا يشجعون الأدب ليس في الديار المصرية فقط، بل في البلاد العربية كافة.

وكان بدر الجمالي الأرمني رغم انشغاله بالقضاء على أسباب الفتنة، وترسيخ أقدام الدولة، وإشاعة الأمن والاستقرار والازدهار، لا يرد الشعراء من على بابه، كما كان جوّاداً يسمع المديح ويثيب عليه، وقصة الشاعر الشامي «علقمة بن عبد الرزاق العليمي» مع بدر معروفة، وقد سبق لنا أن ذكرناها، ولكن كل ذلك لم يمنع بدراً من قتل بعض الشعراء المجيدين أمثال: ابن أبي الشحناء، وعلي بن إسماعيل، الذي وصفه عماد الدين بقوله:

«لم يكن له نظير في الأدب سوى ابن أبي الشحناء».

وكان الأفضل الجمالي معروفاً بحبه للشعر وللشعراء، وكان له مجلس في دار الملك كما ذكرنا مخصصاً للشعراء الذين يقصدونه لإنشاد قصائدهم وتلقي الأنعام وما يغدقه عليهم من صلات، ويشبه الشاعر «ابن العلاّني» هؤلاء بالحجيج:

فمكة مصر، والحجيج وفوده ... ويمناه ركن البيت والنيل زمزمُ
وشاكر ما تولي مقرٌ بعجزه ... ولو أنه في كل عضوٍ له فم

وظهر منذ عهد الأفضل غرض جديد من أغراض الشعر علاوة على ما كان معروفاً من قبل ـ كالمدح ـ والرثاء ـ والوصف، وذلك هو الشعر الذي يتطرق إلى الحروب الصليبيَّة، فقد أخذ شعراء تلك الفترة يذكرون جهاد الوزراء وحروبهم مع هؤلاء الدخلاء، وانتصارهم عليهم، ومحاولة تبرير مواقفهم، ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت الأندلسي في قصيدة يذكر فيها خروج الأفضل الجمالي لحرب الصليبيين قال:

جردت للدين والأسياف مغمدةً سيفاً تفلُّ به الأحداث والغيرُ
وقمت إذا قعد الأملاك كلّهم تذب عنه وتحميه وتنتصر

وكان الشاعر أمية بن أبي الصلت قد جاء من بلاد المغرب يجذبه إلى مصر جود «الأفضل»، ويبدو أنه نال حظوة لديه بادىء الأمر.. ثم غضب الأفضل عليه، وسجنه، ممَّا اضطرَّه بعد خروجه من السجن إلى الرحيل سنة ٥٠٦ هـ. ثم يئس من استعادة مكانته لدى الوزير، فكتب الرسالة المصرية التي هاجم فيها مصر والمصريين، ووصف ما لقيه فيها، وما شاهده إلاَّ أنه ذكر كثيراً من أدباء مصر وشعرائها الذين عرفهم مثل: علي بن جعفر بن البوين من «معرة النعمان». ويذكر أمية أن الأفضل لم يقبل على أحد من الشعراء كإقباله على علي، فقد أفاض عليه سحائب إحسانه، ودرَّ عليه إنعامه، ولقبه بأمين الملك، وأدناه، واستخلصه.

ولابن بوين في الأفضل أشعار كثيرة ومنها:

يا من تنافس فيه السمع والبصرُ كما تغايرُ فيه الشمس والقمرُ
ومن تحكَّم في الأرواح فاحتكمت ألاَّ يحكم فيها بعده بشرُ

وممّن ذكرهم أمية أيضاً: علي بن جعفر بن الأغلب السعدي، الذي وفد إلى مصر من جزيرة «صقليَّة» وكان من أئمة الأدب في عصره، وله تصانيف كثيرة منها كتاب «الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة» «صقليَّة»، وكتاب «لمح الملح» ويتضمن الكثير من أشعار الأندلس.

ومن الشعراء الذين نعموا بجود الأفضل «مفضل بن حسن العسقلاني» وله فيه شعر جيد كقوله:

أقول والنجم مرقومٌ بغرته سطراً نظرت وضوء الصبح مبتسم
أماء خديه أضحى في زجاجته يدير أم ملؤها في وجنتيه دم
صيغَ الصباحُ ضياء من مباسمه فاستنبطت حلكاً في شعره العتم

وهناك... «علي بن إبراهيم» الملقب «بابن العلاَّني»، و «جعفر بن الفضل» الملقب «بالمهذب»، و «حسن بن الزيد الأنصاري» الذي كان من المقدمين في ديوان الإنشاء، والذي قال عنه القاضي الفاضل: «إنه في فنه لم يسمع الدهر بمثله» ولابن الزيد في الأفضل قصائد عديدة منها:

خلَع الزمـان عليَّ حلـه مفخر شرفاً بمدح الأفضال المفضالِ
يلقى المـدائـح بـالمنائـح واهباً ويصــدِّق الأقـوال بـالأفعــال

ومن قوله:

لولا وجودك في الزمان وجودك إلى محي المكارم بعدُ بعدُ وفاتها
لم يعرف المعروف في الدنيا ولو طفنا عليه في جميـع جهاتهـا

ومن الشعراء الذين مدحوا الأفضل «مسـعود الدولة النحوي»، و «الشريف محمد بن هبة الله الحسيني» الذي جاء من طرابلس، وحظي، بمنن الأفضل وأجزلهـا. وهناك غيـرهـم كثيرون أمثـال: «الدجرجاوي» و «الناجي المصري» و «علي بن النضر الأديب» الذي أثنى عليه أمية بن أبي الصلت بقوله:

«ذو الأدب الجم، والعلم الواسع، والفضل البارع، وله من سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى، والرتبة الأولى».

على أن الشاعر المصري الذي ازدان به عصر الأفضل فهو «ظافر الحدَّاد» الذي أكثر من مدح الأفضل والخلفاء الفاطميين، يصفه العماد بقوله:

«ظافر بخطه من الفضل ظافر».. يدل نظمه على أن لديه الأدب الوافر، وشعره بوجه الرقة والسلامة سافر... وما أكمله لولا أن مداح المصري... والله له غافر... وحدَّاد لو أنصف يسمَّى جوهرياً.. وكان أهدى يروي شعره الروي للقلوب الصادية رياً»

وهناك من الشعراء من نقم على الأفضل فهجاه، ومن هؤلاء «الناجي المصري» الذي يعتبر من شيوخ الأدب في عصره.. فقد قال في الأفضل:

قل لابن بدرٍ مقال من صدقه لا تفـرض الـوزارة الخلقـة
إن كنت قـدْ نلتهـا مـراغمـةً فهي على الكلب بعدكم صدقة

وتذكر كتب الأدب أن الأفضل كان شاعراً يقول الشعر الجيد... ومن شعره في غلامه «تاج المعالي».

أقضيــبٌ يميسُ أم هــو قــدُّ وشقيـق يلـوح أم هــو خــدُّ
أنـا مثل الهـلال سقماً عليـه وهو كالبـدر حين وافـاه سعدُ

ويروى: أنه كان شديد الغيرة على نسائه، فقد أمر مرة بقتل جارية تطلعت إلى الطريقة فلمَّا جيء برأسها إلى بين يديه قال:

نظـرتُ إليها وهي تنظـر ظلها   فنزّهت نفسي عن شريكٍ مقاربِ
أغارُ على أعطافها من ثيـابها   حذاراً ومن مسكٍ لها في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدر مثلهـا   لما كان يرضى باجتماع الكواكب

وكان الأفضل محباً لجمع الكتب، حتى وجد لديه بعد موته مكتبة فيها خمسمائة ألف كتاب ويروى أيضاً أن أحد وراقي العراق أراد شراء كتب «أفرأيم بن الزفان» الطبيب اليهودي المشهور، الذي يقال إنه كان يملك أكثر من عشرين ألف مجلد، فأمر الأفضل بشرائها، وأضافها إلى خزائن كتبه.

وبعد سقوط الدولة الفاطمية... همدت الحركة الفكرية، ومات سوق الأدب ولعلَّ خير وصف لهذا الحال مـا قال عماد الدين الأصفهاني:

«انكسفت شمس الفضائل الزاهرة، ورخص سعر الشعر، وانخفض عَلَمُ العلم، وضاق فضاء الفضل، واتسع جاه الجهل، وانحلَّ نظام أهل النظم، وانتثر عقد ذوي النثر، واستشعر الفاقة الشعراء، وعدم البلغة البلغاء، وعدّ الفضل فضولاً، والعقل عقولاً... وطلب المهذب مذهباً في الذهاب محبوباً، ومركباً في النجاة مجنوباً».

البطائحي بعد الأفضل

عندما قتل «الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني» وُزر ابن البطائحي للآمر بأحكام الله وذلك سنة ٥١٥ هـ. ولقب بالأجل المأمون تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين. ثم تجدد له في نعوته بعد ذلك الأجل المأمون، تاج الخلافة، عزّ الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين والدنيا ثم نُعت بما ينعت به الأفضل وهو السيد الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافة قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين.

ومن الجدير بالذكر أن الآمر بأحكام الله لم يستوزر أحداً بعد قتل المأمون، بل استعان ببعض المستشارين كما ذكرنا، وعلى رأسهم الراهب النصراني ـ «ابن نجاح بن قنا»، ولقب: بـ الأب القديس الروحاني النفيس، أب الآباء، سيد الـرؤساء، مقدم النصرانية، وسيد البطركية، وثالث عشر الحواريين.

لقد اختلف المؤرخون في نشأة ابن البطائحي... فذكر بعضهم بأن أباه كان من عملاء الأفضل في العراق، فمات ولم يخلّف شيئاً

فتزوجت أمه، وتركته فقيراً، فاتصل بأحد معلمي البناء في مصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبيرة.. فدخل مرة إلى دار الأفضل فرآه خفيفاً، رشيقاً، حسن الحركة، حلو الكلام. فأعجبه وسأل عنه فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين ثم تقدم، وارتفعت منزلته، وعلت حتى صار وزيراً خلفاً له. أمَّا المؤرخ المقريـزي فيدحض هذه القصّة ويقول:

إنه من أعيان المشارقة، أبوه: الأمير نور الدين أبو شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبو الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبو علي حسن بن تمام المستنصري، أي أنه من بيت شغل أفراده المراكز العليا، واتصلوا بالخلفاء، وقد مات والده سنة ٥١٢ هـ. وهو في خدمة الأفضل. وممَّا يروى عنه:

أنه وهو في سن الثانية عشرة كان في جملة خاصة الإمام «المستنصر بالله»، وكان يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة في مهمات مختلفة فيجد لديه الثقة والأمانة، ممَّا جعله يقـول هذا «المـأمون» دون الجماعة، ومنذ ذلك الوقت عرف بهذا الاسم. بعد ذلـك اتصل بخدمة الأفضل وظلَّ يعاونه حتى قتل، وبعد موت الأفضل قلَّده الآمر بأحكام الله «الوساطة» وهي دون الوزارة، ثم أعطاه الوزارة سنة ٥١٥ هـ. فدبَّر الأمور وظلَّ حتى قبض عليه سنة ٥١٩ هـ. مع أخوته الخمسة، وثلاثين من أهله وخواصّه، وقد ظلَّ معتقلاً حتى صدر الحكم عليه بالموت، وصُلب مع أخوته سنة ٥٢٢ هـ. ومن الجدير بالذكر أنهم ذكروا سبب اعتقاله وعلّلوا مقتله مـع أخوته بأسباب عديدة ومختلفة منها:

أنه بعث إلى «الأمير جعفر بن المستعلي» أخي «الآمر بأحكام الله» يغريه بقتل أخيه مع الوعد بإيصاله إلى سدّة الخلافة... ومنها أيضاً: أنه سمَّ مبضعاً ودفعه لفصد الخليفة الآمر بأحكام الله الذي عرف بالمؤامرة قبل تنفيذها، وهناك من يقول: إنه كان يدعو لخلافة أحد أولاد، نزار بن المستنصر بالله»... وقيل: إنه اتهم بتدبير مقتل الأفضل الجمالي وأولاده، وأولاد أخيه الأوحد، والمظفَّر وكان عـددهم يقرب من المائة ذكر ما بين كبير وصغير.

ومهما يكن من أمر فإن الآمر بأحكام الله وضع ثقته التامة بالمأمون

لدرجة أنه أنابه عنه في خطبة شهر رمضان في جامع القاهرة، وجامع ابن طولون، وجامع مصر، وأطلق يده في إدارة شؤون الدولة وفق ما يراه، وبالفعل قبض بيد من حديد على الأوضاع العامة، وعرف بأنه كان من ذوي الآراء الصائبة، والمعرفة التامة بتدبير شؤون الدولة، كريماً سفاكاً للدماء، شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس والجند والعامة، يكره الوشاة والسعاية بين الناس في أيام حكمه.

ومن الجدير بالذكر أنه كان يصرف للمأمون البطائحي في السنة عشرين ألف أردب قمحاً وشعيراً ومن الغنم برسم مطابخه ثمانية آلاف رأس، وهذا غير الحيوانات والأحطاب، كما كان يصرف له من البخور ما بيانه في الشهر قد مثلت بخمسة عشر مثقالاً، وعود صيفي ستون درهماً، وعنبر خام ستة مثاقيل، وكافور ثمانية دراهم، ومئة ورد، وخمسة عشر رطلاً. أمَّا راتبه الشهري من بيت المال فهو ثلاثة آلاف دينار.

وعندما قبض الآمر بأحكام الله عليه سنة ٥١٩ هـ. وجد لديه سبعين سرجاً بالذهب الخالص ومائتا صندوق مملوءة بالكسوة، ووجد لدى أخيه «المؤتمن» أربعين سرجاً محلًى بالذهب، وثلاثمائة صندوق كسوة عديدة، ومائتا سلة ما بين بلُّور محكَّم وصيني لا يقدّر ثمنها ،ومائة برنية مملوءة كافوراً ومائة سفط مملوءة عوداً، ومن ملابس النساء ما لا يحدّ، وقد حمل كل هذا إلى القصر.

سكن المأمون داراً سميت بالدار المأمونية، وكان في مجال البناء والعمران من أنشط الوزراء وأكثرهم اهتماماً، فقد أقام العديد من المساجد والمشاهد والمناظر، واختطَّ طريقة عملية في إعادة بناء ما تخرَّب من مصر والقاهرة خلال الشدة العظمى، وأمر بالنداء في القاهرة ومصر لمدة ثلاثة أيام، بأن كل من له دار خربة أو أرض فضاء فعليه أن يعمرها، أو يؤجرها لمن يعمرها، ومن تأخر عن ذلك فلا حقّ له فيها، وأباح للناس تعمير كل أرض فضاء سواء الأراضي التي عجز عنها أصحابها أو الأراضي الداخلة في أملاك الدولة.

ومن أجلّ المنشآت المعمارية التي بقيت من عهد المأمون الجامع «الأقمر» الذي بناه الآمر بأحكام الله تحت إشرافه، ويعد من مفاخر العمارة الفاطمية، ويمتاز بأنه من المساجد المعلقة، إذ بنى تحته

حوانيت، وواجهته الغربية أول واجهة من الحجر، وتشتمل على مقرنصات وعقود محفصَّة، وتحفل بالنقـوش والكتابـة الكوفيـة، والظاهرة الثانية في هذا المسجد هي المحراب المقوَّس.

وكان المأمون يجلس للمظالم يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع، ولتحقيق العدالة كتب لجميع الولاة بمطالعته في مستهل كل شهر بأسماء المسجونين، والسبب الذي أوجب اعتقالهم، وقد فعل ذلك بعد أن ثبت لديه بأن بعض الولاة يتصرفون تصرفات شاذة ويعتدون على الكثير من الناس الأبرياء.

لقد ابتكر ما لم يسبقه إليه أحد، وهو «ميقاط» حرير أي «حبل» فيه ثلاثة جلاجل، وفتح طاقة في الروش من سور داره، وصار إذا مضى شطر الليل، وانقطع المشي طرحت السلسلة ودلَّى الميقاط من الطاق، وجماعة من المغاربة يبيتون تحته، فمن حضر من الرجال والنساء متظلماً يشد رقعة في الميقاط بيده، ويحركه بعد أن يقف من حضر على مضمون الرقعة، فإن كانت شكوى لم يمكنوه من رفعها، وإن كانت ظلامة مكنوه من ذلك، وتأخَّر صاحبها إلى أن يخرج الجواب.

وكان القصد من ذلك أن من أصابه ضرر من أهل الستر، أو كانت امرأة من غير ذات البروز لا تحب أن تظهر في الليل،وتتعجل مضرتها قبل النهار، فلتأت لهذا الميقاط.

كان المأمون يخشى الجيش «الأرمني» الذي نظَّمه وخلفه الأفضل الجمالي، كما كان يخشى أن يثور عليه هذا الجيش. فأنشأ فرقة خاصة جعلها حرساً له سمَّاها «المصامدة» لأن قائدها كان يسمَّى «عبد الله المصمودي» وهـذه الفرقـة ألحقت بالجيش الفـاطمي، وأصبحت جزءاً منه، وكان لها حارة في القاهـرة عرفت بحـارة «المصامدة» وقد ذكر أن أفرادها من البربر الذين وفدوا إلى مصر مع الخليفة الإمام المعز لدين الله.

وفي عهد الآمر بأحكام الله أي سنة ٥١٧ هـ. وفـد على الوزير المأمون رسول طغتكين صاحب دمشق، «واق سنقرة» صاحب حلب للاجتماع والاتفاق على حرب الصليبيين. فبادر المأمون وجهَّز جيشاً برياً جعل على رأسه «حسام الملك النرسي» وأتبعه بأسطول حربي مؤلف من أربعين قطعة، وتوجه الجيش والأسطول إلى «عسقلان».

ولكن هذه الحملة باءت بالفشل، واضطرَّ المأمون سنة ٥١٧ هـ. إلى تسليم مدينة صور إلى طغتكين صاحب دمشق لعدم استطاعة الدولة الفاطمية الدفاع عنها ضد هجمات الصليبيين.

بعد اغتيال الوزير المأمون تفرَّغ الآمر بأحكام الله لشؤون الدولة، واستغنى عن الوزارة نهائياً، غير أنه استخدم ما يسمَّى بالمستشارين وأهمهم:

«جعفر بن عبد المنعم» وآخر سامري اسمه «أبو يعقوب إبراهيم» وكان إلى جانبهما راهب نصراني اسمه «ابن نجاح» تحكَّم في الناس، وتمكَّن من فرض سيطرته على الدواوين، وعيَّن النصارى في الوظائف العليا، وحقق مطالبهم، وذهب إلى أبعد من ذلك بأن أخذ يصادر الأموال غير المشروعة فحذا حذوه المباشرون، والمتعاملون، والضمناء، والعمَّال. ولما تفاقم أمره قبض عليه الآمر، وحاكمه وعندما ثبتت عليه التهم ظلَّ يضرب بالنعال حتى مات، ثم جرَّ إلى كرسي الجسر، وسُمِّر على لوح وطرح في النيل.

توفي الآمر بأحكام الله يوم الثلاثاء ١٤ ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ. وذلك عندما وثب عليه جماعة من المسلمين وقتلوه، وقيل إنهم من «النزارية».

الآمر بأحكام الله

كان الآمر بأحكام الله كريماً سمحاً كثير النزهة، مغرماً بجمع الأموال والزينة، وكانت أيامه كلها لهواً وعيشة رضية لكثرة عطائه، وعطاء حاشيته بحيث لم يوجد في مصر من يشكو زمانه البتة. إلا أن أعمال الراهب «ابن نجاح» وما بدر منه من أعمال سيئة قبّحت سيرته لدى الناس، وذهبت بمحبتهم.

كان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن، ويروي تاريخ العرب والشعر، وقد اشتهر بأنه جدّد رسوم الدولة، وأعاد إليها بهجتها بعدما كان الأفضل قد أبطل ذلك، ونقل الدواوين، والأسمطة من القصر إلى دار الملك في مصر.

وكان يركب للنزهة دائماً وخاصة يومي السبت والثلاثاء، ويتجول في أيام النيل بحرمه إلى «اللؤلؤة» على الخليج، وهو من قصور الفاطميين المشهورة.

في أواخر عهده وقع غلاء أقلق الناس. وفي ذلك الوقت امتلك الصليبيون عدداً من المعاقل والحصون في سواحل الشام، ومنه عكا سنة ٤٩٧ هـ، وعرقة سنة ٥٠٢ هـ. وطرابلس الشام - وبانياس - وجبيل - وقلعة تبنين سنة ٥١١ هـ .. و تسلموا صور أيضاً سنة ٥١٨ هـ.

ومهما يكن من أمر... فإن الآمر بأحكام الله، عمر الهودج بالروضة، والدكة ببركة الحبش، وتنيس، ودمياط، كما جدّد قصر «القرافة» وبنى على المنظرة التي يقال لها: بئر دكة «الخركاة» منظرة من خشب فيها طاقات مدهونة تشرف على خضرة «بركة الحبش» سجل فيها أسماء الشعراء وأسماء بلدانهم ووضع صورهم وطلب من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر، وبجانب صورة كل منهم رفّ لطيف مذهّب. فلما دخل الآمر بأحكام الله، وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده... ففعلوا ذلك، وأخذوا صررهم وكانوا شعراء عدّة.

إن مثل هذه المظاهر، وهذا التكريم للشعراء يعود إلى أن الآمر بأحكام الله كان شاعراً مجيداً وقيل إن له ديواناً ضاع مع التراث الفاطمي أيام صلاح الدين الأيوبي. ومن الأشعار التي تنسب إليه:

دعِ اللوم عني لست مني بموثقٍ   فلا بدَّ لي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فراتٍ ودجلةٍ   وأجمع شمل الدين بعد التفرق

وينسب إليه أيضاً:

أما والذي حجَّت إلى ركن بيتهِ   جراثيم ركبانٍ مقلدة شهبا
لأقتحمن الحرب حتى يقال لي   ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريمٍ   فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحبا

مات الآمر بأحكام الله اغتيالاً كما ذكرنا، وبعد موته ذكر أتباعه أن امرأته كانت حاملاً، وأنها بعد حين أنجبت طفلاً سموه «الطيّب» ولكن هذا الطفل ما كاد يبصر النور حتى دخل كهف الستر، على أن يعود للظهور عندما يحين الوقت... هذا ما تقوله «المستعلية»، البُهُرة.

بعد الآمر بأحكام الله، تسلم شؤون الدولة الفاطمية «الحافظ» وهو من الأسرة الفاطمية ولكنه ليس من نسل الأئمة الخلفاء، وكانت مهمته «الوصاية» على الطفل الغائب «الطيّب»، وبعد الحافظ، جاء الظافر، ثم الفائز وأخيراً «العاضد» الذي تم، في عهده استيلاء وزيره «صلاح الدين الأيوبي» على الدولة الفاطمية وربط البلاد المصرية بالدولة العباسية.

«الوصي الأول» ـ الحافظ ـ

اسمه: عبد المجيد. والده: محمد. لقبة: الحافظ لدين الله. كنيته: أبو الميمون. ولد بعسقلان سنة ٤٦٧ هـ. وذلك لما أخرج الخليفة الإمام المستنصر بالله ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة الكبرى، ولهذا كان يقال له في عهد الآمر بأحكام الله: الأمير عبد المجيد العسقلاني ـ ابن عم مولانا.

مدة حكمه: ثمانية عشر سنة، وأربعة أشهر، وتسعة عشر يوماً، ومات عن عمر يناهز السابعة والسبعين عاماً أي سنة ٥٤٤ هـ.

في عهده وقعت حوادث عنيفة وشدائد. كان حازماً، وسياسياً ليناً

كثير المداراة ـ عارفاً بالأمور ـ جمّاعاً للمال، مغرماً بعلم النجوم، يغلب عليه الحلم، وقد أجمعت المصادر التاريخية على القول: إنه لما قتل الخليفة الآمر بأحكام الله، أقام «برغش» و «هزار الملوك» الأمير عبد المجيد في قصر الخلافة ولقّباه «بالحافظ لدين الله»، والكفيل للخليفة ـ وللإمام المنتظر من زوجة الآمر بأحكام الله، وقد تسلم هزار الملوك الوزارة ثمناً لذلك، ولكن الجيش ثار عليه وأقام «أحمد بن الأفضل الجمالي» المشهور «بكتيفات» لأن ذلك الجيش بالرغم من مضي عشرة أعوام على وفاة الأفضل، ظل على ولائه لآل بدر الجمالي، وفي ذلك الوقت اجتمع في ساحة ما بين القصرين خمسة آلاف فارس وراجل على رأسهم «رضوان بن ولخشى» فنادوا «بأحمد بن الأفضل» وقالوا: هذا هو الوزير ابن الوزير، ثم قتلوا «هزار الملوك» ونهبوا أحد شوارع القاهرة الرئيسية.

وبعد أن تسلم «أحمد بن الأفضل» شؤون الوزارة سنة ٥٢٥ هـ. قبض على «الحافظ» وسجنه مقيداً، وأخذ بالتفتيش على الطفل «الطيّب» وكان يريد قتله، ولكنه اقتنع أخيراً بأنه غير موجود ولم يولد بعد. ومن الجدير بالذكر أنه ألغى الكثير من الشعائر الدينية الفاطمية، واستعاض عنها بالدعاء «للقائم المنتظر»، ولكن عهده لم يطل أكثر من عام، لأن «يانس» تمكن من قتله سنة ٥٢٦ هـ ، وبعد أن نجح بذلك أخرج الحافظ من سجنه، وأعاده إلى القصر.

بعد خروج الحافظ من السجن كان أول عمل قام به هو: أخذ البيعة لنفسه على أنه الخليفة الشرعي، وإمام الزمان، وقد سبب ذلك حدوث انشقاق في الفرقة المستعلية فانقسمت إلى فرقتين: الحافظية: وهي التي أيدته وسارت في ركابه، والطيبية، وهي التي اعتبرته مغتصب حق الطيّب. وفي غمرة هذا الصراع خرجت بلاد اليمن عن طاعة الحافظ، وكانت «أروى الصليحي» هي القائمة بأمر الملك، فرفضت الاعتراف بالوضع القائم في مصر، وأعلنت إلى المقربين منها عن عطفها وميلها إلى النزارية.

بعد مقتل «أحمد بن الأفضل ـ كتيفات» استوزر الحافظ «يانساً» صاحب الباب، ولكن مدته لم تطل، فهلك بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة.

فلم يستوزر الحافظ أحداً بعده، بل تولى الأمر بنفسه حتى سنة ٥٢٨ هـ. ثم إنه أقام ابنه «سليمان» مقام وزير، ولكن أيامه كانت قصيرة طالت شهرين، وبعد ذلك عين ولده الثاني«حيدرة»مكانه، ولكن ابنه الثالث حنق عليه، فثارت بينهما الفتنة، وقتل حيدرة الحسن، وبعد هذا الوضع الشاذ ثار «بهرام» الأرمني فاستولى على الوزارة بالقوة سنة ٥٢٩ هـ. وكان نصرانياً، وفي عهده كثر الضرر على المسلمين، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أعماله، فقام «رضوان بن ولخشي» وكان يتولى «الغربية» فجمع الناس لحرب بهرام، وسار إلى القاهرة وباشر قتاله، وفي الجولة الأولى فر بهرام من المعركة، وعندئذ دخل رضوان القاهرة، واستولى على الوزارة سنة ٥٣١ هـ. وهنا كان لا بد له من إيقاع الأذى والذل بالنصارى، وخاصة بالأرمن، كما طمحت نفسه إلى حد الإطاحة بالحافظ، فكثيراً ما كان يقول عنه: «ما هو بخليفة ولا إمام»... إنه كفيل لطفل لم يولد بعد، وهذا لا يصح، فصبر عليه الحافظ إلى أن تمكّن من هزيمته وإسقاطه. فخرج إلى الشام ثم عاد سنة ٥٣٤ هـ. ولكن الحافظ جهز جيشاً وأرسله لمحاربته. فانهزم إلى الصعيد بعد عدة معارك، وأخيراً قبض عليه واعتقله. وفي سنة ٥٤٢ هـ. خرج رضوان من معتقله بالقصر من ثقب، وثار على رأس جماعة مؤيدة له، ولكن الحافظ تمكن من قتله أخيراً.

ذكر المؤرخ المقريزي: بأنه لما مات الوزير «يانس» تولّى الحافظ أمور الدولة بنفسه، فلم يستوزر أحداً وأحسن السيرة، ثم إنه عهد إلى ولده «سليمان» وكان أكبر أولاده، وأحبهم إليه. فأقامه مقام الوزير، ولكنه مات بعد شهرين، فجعل مكانه أخاه «حيدرة» في الوزارة، ونصبه للنظر في المظالم، فشق ذلك على أخيه «الحسن» وكان كثير المال، متسع الحال، له قرى عديدة، ومواش وحاشية، وديوان مفرد ـ فسعى في نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفتين «الجيوشية» و «الريحانية» فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين وقتل منهما ما يزيد على الخمسة آلاف نفس، فكانت هذه الواقعة أول مصائب الدولة الفاطمية في جيشها، ونقص عساكرها.

واستظهر «حسن» وقام بالأمر، وانضم إليه أوباش الناس، ففرّق فيهم الزرد وسماهم صبيان الزرد، وجعلهم خاصته، فاحتفوا به،

وصاروا لا يفارقونه، فإن ركب أحاطوا به، وإن نزل لازمـوا داره، فقامت قيامة الناس منهم، وشرع في تتبع الأكابر، فقبض على «ابن العسَّاف» وقتله، وقصد أباه الحافظ، وابنه حيدرة بالضرر حتى أنهما خافا منه وتغيبا، ثم إنه جد في طلب أخيه حدرة، وهتك بأوباشه الذين اختارهم حرمة القصر. وخرق ناموسه، وسلطـهم يفتشون القصر في طلب الحافظ وابنـه حيدرة، واشتـد بأسهم، وحسنوا له كل رذيلة، وشجّعوه على الأذى، فلم يجد الحافظ بداً من مداراته، وتلافي أمره، فكتب سجلاً بولايته للعهد وأرسله إليه، فقرىء على الناس ولكن كل هذا لم يزده إلا جرأة على أبيه، وهنا أرسل الحافظ «ابن إسعاف» إلى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من فرقة «الريحانية» فمضى واستصرخ الناس لنصرة الحافظ على ولده، وجمع أمماً لا تحصى وسار بهم للقاء «الحسن» الذي زج بقواته في المعركة فكانت من أشد المعارك سوءاً على جيش ابن إسعاف الذي انهزم، وعندئذ ركب جيش حسن في أثره فلم ينج منه إلا القليل، وأخذ ابن إسعاف أسيراً فحمل إلى القاهرة على جمل ، وعلى رأسه طـرطوراً من اللبـاد الأحمر. فلمـا وصل إلى مـا بـين القصرين رُشِقَ بالنشاب ومـازال حتى هلك ورمي بعـد ذلك في القصر الغـربي، وقتل «الأمير شرف الدين» فاشتد ذلك على الحافظ، وخاف على نفسه فكتب ورقة إلى الحسن يقول فيها:

> يا ولدي، أنت على كل حال ولدي ولو عمل كلّ منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه، ولا يحملني قلبي وقد انتهى الأمر إليّ أنّ أمراء الدولة وهم فلان وفلان وقد شددت وطأتك عليهم وخافوك، وهم معولون على قتلك فخذ حذرك يا ولدي».

فعندما وقف حسن على الورقة، غضب ولم يتأن، وبعث إلى أولئك الأمراء فلما صاروا إليه أمر صبيان الزرد بقتلهم، فقتلوا عن آخرهم، وكانوا عدة من أعيان الأمراء، وأحاط بدورهم وأخذ سائر ما فيها، فاشتدت المصيبة، وعظمت الرزية، وتخوّفـه من بقي من الجند، ونفروا منه لأنه كان جريئاً مفسـداً شديـد الفحص عن أموال الناس، والاستقصاء عن أخبارهم.. يريد إقلاب الدولة وتغييرها ليقدم أوباشه. لقد آذى الناس وزجهم في السجون وقتل القاضي «أبا الثريا نجم» لأنه كان من خواص أبيه، كما قتل جماعة من الأعيان، ورد

القضاء «لابن ميسَّر»، وتفاقم أمره، وعظم خطبه، واشتدت الوحشة بينه وبين الأمراء والأجناد، وهمّـوا بخلع الحافظ ومحاربة ابنه الحسن وصاروا يداً واحدة، واجتمعوا بين القصرين وهم عشرة آلاف ما بين فارس وراجل، وساروا إلى الحافظ يشكون ما هم فيه من البلاء مع ابنه الحسن، ويطلبون منه أن يعزله من ولاية العهد. أما الحسن فعجز عن مقاومتهم عندما لم يبق معه إلا القليل من جيشه، وهنا تحير وخاف على نفسه فالتجأ إلى القصر، وصار إلى أبيـه الحافظ، حيث تمكن منه وقبض عليه وقيدَه وبعث إلى الأمراء يخبرهم بذلك، فأجمعوا على قتله.. فرد عليهم الحافظ أنه قد صرفه عنهم ولا يمكنـه أبداً التصـرف بغير هـذا ووعدهم بـالزيـادة في الأرزاق والإقطاعات، على أن يكفوا عن طلب قتله، ولكنهم ألحُوا وقالوا: أما نحن وأما هو... واشتد طلبهم إياه حتى أحضروا الحطب قصد إحراق القصر، وبالغوا في التحري على الخليفة، وأخيراً لم يجد بداً من إجابتهم إلى قتله، وسألهم أن يمهلوه ثـلاثاً، فـأناخـوا بين القصرين، وأقاموا على حالهم حتى تنقضي الثلاث، فما وسع الحافظ إلا أن استدعى طبيبيه وهما: «أبو منصور اليهودي» و «ابن قرفة النصراني» فبدأ بأبي منصور وفاوضه في عمل سقية قاتلة، فامتنع من ذلك وأقسم بالتوراة أنه لا يعرف عمل شيء من ذلك فتركه. أما ابن قرفة فعندما كلفه بذلك قال: الساعة ولا يتقطع منها جسده، بل تفيض النفس لا غير، فأحضر السقية من يومه وبعثها إلى الحسن مع عدة من الصقالبة، ومازالوا يكرهونه على شربها حتى فعل، وكان موته سنة ٥٢٩ هـ. وبعد ذلك بعث الحافظ إلى القوم سراً يقول:

«قد كان ما أردتم فامضوا إلى دوركم» فقالوا:

لا بد أن يشاهده منا من نثق به، وندبوا منهم أميراً معروفاً بالشر والجرأة يقال له «المعظم جلال الدين محمد» فدخل إلى القصر، وصار إلى جنب الحسن، وكان مسجى بثوب، فكشف عن وجهه، وأخرج من وسطه آلة من حديد، وغرزه بها في مواضع عدة من بدنه إلى ان تيقن من موته.. فعاد إلى القوم، وأخبرهم فتفرقوا.

وزراء الحافظ

هزار الملوك جوامرد: أقام لمدة نصف يوم في ١٤ من ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ. ويقول المقريزي:

«إن الحافظ لدين الله جلس يوم مقتل الآمر بأحكام الله كفيلاً لطفل «منتظر» وتقرر أن يكون «هزار الملوك جوامرد» وزيراً، وأن يكون الأمير «السعيد ياغي» متولي الباب «اسفهسلار» وقرىء سجل بهذا الخصوص في الإيوان، وكان الحافظ في الشباك جالساً، وقد تولى قراءته قاضي القضاة «ابن ميسر» على كرسي نصب له أمام الحافظ، بحضور أرباب الدولة، وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة، ولكن الجند المجتمعين بين القصرين أبوا ذلك، وطالبوا بتولية «أحمد بن الأفضل الجمالي» الملقب «بكتيفات»، ولم تهدأ ثورتهم حتى قتل «هزار الملوك» وألقي رأسه إلى الجند، واستدعى بالخلع لأحمد بن الأفضل، فأفيضت عليه في يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي القعدة، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة في ركابه، فكانت وزارة «هزار الملوك» نصف يوم بغير تصرف، ووقع النهب في القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، ونهبت القيسارية، وكان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخازنهم، فكان هذا أول حادث حدث في القاهرة من النهب والطمع، وطيف برأس هزار الملوك على رمح.

كان هزار الملوك من كبار غلمان الآمر بأحكام الله، وقد اصطفاه لنفسه، وردّ له المظالم والنظر في أحوال الجند، وهذا نوع من الوزارة. ويزيد المقريزي على قوله:

بأن الآمر بأحكام الله وهب مرة لغلامه هزار الملوك جوامرد ثمانين ألف دينار، وكان قد أعطى غلامه الآخر المسمى «برغش» مثل هذا المبلغ، وكانا أخص غلمانه، وأقربهم منه، وأشرفهم عنده منزلة، وكانا اسمح خلق الله، وكان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر، فإن هزار الملوك كانت صدقته في كل يوم راتباً قدّروه بالقرافة بأربعة آلاف درهم في ألف كاغدة على يد الثقة «ابن الصعيدي» و «غزال الوكيل» ، وكانت عطاياه من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً، وذلك عند ركوبه إلى القصر وعودته منه خوفاً من أن يقف أحد له ويطلب منه.

أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي «كتيفات» تولى الوزارة في ١٥ ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ.. حتى ١٦ محرَم سنة ٥٢٦ هـ... وقد مرّ معنا أن أحمد هو الوحيد الذي بقي حياً من أولاد الأفضل، وأولاد اخوته، وأن الجيش هو الذي أرغم الحافظ على إسناد الوزارة إليه، وما أن استقر «كتيفات» في الحكم حتى قبض على الحافظ وسجنه، وأعلن الدعوة للإمام المنتظر، كما أبطل الكثير من قوانين الإسماعيلية وطقوسها «المستعلية» الدينية، وقد كان على أهبة القضاء على كل ما

يسمى إسماعيلياً لـولا أن يقتل أخيراً، وبعد مقتله خرج الحافظ من سجنه، وأعيد إلى القصر.

يانس الأرمني: من ١٦ محرَم سنة ٥٢٦ هـ. حتى ٢٦ من ذي الحجة من هذا العام.

يقول المقريزي:

لما قتل «كتيفات» بادر صبيان الخاص الذين تولوا قتله إلى القصر، ودخلوا ومعهم «الأمير يانس» متولي الباب إلى الخـزانة التي فيهـا الحافظ، وأخرجوه إلى الشباك، وأجلسوه في منصب الخلافة وقالوا: والله ما حركنا على هذا إلا الأمير يانس، فجازاه الحافظ بأن فوَّض إليه شؤون الوزارة في الحال، وخلع عليه، فباشرها مباشرة جيدة.

وكان يانس هذا مولىً أرمنياً لباديس جد عباس الوزير، فأهداه إلى الأفضل بن بدر الجمالي، وترقّى في خدمته، ثم وليَ الباب، وهذه أعظم وظائف الأمراء. وكني بأبي الفتح ولقب بالأمير السعيد، وكان عظيم الهمة، بعيد الغور، شديد الهيبة، فهدأت الدهماء، وصلحت الأحوال، واستقرت الخلافة للحافظ، إلاَ أن علاقته أخيراً ساءت بالحافظ فدبّر موامرة، وقتله بالسم، ولما توفي يانس، تولى الحافظ شؤون الوزارة بنفسه، وأخيراً أقام ولده الأكبر سليمان ولياً للعهد، وجعله في مقام الوزير، وذلك ليستريح من مقاساة الوزراء ومضايقاتهم في أوامره، ونواهيه، وهكذا ظل الحافظ دون وزراء حتى جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ.

بهرام الأرمني: من ١١ ـ ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ. حتى ١١ من جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ. أرمني الجنسية، نصراني الدين من «تل باشر»... ويذكر ابن ميسَّر:

«أن سبب حضوره إلى مصر.. هو أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه ممن ولي بعده، فتعصبت عليه جماعة من الأرمن، ورفضوه، وولوا عليهم غيره، فخرج من تل باشر مغاضباً وقدم إلى القاهرة، والتحق بخدمة الدولة. وكان بهرام عاقلاً مقداماً في الحرب حسن السياسة، جيد التدبير، فترقى في الخدمة حتى ولي المحِلة فقام بولايتها حتى خرج إلى القاهرة بعد قتل حسن، وتولى الوزارة».

تقدم بهرام بعد قتل حسن بن الحافظ، فمسكه الأجناد بظاهـر

القاهرة وأدخلوه على الحافظ يوم الخميس بعد العصر في الحادي عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة. فخلع عليه يوم الأحد في الرابع عشر من الشهر المذكور، ثم خلع عليه ثانياً يوم الخميس في الثامن عشر من الشهر المذكور أيضاً وسمّاه «سيف الإسلام» و «تاج الخلافة»... فشقّ ذلك على الناس، وتطاول النصارى في أيامه على المسلمين، وكان هو قد أحسن السيرة، وساس الرعية، وأدّى الطاعة للحافظ، وأنفق على الجند الأموال الطائلة فاستقامت له الأحوال، وراسله الملوك، وزال كل ما كان في البلاد من الفتن، ولم ينكر عليه سوى أنه كان نصرانياً.

ظل بهرام في الوزارة حتى طرده منها «رضوان بن الولخشي» الذي حلَّ مكانه أخيراً.

مات في ٢٠ ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ. فحزن عليه الحافظ، وأمر بإغلاق دوائر الدولة ثلاثة أيام.

رضوان بن الولخشي: من ١١ ـ ١٣ جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ حتى ١٤ من شوال سنة ٥٣٢ هـ.

لمّا خرج بهرام من القاهـرة، دخل، رضـوان إليها، فـوقف بين القصـرين، واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزولـه إلى دار الوزارة، فنزلها وخلع عليه خلع الوزارة.

ويروى: أن بهرام خرج من القاهرة يوم الأربعاء وقت العصر في الحادي عشر من جمادى الأولى، وأن رضوان نزل دار الوزارة بعد خروج بهرام وخلعت عليه الوزارة يوم الجمعة الثالث عشر من جمادى الأولى، ونعت بالسيد الأجل والملك الأفضل، فطلب الأموال من الخليفة، وأنفق في الجند، ومَهّد الأمر وكان رضوان أول وزير يلقب بالملك.

ولد ليلة عيد الغدير في ١٨ من ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ ، والتحق بخدمة الدولة، وترقى في الخدمة حتى أصبح أحد الأمراء المميزين في خلافة الآمر بأحكام الله.

امتاز بالشجاعة والإقدام، وهو الذي قاد الثورة ضد تولية «هزار الملوك» الوزارة، وطالب بتوزير «أحمد بن الأفضل» ثم ولي «قوص» و «أخميم» سنة ٥٢٨ هـ . وأصبح صاحب الباب سنة ٥٢٩ هـ. وهي

رتبة تلي رتبة الوزارة، ولكن بهرام خشي وجوده بالقاهرة، فولّاه «عسقلان» في رجب سنة ٥٢٩ هـ ، ثم اضطرَّ لاستدعائه مرة اخرى للقاهرة لوقوفه في وجه الأرمن الذين يقطنون مصر، ثم ولّاه الغربيَّة في صفر سنة ٥٣٠ هـ. وظلَّ فيها حتى خرج على رأس قواته فطرد بهرام، وتولّى الوزارة.

واستطاع الحافظ أن يثير أحد كبار الأمراء ضد رضوان وهو «علي ابن السلّار» فتمكن هذا من إثارة الجند ضده، وقامت الفتنة يوم الاثنين في الثالث عشر من شوال سنة ٥٣٤ هـ. واضطرَّ رضوان إلى الهرب إلى عسقلان فدخلها وجعلها معقله، وتوجه أخوه الأوحد إبراهيم إلى الحجاز وأقام بها حتى مات، وسار ابن أخيه الذي كان والياً على مصر إلى بغداد فأكرمه أصحاب الحافظ هناك، ولم يزل عندهم حتى مات، ثم خرج رضوان من عسقلان إلى صلخد حيث نزل على أمين الدولة «كمشتكين» الذي أبرَّه وأكرمه.

وعاد رضوان في صفر سنة ٥٣٤ هـ في قوة من ألف فارس، ولكن الحافظ تمكن من القبض عليه يوم الاثنين في ٤ من ربيع الآخر من السنة المذكورة، واعتقلة قريباً من الدار التي فيها بهرام، وظلَّ معتقلاً حتى استطاع الهرب من نقب نقبه وذلك في ٢٣ من ذي القعدة سنة ٥٤٢ هـ . وقد تجمَّع حوله عدد من الأجنادوعرب«لواته» فتمكن من دخول القاهرة ونزل بالجامع الأقمر يوم الجمعة ٢٦ من ذي القعدة، ولكن بعض جنود السودان استطاعوا قتله بعد أن أجزل لهم الحافظ العطاء في ذلك اليوم.

نجم الدين سليم بن مصال الّلكي: تولّى الوزارة من سنة ٥٣٤ هـ. حتى سنة ٥٤٢ هـ . وذكر أنه تولّاها مرتين: المرة الأولى في خلافة الحافظ سنة ٥٣٤ هـ. ويذكر المؤرخون حوادث تلك السنة بقولهم:

وفيها ولّى الحافظ «الأمير نجم الدين سليم بن مصال الّلكي» شؤون الدولة، ويبدو أن ذلك بعد أن قبض على «رضوان بن الولخشى» في ربيع الآخر، وقد ظلَّ ابن مصال يدبر الأمور حتى سنة ٥٣٢ هـ على الأقل.

ويذكر المقريزي حوادث تلك السنة كالآتي:

«وفيها خرج رضوان من ثقب نقبه بالقصر، وذلك أن الحافظ اعتقله في

القصر وأرسل يسأله عن أشياء من جملتها زيارة «نجم الدين بن مصَّال» له وتردّده عليه فأجابه إلى ذلك بالنظر لثقته بابن مصَّال، وحضر ابن مصَّال في يوم من الأيام لخدمة الخليفة، وبدأ بزيارة رضوان فدخل إليه ومعه مشدة فيها رقاع بحوائج الناس ليعرضها على الحافظ، وكانت عادته ذلك، فاحتاج إلى الخلاء ممَّا جعله يترك مشدته عند رضوان، وعندما دخل الخلاء، أخذ رضوان الرقاع، ووقَّع عليها بخطه كل بما يسوغ التوقيع به، وأتربها وطواها في المشدة، وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ، وقد علم أنه كان عند رضوان فقال له: كيف ضيفنا؟ فقال: على غاية التذكر لنعمة مولانا وجواره، وأخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة، فوجد عليها التوقيع بخط رضوان، فأمسكها وأخرج غيرها فإذا هي موقع عليها توقيع رضوان أيضاً.. فقال له الحافظ:

يا نجم الدين مازلت مباركاً علينا، والله يشكر لك ذلك لقد فرَّجت عنًّا، غمة. فقال: وكيف يا مولانا؟ فقال:

رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربما يشركنا في كثير من أمرنا. فالحمد لله إذا كان هذا. وكتب على الرقاع وأمضاها بخطه، وخلع على ابن مصال.

يتضح من كل هذا أن ابن مصال كان يدبر الأمور ويقوم بعمل الوزراء. ولكن المقريزي، وابن ميسّر يعودان فيذكران: أن الحافظ لم يستوزر أحداً بعد أن قبض على رضوان، وإنمَّا أقام كتاباً على سنة الوزراء أرباب العمائم، ولم يسـمِّ أحداً منهم وزيراً وهم: محمد ابن الأنصاري، وهذا تصرَّف تصرف الوزراء، وصعد المنبـر مع الحافظ في الجمع والأعياد، والقاضي الموفق بن محمد بن معصوم التنيسي، وأبو الكرم الأخرم النصراني. ويرجِّح أن الحافظ صرف ابن مصال بعد القضاء على رضوان وقتله، واستعان بالكتَّاب السابق ذكرهم، وعلى هذا يمكن تحديد وزارة ابن مصال الأولى من سنة ٥٣٤ هـ حتى سنة ٥٤٢ هـ ولم يكن فيها وزير سيف وظلَّت الدولة دون وزراء من سنة ٥٤٢ هـ. حتى موت الحافظ في ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ.

الوصي الثاني: الظافر

اسمه اسماعيل لقبه الظافر بأمر الله. كنيته: أبو المنصور. ولد في النصف من ربيع الآخر سنة ٥٢٧ هـ. وظلّ في الحكم أربع سنين وثمانية أشهر إلّا خمسة أيام. قتل ليلة الخميس في آخر شهر محرَّم سنة ٥٤٩ هـ. وكان له من العمر إحدى وعشرون سنة وتسعة أشهر ونصف الشهر.

لمَّا مات الحافظ، بويع لولده الظافر بموجب وصية أبيه، وقام بشؤون الوزراة «نجم الدين بن محمد بن مصَّال» فلم يرضَ «الأمير المظفَّر علي بن السلَّار» والي الاسكندرية يومئذٍ. فحشد جيشاً وسار به إلى القاهرة، ففرَّ ابن مصَّال، واستقرَّ ابن السلَّار في الوزارة وتلقب «بالعادل»، ولكن لم يمض عليه سوى فترة قصيرة حتى عاد ابن مصَّال إلى القاهرة، ولكن ابن السلَّار قتلـه، وقوي أمـره حتى استوحش منه الظافر وخافه ابن السلَّار واحترز من الظافر على نفسه، وجعل له رجالاً يمشون في ركابه بالزرد والخوذ وعددهم ستمائة رجل بالنوبة، ونقل جلوس الظافر من القاعة إلى الإيوان في البراح والسعة، حتى إذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه، ثم تأكدت النفرة بينهما، فقبض على صبيان الخاص وقتل أكثرهم، وفرَّق باقيهم وكانوا خمسمائة رجل، وما زال الأمر على ذلك إلى أن قتله ربيبه «عباس بن تميم» بيد ولده نصر، واستقرَّ بعده في وزارة الظافر.

وكان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير، وبين الظافر مودة أكيدة، ومخالطة بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد، ويخرج من قصره إلى دار نصر بن عبَّاس، فخاف عباس من جرأة ابنه، وخشيَ أن يحمله الظافر على قتله، فيقتله كما قتل الوزير علي بن السَّلار زوج جدته أم عبَّاس، فنهاه عن ذلك، وألحف في تأنيبه، وأفرط في لومه، لأن الأمراء كانوا مستوحشين من عباس، وكارهين منه تقريبه «أسامة بن منقذ» أمير شيزر الذي استوطن مصر بعد خرابِ بلده في الشام، واتهموه أنه هو الذي حسَّن لعباس قتل ابن السلَّار، كما هو مذكور في خبره، وهمُّوا بقتله، وتحدثوا مع الخليفة

الظافر في ذلك، فبلغ أسامة ما هم عليه، وكان غريباً في الدولة، فأخذ يغري الوزير عباس بن تميم بابنه نصر، ويبالغ في تقبيح مخالطته للظافر، إلى أن قال له مرة: كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك، من أن الظافر يحبه ويؤثره ويفضله؟ فأثر ذلك في قلب ابن عباس، واتفق أن الظافر أنعم بمدينة «قليوب» على نصر بن عباس، فلمَّا حضر إلى أبيه وأعلمه وأسامة بن منقذ حاضر قال له: يا ناصر الدين... ما هي بمهرك غالية، يعرض له بالفحش، فأخذ عباس من ذلك ما أخذه، وتحدث مع أسامة لثقته به في كيفية الخلاص من هذا، فأشار عليه بقتل الظافر إذا جاء إلى دار نصر على عادته في الليل، وأمره بمفاوضة ابنه نصر في ذلك، فاغتنمها. وما زال يشنع بنصر ويحرضه على قتل الظافر حتى وعده بذلك.

فلمَّا كان ليلة الخميس آخر شهر محرَّم سنة ٥٤٩ هـ. خرج الظافر من قصره متنكراً ومعه خادمان كما هي عادته، ومشى إلى دار «نصر ابن عبَّاس» فإذا به قد أعدَّ له قوماً... فعندما صار في داخل داره وثبوا عليه وقتلوه مع أحد الخادمين، أما الثالث فقد تمكن من النجاة والذهاب إلى القصر، ودفنوا الظافر والخادم تحت الأرض.

وعندما بلغ أهل القصر ما فعله نصر بن عباس كاتبوا «طلائع بن رزِّيك» وكان على «الأشمونيين» فبعثوا إليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس وابنه، فقدم الجموع وفرَّ عباس وأسامة ابن منقذ ونصر، ودخل طلائع وعليه ثياب سود، وكذلك أعلامه وبنوده، وشعور النساء التي أرسلت إليه من القصر على الرماح. فمضى ماشياً إلى دار نصر، وأخرج الظافر والخادم، وغسلهما وكفنهما، وحمل الظافر في تابوت مغشى، ومشى وراءه حافياً والناس كلهم حتى وصلوا إلى القصر، وهناك صلَّى عليه ابنه «الفائز» ودفن في تربة القصر.

كان محكوماً عليه في خلافته، وكان كثير اللهو واللعب، وفي عهده ازداد الوهن في الدولة، وملك الصليبيون مدينة «عسقلان».

وزراء الظافر

سليم بن محمد بن مصال اللَّكي: من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ. حتى ١٤ شعبان من السنة المذكورة.

كان وزيراً في عهد الحافظ، وفي عهد الظافر تسلَّم الوزراة كوزير سيف، وأصله من قرية «لك» من أعمال برقة.

خدم أولاً في «البيرزة والصيد» هو وأبوه فتقدم في الخدمة حتى أصبح من كبار الأمراء ونال الوزارة، واتفق أنه مرَّ في وزارته مرة، فقالت له امرأة كانت تعرفه في حال فقره: سليم وزرت، فقال لها: نعم فقالت: والله ماوزرت وبقي أحد... فضحك وأمر لها بصلة.

ولم تطل وزارة ابن مصَّال الثانية إذ سار إليه ابن السلَّار والي الاسكندرية والبحيرة، واجتمع معه ابن زوجته «عباس بن باديس» واتفقا على ازالته من الوزارة، فبلغه ذلك، فأعلم به الظافر الذي جمع الأمراء في مجلس الوزارة. وبعث إليهم زمام القصور يقول:

هذا نجم الدين وزيري ونائبي، فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره. فقال الأمراء: نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون... فقال أمير من الأمراء: إن سمع مولانا ما أقول، قلت: فقال له الوزير قل: قال مولانا يعلم، وأنت تعلم أن ما في الجماعة من يضرب ابن السلَّار بسيف أولهم أنا، فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده، فالأمر لله وله. فلمَّا سمع الجماعة قاموا وخرجوا من القصر يريدون ابن السلَّار، فلمَّا غلب الظافر عن دفعه، أعطى ابن مصَّال مالاً كثيراً وأمره أن يعمل لنفسه ما يرى فيه الخير وهو يساعده، ولمَّا رأى ابن مصَّال أن لا طاقة له بملاقاة ابن السلَّار عدا إلى الجيزة، ودخل ابن السلَّار إلى القاهرة. فوقف على القصر وسار إلى الظافر، وإلى من يدبره. من النساء، ويعلم بحاله، فجرت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة حتى فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة.

علي بن إسحاق السلَّار: من ١٥ شعبان سنة ٥٤٤ هـ حتى ٦ محرَّم سنة ٥٤٨ هـ.

خلع الظافر عليه الوزراة، وأعطاه لقب «السيد الأجل، أمير الجيوش، شرف الإسلام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، وكان يحقد على الظافر لميله إلى ابن مصال، كما أن الظافر لم يكن يرتاح ضمناً إليه، وقد جمع ابن مصَّال العديد من أهالي السودان، ومن العربان، ومن «لواته» وغيرهم، وانضمَّ إليه «بدر بن رافع» مقدم العربان، فندب ابن السلَّار ربيبه عباس لقتاله.

ويقول «أسامة بن منقذ» وهو ممن عاصر تلك الأحداث:

خرج «عباس ركن الدين» وهو ابن امرأة علي بن السلاَّر، فضرب خيمة في ظاهر البلدة، فغدت سرية من «لواته» ومعهم نسيب لابن مصَّال، وقصدوا مخيم عباس. فانهزم عنه جماعة من المصريين، ووقف هو وغلمانه، ومن صبر معه من الجند، وبلغ الخبر إلى ابن السلاَّر. فاستدعاني في الليل وأنا معه في الدار، وقال هؤلاء الكلاب (يعني جند مصر) قد شغلوا الأمير (يعني عباساً) بالقوارع حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة. فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة، والأمير موافقهم.. قلت يا مولاي: نركب إليهم في سحر، وما يضحي النهار إلاَّ وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى. قال:

صواب أبكر في ركوبك «فخرجنا إليهم من بكرة، فلم يسلم منهم إلاَّ من سبحت به فرسه في النيل. وأخذ نسيب بن مصال بضرب رقبته، وجمع العسكر مع العباس، وسيَّره إلى ابن مصال، فلقيه على الأرض فكسرهم وقتل ابن مصال، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر الف رجل، وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة، ولم يبق لسيف الدين من يعانده. ولم يصفُ الجو بين ابن السلاَّر والظافر حتى انتهى الأمر بأن قتل ابن السلاَّر يوم الخميس السادس من محرَّم سنة ٥٤٨ هـ».

وفي ترجمة ابن السلاَّر ينقل ابن خلكان عن «بعض تواريخ المصريين قولهم:

«إنه كان كردياً زرزارياً»، وكان والده في صحبة «سقمان بن أرتق» صاحب القدس، فلمَّا أخذ الأفضل القدس وجد فيه طائفة من عسكر سقمان فضمهم إليه وكان في جملتهم السلاَّر، والد العادل المذكور، فأخذه الأفضل إليه، وتقدم عنده، وسمَّاه «ضيف الدولة»، وأكرم ولده هذا وجُعِلَ في صبيان الحجر...».

وكان العادل ممن امتازوا بالشجاعة والاقدام والعقل، «فأمَّره الحافظ»، وتقلبت به الأحوال في الولايات بالصعد والريف حتى أصبح والياً على البحيرة والاسكندرية قبل توليه الوزارة وكان ابن السلاَّر شهماً مقداماً مائلاً إلى أرباب العقل والصلاح، وكان شافعي المذهب.

ويستطرد ابن خلكان فيقول:

إنه كان مع هذه الأوصاف، ذا سيرة جائرة، وسطوة قاطعة، يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات...

إنه قبل وزارته بزمان قد دخل يوماً على الموفق أبي الكرم بن معصوم التنيسي، وكان مستوفي الديوان، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية الغربية، فلمّا أطال عليه الكلام.. قال له أبو الكرم:

والله كلامك لا يدخل في أذني.. فحقد عليه، ولمّا تولّى الوزارة طلبه، فخاف منه، واستتر مدة، فنادى عليه في البلد، وهدر دم من يخفيه، فأخرجه الذي خبأه عنده، فخرج في زي امرأة بإزار وخف، ولكنه عُرف فحمل إلى العادل، فأمر بإحضار لوح من الخشب ومسمار طويل، فألقاه على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى فصار كلما صرخ يقول له:

دخل كلامي في أذنك بعد أم لا؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن الأخرى، ويقال إنه شنقه بعد ذلك.

حاول الوزير ابن السلّار أن يتحالف مع «نور الدين الشهيد» وكان الوسيط بينهما «أسامة بن منقذ»، وكان الصليبيون قد شرعوا بعمارة غزة ليحاصروا عسقلان، فأرسل ابن السلّار أسامة بن منقذ ومعه الأموال والهدايا، وأمر أن يطلب من نور الدين منازلة طبرية، واشترط ابن السلّار أنه في حالة موافقة نور الدين على ذلك، فعلى أسامة أن يعطيه ما معه من الأموال. أمّا إذا امتنع فعلى أسامة أن يجنّد بما معه من الأموال جنداً يتوجه بهم إلى عسقلان لمقاتلة الصليبيين. فلمّا وصل أسامة إلى بصرى ـ حوران، وجد نور الدين يتهيأ لمحاصرة دمشق، فاعتذر عن السير معه خوفاً من أهل دمشق. واستأذن في أن يجند قوماً من الجند على أن يرسل معه نور الدين رجلاً من أصحابه في ثلاثين فارساً حتى يعلم الصليبيون بقبوله التحالف مع مصر، فأذن له في ذلك، وسيّر معه الأمير الياروقي في ثلاثين فارساً، وسار أسامة في البلاد التي احتلها الصليبيون دون أن يتعرض له أحد حتى عسقلان. فجمّع الصليبيون قواتهم لحصارها، ولكن أسامة تمكن من ردهم، وظلّ بعسقلان أربعة أشهر يهاجم بلادهم القريبة ويأسر ويقتل حتى جاءه كتاب ابن السلّار يستدعيه إلى مصر. فترك فيها أخاه عز الدولة أبا الحسن الذي قتل وهو ينازل غزّة.

ولم يألُ ابن السلّار جهداً في محاربة الصليبيين، فجهّز في سنة ٥٤٦ هـ أسطولاً أنفق عليه ثلاثمائة ألف دينار للانتقام من الصليبيين الذين خربوا الفرما سنة ٥٤٥ هـ. وقد أقلع الأسطول في ربيع الأول إلى يافا وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس حيث أسروا عدة مراكب للصليبيين، وقتلوا خلقاً كثيراً، وبلغ ذلك مسامع العادل نور الدين، فعزم على قصد الصليبيين ومحاربتهم في البر، ولكنه شغل بأمور دمشق، ولو أن نور الدين تمكن من الخروج لحرب الصليبيين في ذلك الوقت، لتغيَّر وجه التاريخ.

واهتمَّ ابن السلّار اهتماماً كبيراً بأمر عسقلان، وهي آخر معقل للفاطميين في الشام، فقوّى حصونها، وأمدَّها بالرجال والمال والأقوات، وكان يبدل حاميتها كل ستة أشهر، حتى تقوى على صد الصليبيين، ولكن بعد أن قتل ابن السلّار سنة ٥٤٨ هـ أبطل سير الجنود إلى عسقلان، فانتهز الصليبيون الذين كانوا محاصرين في عسقلان الفرصة وقالوا لأهلها:

سلطانكم قتله ابنه، وأنتم تقاتلون لمن؟ فلمَّا صحَّ الخبر عندهم وهنوا لانقطاع المدد حتى أخذها الصليبيون ويذكر أن أهل عسقلان أرسلوا إلى نور الدين وإلى مجير الدين صاحب دمشق يستصرخانهما فاتفقا على النزول في بانياس الشام، وقصدهما إشغال الصليبيين النازلين في عسقلان، ولكن الخلافات دبّت بينهما فعاد نور الدين إلى حمص، ومجير الدين إلى دمشق. ولمَّا طال انتظار أهل عسقلان للمدد من مصر دون جدوى، اضطروا إلى تسليمها للصليبيين وكان فيها من الذخائر والعدد والغلال ما لا يحصى. وهكذا فقدت مصر الفاطمية نتيجة لجريمة عباس وابنه آخر معقل لها في ديار الشام.

وقد رفع طلائع بن رزّيك علم الجهاد من جديد، فاهتمَّ بارسال الأساطيل والسرايا لمهاجمة الصليبيين، وجهَّز سنة ٥٥٠ هـ. أسطولاً هاجم فيه ميناء صور حيث ظفر بمراكب الصليبيين، وعاث في الميناء قتلاً وأسراً، وعقد الصليبيون مع طلائع بعد هذه المعركة هدنة استمرَّت حتى سنة ٥٥٣ هـ، شرع بعدها طلائع في إرسال الحملات البريَّة والبحرية للإغارة على الصليبيين، وكانت أول سرية جهزها في السابع والعشرين من جمادي الأولى. فسارت إلى

غزة وعسقلان حيث نهبت أطرافهما وعادت بغنائم كثيرة، وأعقب ذلك الحملات المظفرة طوال سنة ٥٥٢ و سنة ٥٥٣ و سنة ٥٥٤ هـ، كما حصلت اتصالات بين طلائع ونور الدين غايتها العمل معاً، وكتب له طلائع عدة قصائد يحرضه فيها على الجهاد. فأرسل نور الدين رسولاً سنة ٥٥٢ هـ، وآخر سنة ٥٥٣ هـ. كما قدم رسول الصليبيين بطلب الصلح، وقد عاد طلائع رسول نور الدين بجواب رسالته هدية من الأسلحة ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على حرب الصليبيين، وقد اهتم الصليبيون بمهادنة طلائع فأرسلوا رسولاً آخر سنة ٥٥٤ هـ، ومعه هدية وعرض بقيام هدنة بين الطرفين، إلَّا أن رسولاً من قبل نور الدين وصل إلى مصر وأخبر بأنه متوجه لمهاجمة الصليبيين، وطلب خروج حملة من مصر تشغلهم، فبادر طلائع بتجهيز ستة آلاف وخمسمائة فارس لشن الغارات على غزة، كما أرسل أسطولاً في البحر لمهاجمة العدو وسفنه، ويبدو أنه كان هناك اتفاق بين ابن رزِّيك ونور الدين على أن تقسّم الشام بين نور الدين ومصر بعد طرد الصليبيين منها، ويظهر ذلك «المهذب بن الزبير» الشاعر في قصيدة أرسلها إلى أحد أصدقائه المقربين يشير فيها إلى تلك الواقعة، وإلى هذا الاتفاق ومنها:

وأعدت رسل ابن القسيم إليه في شعبان كي يتلاءم الشعبان
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغـ ـدو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أباً له وجعلته من أقرب الأخوانِ

ولكن برغم اهتمام الصالح بقيام هذا التحالف، وكتبه المتلاحقة لحث نور الدين على العمل يداً واحدة، والقيام بمجهود مشترك ضد العدو، إلَّا أن ذلك لم يأتِ بالغرض المنشود، إمَّا لأن نور الدين لم يكن يثق تماماً في عروض مصر، أو لأن القدر لم يمهل طلائع إذ أنه قتل بعد وقت قصير فمات وهو يتأسف لعدم تمكنه من فتح بيت المقدس، وطرد الصليبيين.

عباس بن باديس الصنهاجي: من ١٢ محرم سنة ٥٤٧ هـ حتى ١٩ ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ.

أصله من المغرب، ومن بيت الملك الصنهاجي فيها، وصل مع أمه إلى

مصر، وهو صبي فتزوجها ابن السلَّار وتبنّى عباساً الذي ترقى في الخدمة حتى ولي الغربية، ولقب بالأمير ركن الإسـلام، ثم تولّى الوزارة بعد قتله ابن السلَّار، وقد جرت في عهد عباس أحداث ساعدت في سرعة القضاء على الدولة الفاطمية، وقد ذكرنا كل هذا في الصفحات السابقة.

وقيل إنه كان لعباس مئتا حصان، ومئتا بغل، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله، كما كان له خمسة آلاف مملوك، وقد نهبت ثروته ومخلفاته أثناء الفتنة التي أعقبت قتل الظافر.

النزاع بين الوزراء

يرى بعض المؤرخين أن النزاع الذي استمرَّ طويلاً في عهد الظافر بين ابن السلَّار، وابن مصَّال هو في الحقيقة نزاع بـين السنة والشيعة. ولكن الظافر برغم كل ما كان يراه فإنه دبَّر قتل وزيره ابن السلَّار بيد نصر ابن ربيبه عباس وذلك سنة ٥٤٨ هـ. وقد كوفىء الأخير على جريمة ابنه بتولي الوزارة حيث قرَّب الأمراء، وأحسن إلى الأجناد حتى ينسوا ابن السلَّار، وأخذ الظافر يغدق بدوره المنح والاقطاعات على نصر بن عباس، ممَّا جعل الناس يتحدثون عنهما أحاديث مريبة كما ذكرنا، فأمضَّ ذلك والده عباس الذي أغراه فيما بعد بقتل الظافر، ولم تنته الجرائم بكل ذلك بل تلتها مسرحية مؤلمة قصد بها التضليل، وإبعاد الشبهات عنه وعن ولده، فيسير هو إلى القصر ويتهم أخا الظافر بقتله، ثم أحضر ابن الظافر وهو طفل في الخامسة، وبايعه بالخلافة وسط مظاهر الرعب والدماء، ومنذ ذلك الوقت أصيب الطفل بالصرع.

وظنَّ عباس أن الأمر قد استقام له، ولـم يحسب حساباً لطلائع بن رزِّيك الذي هاجم القاهرة، ففرَّ عباس وابنه، واستطاع ابن رزِّيك أن يعيد النظام والأمن إلى البلاد، وقد لعب هذا الوزير دوراً بارزاً على المسرح السياسي في الديار المصرية كما سيأتي إلَّا أن سبب هذه الفوضى والأعمال الإجرامية هو تسليم الحكم إلى أيدٍ غير نظيفة، وإبعاد الشرعية الأمر الذي بدأ بإقدام الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني على إبعاد أصحاب الحق بالإمامة والخلافة، وتنصيب صغار الناس في المناصب العليا، ممَّا كَان له أثره في حياة هذه الدولة الكبرى لدرجة أنها أصبحت في نهاية المطاف تدار من قبل الأطفال والمعتوهين.

الوصي الثالث: الفائز

اسمه: عيسى. لقبه الفائز بنصر الله.. كنيته: أبو القاسم. ولد سنة ٥٤٤ هـ سموه لولاية العهد بعد مقتل والده الظافر، وكان له من العمر خمس سنين وظلَّ في الخلافة ست سنين وخمسة أشهر وعدة أيام. عاش إحدى عشرة سنة وستة أشهر ويومين. وتوفي في الثالث عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ.

ذكر المؤرخون أن «طلائع بن رزِّيك» والي الاشمونين عندما زحف إلى القاهرة واستولى عليها، فرَّ عباس، وعندئذٍ استحضر الفائز بن الظافر وكان له من العمر خمسة أعوام كما ذكرنا فسمي للخلافة مكان أبيه، ولكن الفائز عندما رأى أعمامه قتلى وسمع الصراخ والعويل اختلَّ عقله وأُصيب بالصرع وظلَّت تصيبه النوبات من وقت لآخر حتى مات.

وزراء الفائز

«طلائع بن رزِّيك»: من ١٩ ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ. حتى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ.

أرمني الجنسيَّة. ولد بأرمينية سنة ٤٤٥ هـ. وأكبَّ منذ صغره على العلم والأدب، ثم أصبح من الشيعة الإمامية الإسماعيلية كما ادعى، وللدلالة على ذلك قدم مع جماعة من الفقراء الدراويش لزيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب في النجف الأشرف في العراق، فرأى «السيد ابن معصوم» إمام المشهد في منامه الإمام علي كرم الله وجهه يقول له:

قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له «طلائع ابن رزِّيك» من أكبر محبينا... فقل له إذهب فقد وليناك مصر، فلمَّا أصبح الصباح نادى: من فيكم «طلائع بن رزِّيك» فليأتِ إلى السيد ابن معصوم. فجاء طلائع وسلَّم عليه. فقصَّ عليه ما رأى... وعندئذٍ سار إلى مصر والتحق بخدمة الدولة، وترقى في المناصب حتى ولي الصعيد. فلمَّا قتل عباس الظافر، بعث إليه نساء القصر يستغثنَ به فجاء إلى القاهرة، ووضع السيف فيمن بقي من أصحاب عباس، وخلع عليه الوصي خلع الوزارة.

باشر طلائع البلاد أحسن مباشرة، واستبدَّ بالأمور لصغر سن الوصي الفائز.. إلى أن مات، فأقام من بعده الوصي الرابع «العاضد» وبايعه الناس، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، فقويت حرمة طلائع، وازداد تمكنه من الدولة، فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم واستبداده بالأمر دونهم، وكان أن وقف له رجال بدهاليز القصر، وضربوه حتى سقط على الأرض وحمل جريحاً إلى داره حيث مات يوم الاثنين في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٥٦ هـ.

كان شجاعاً كريماً، جواداً فاضلاً محباً لأهل الأدب، جيد الشعر، وكان مهاباً في شكله،عظيماً في سطوته، وقد جمع أموالاً طائلة، وكان محافظاً على الصلوات وفرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع، ولمَّا ولي الوزارة مال على المستخدمين في الدولة، وعلى الأمراء **وأظهر مذهب الإثنا عشرية وهو مخالف لمذهب القوم**، وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة، وجعل مدة كل متولٍ ستة أشهر، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد، وتعبوا من ذلك، ولم يترك في مدة أيامه أمر غزو الصليبيين، وتسيير الجيوش لقتالهم في البر والبحر، وكان يخرج البعوث في كل سنة مراراً، ويحمل إلى أهل الحرمين، مكة والمدينة، في كل عام من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها، والأقلام والمداد. وفي صبيحة الليلة التي قتل فيها قال:

«في مثل هذه الليلة ضرب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمر بقربة ممتلئة، فاغتسل وصلَّى على رأي الإمامية مئة وعشرين ركعة أحيا بها ليله، وخرج ليركب فعثر وسقطت عمامته عن رأسه وتشوشت، فقعد في دهليز الوزارة، وأمر بإحضار ابن الضيف وكان يعمِّم للخلفاء والوزراء، فلمَّا أخذ في إصلاح العمامة قال رجل لطلائع:

نعيذ بالله مولانا... ويكفيه هذا الذي جرى أمراً يتطيَّر منه، فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل... فقال: **الطيرة** من الشيطان... ليس إلى تأخير الركوب سبيل، وركب فكان من أمر ضربه ما كان، وعاد محمولاً فمات».

استطاع طلائع أن يعيد الأمن والنظام إلى البلاد، فعاقب الجناة الذين اشتركوا مع «نصر بن عباس» في جريمة قتل الظافر، كما قضى على ثورات المناوئين له كثورة «طرخان» والي الاسكندرية الذي قام

يطالب بالوزارة. فأرسل إليه طلائع جيشاً بقيادة ابن اخته «الأمير عز الدين» فهاجمه عند دمنهور واضطره إلى الفرار تحت جنح الظلام، وثورة «الأمير الأوحد بن تميم» والي أخميم وأسيوط، وكان قد جمّع جموعاً كثيرة فأرسل إليه طلائع جيشاً تمكن من قتله في رجب سنة ٥٥٠ هـ. كما قبض على «الأمير ناصر الدولة ياقوت» والي قوص وأولاده بتهمة مكاتبة أخت الخليفة للقيام ضد طلائع وسجنهم.

وأخذ يتتبع كل من يخشى منافسته من أمراء الدولة، ويتخلص منهم الواحد بعد الآخر حتى خلا له الجو، وإن كان ذلك على حساب المصلحة العامة، إذ أضعف الدولة بقتل أمرائها وذوي الرأي والحزم فيها، وسيطر على القصر سيطرة تامة حتى أنه عندما بايع «العاضد» الوصي الرابع على الخلافة والأخير، وذلك بعد موت الفائز أرغمه على الزواج من ابنته طمعاً في أن تؤول الوصاية لسبطه.

وتتهم المراجع التاريخية طلائع بن رزّيك بحب المال، وجمعه من أي سبيل جاء، وأنه أخذ يبيع الولايات للأمراء، وجعل مدة الولاية سنة أو ستة أشهر فقط، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة عليهم، كما كان هؤلاء الولاة يتبعون السياسة نفسها مع مرؤوسيهم، وكانت النتيجة انتشار الرشوة والفساد والاختلاس وإرهاق الشعب بجمع الضرائب ممّا أضرَّ بالفلاحين أيضاً، واحتكر طلائع الغلّات فارتفع سعرها، وتطلع إلى ما في أيدي الناس من الأموال، فشرع في الميل على المستخدمين، وأخذ أموالهم، وتتبع أرباب البيوتات، والنعم والأعيان فسلبهم نعمهم.

ويؤخذ على طلائع الميل إلى إضعاف الجند، وقص أطرافهم، وإن كل ما فعله كان شيئاً طبيعياً بالنسبة لتلك الفترة العجيبة من عصر الفاطميين. فإن الوزراء الذين جاؤوا بقوة السلاح كانوا يبادرون إلى التخلص من الأمراء المنافسين، أو الذين يخشون منافستهم، ومن الجند الذين يتوقعون منهم الثورة عليهم، ثم يؤلفون فرقاً يطمئنون إلى ولاء جندها، وقد أنشأ طلائع فرقة يقال لها «البرقيّة» وكانت عدتها أكثر من سبعين أميراً، وجعل على رأسهم «ضرغاماً» الذي صار وزيراً فيما بعد بمساعدة هؤلاء البرقيين، وبالرغم من محاولة طلائع

إضعاف غيره من الأمراء، فإنه اهتم هو وابنه العادل من بعده بالجيش والأسطول ضد الصليبيين.

ومهما يكن من أمر فإن عدة الجيوش في مصر أيام طلائع وابنه كانت أربعين ألف فارس، وستة وثلاثين ألف راجل من السودان، وعشر قطع بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل، وهناك من يقول: إن عدد قطعات أسطوله وصلت إلى الثمانين بالإضافة إلى عشرة مسطحات، وعشر حمّالات، ومن مآثر «طلاع بن رزّيك» أنه بالرغم من تعصبه للمذهب الشيعي، كان يجتمع بفقهاء أهل السنة، ويستمع إليهم، وكان يعقد مجالس العلم والأدب، ولم يكن يخيّب أمل قصّاده من أهل العلم الذين يفدون إليه من سائر البلاد، فكان ممن قصده الشاعر الأديب «الحسن بن علي بن عبد الله بن أبي جرّارة»، ولقد عرف طلائع ما للشعر من أهمية، فاستخدمه في تمكين دولته، وتمجيد حروبه مع الصليبيين، **كما كان شيعيّاً مغالياً اتخذ من الشعر وسيلة لنشر المذهب الشيعي**، والحط من شأن المذاهب الأخرى، كما حاول جاهداً أن يغري شعراء كباراً «كعُمارة اليمني» باعتناق هذا المذهب، واتخذ ابن رزّيك من الشعراء أصدقاء وجلساء، وذكر عمارة اليمني أسماء بعض الشعراء والأدباء الذين قابلهم في حضرة الوزير طلائع.. فيقول:

> منهم: ابن الحباب، والموفق بن الخلال، صاحب ديوان الإنشاء، ومحمد ابن قادوس، والحسن بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحد إلاّ ويضرب في الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرى شاكلة الأشكال فيصيب. ويقول عن طلائع:

ولم تكن مجالس أنسه تنقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، ويكرم جليسه، ويبسط أنيسه، وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل، لذلك قصده الشعراء من كل مكان، فوجدوا في رحابه ما أملوه، كما كان غيرهم يراسله على البعد، فأفاض على القاصي والداني بالعطاء، أو كما يقول القاضي الجليسي:

> نشرت أيامه مطرى الهمم، وأنشرت رفات الجود والكرم، ونفقت بدولته سوق الآداب بعدما كسدت وهبّت ريح الفضل بعدما ركدت، اذلها الملوك بالقيان والمعازف، وكان لهوه بالعلوم والمعارف.

ولا أدلّ على حب طلائع للشعر، ممّا ذكره عمارة من أنه عند وصوله إلى مصر أول مرة رسولاً من أمير الحرمين «هاشم بن فليتة» لجأ إلى الحسين بن أبي الهيجاء صهر طلائع ليقدمه له... يقول عُمارة:

فلمّا استدعي أبو الهيجاء للغداء عند طلائع قال:

عندي رسول صاحب مكة، وكنت أظنه عاقلاً فإذا هو ناقص. فقال له طلائع:

وبأي شيء عرفت نقصه؟ قال: لكونه يحسن شيئاً من هذا السحت الذي تعمله أنت.. والجليس، وابن الزبير.. قال طلائع: لعله شاعر... قال نعم... فقال طلائع: هات الرجل، ثم أنشد:

إنَّ الـذي تكـرهـون منـه ذاك الـذي يشتـهيـه قلبـي

ويكفي أن نذكر بعض فحول الشعراء الذين حفل بهم بلاط الوزراء، وخاصة ابن رزّيك لنعرف مدى ما وصل إليه الأدب من ازدهار، وما بلغه الشعراء والأدباء من مراكز الصدارة في دواوين الدولة، ومن هؤلاء الأخوان «أحمد والحسن» أبناء علي بن الزبير، وقد وصف عماد الدين الأصفهاني الأخير بقوله:

«محكم الشعر كالبناء المشيَّد... لم يكن في زمانه أشعر منه».

والقاضي الجليس بن الحباب، والشريف القاضي سناء الملك أسعد بن علي الحسيني، الذي جاء من الموصل، واستقرَّ في مصر، والأمير أبو المهند حسام بن مبارك العقيلي ابن أخت طلائع، وكان مقدم عسكره كما كان شاعراً مثل خاله، والفقيه الشاعر نصر بن عبد الرحمن من أهل الإسكندرية، وابن الصيَّاد الذي قال عنه عماد الدين:

«كان سريع الخاطر في النظم لا يقف قلمه ولا يتّضع فيه عَلَمه، ويغريه الصالح بجلسائه بهجوهم وكانـوا يتعرضـون به»، وابن قادوس الذي بلغ من تكريم طلائع له أن حضر إلى منزله عند وفاته، ومشى في جنازته حتى واراه التراب، وغيرهم كثيرون.

وفي عُمارة اليمني خير مثال لما كان يلقاه الشعراء من تشجيع الوزراء، وما كان لهذا التكريم من أثر في أدبهم، فإن عُمارة بالرغم من كونه سنياً شافعياً لم يمنع ابن رزّيك من العطف عليه وتقريبه له حتى صار من ألصق الأصحاب به.

وقد انهالت عليه صلات الوزير، ممَّا جعل عمارة ينطق بكل قوته ومقدرته الشعرية في الإشادة بذكـر الفاطميـين والانتصار لهم، والدفاع عنهم حتى بعد القضاء على دولتهم، ممَّا أدَّى به إلى القتل بأمر من «صلاح الدين الأيوبي». ولقد بلغ من حب ابن رزِّيك للشاعر عُمارة أنه حاول جاهداً ضمه إلى المذهب الشيعي، وبذل له المغريات، ولكن عُمارة رفض ذلك، دون أن يؤثر هذا على العلاقة بينه وبين ابن رزِّيك، بل ظلَّت الصداقة بينهما على قوتها، وظلَّ عُمارة وفياً لآل رزِّيك حتى بعد القضاء على دولتهم، ومحاولة «شاور» اغداق النعم عليه، وتقريبه له وضمَّه إلى حاشيته. ومن أروع ما قاله عُمارة في رثاء طلائع أو «الصالح».

تنكَّد بعد الصالح الدهر فاغتدت مجـالس أيـامي وهن غيـوبُ
أيجدب خدي من ربيع مدامعي وربعيَ من نعمى يديه خصيب

ويصف عماد الدين الأصفهاني حالة الأدب والأدباء بعد صالـح فيقول:

«انكسفت شمس الفضائل الزاهرة، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، واتسع جاه الجهل، وانحلَّ نظام أهل النظم، وانتثر عقد ذوي النثر، واستشعر الفاقة الشعراء، وعدم البُلْغَةَ البلغاء، وعدَّ الفضل فضولاً، والعقل عقولاً... وطلب المهذب مذهباً في الذهاب محبوباً ومركباً في النجاة مجنوباً، وأضلَّ الرشيد طريق رشده فاحترق بشرارة شر «شاور» من بعده، وعاد «ابن الصيَّاد» إلى حرفة أبيه... وطفق فضلاء الحضرة يغيبون لحضور الناقصين... فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظّ، منسوخة الجد، منكوسة الراية، معكوسة الآية...».

الوصي الرابع: العاضد

اسمه: عبد الله. لقبه: العاضد لدين الله. كنيته: أبو محمد... ولد لعشر بقينَ من شهر محَّرم سنة ٥٤٦ هـ. وكان له من العمر أحد عشر عاماً عندما بويع بالوصاية. مات سنة ٥٦٧ هـ وكان له من العمر أحدى وعشرون سنة إلاَ عشرة أيام. قضى في الحكم إحدى عشرة سنة وستة أشهر، وسبعة أيام.

كان كريماً، لين الجانب، ضعيف الإرادة، وقد تراكمت عليه المحن والشدائد، وقامت في وجُهه المصاعب والمؤامرات، وغاب من حوله المخلصون، ولم يبق في قصره إلاَّ الخونة الذين يحيكون المؤامرات عليه، ويعتبر آخر وصي للخلافة الفاطمية في الديار المصرية، إذ منه، أو بعده استولى «صلاح الدين الأيوبي» على الحكم في مصر، وأعادها إلى الحظيرة العباسية مقيماً الخطبة باسم الخليفة العباسي «المستضيء بالله».

وهكذا طويت في عهد العاضد صفحات الفاطميين في مصر، فكان آخر من تولَّى الحكم من هذه المجموعة الضعيفة من الرجال غير الشرعيين الذين تسللوا إلى حرم الخلافة الفاطمية دون أن يملكوا أية أهلية، أو استحقاق، وهكذا قضي على هذه الدولة قضاءً مبرماً حتى لم يبق منها سوى الذكريات وبعض الآثار التي لم يتمكن صلاح الدين من إزالتها أو محوها من الأفكار.

ومهما يكن من أمر... فإن الوزير «طلائع بن رزِّيك» هو الذي قام بتدبير الأمور أثر مبايعة العاضد، لأنه كان صغيراً، وقد ظلَّ قائماً بمهمته حتى قتل سنة ٥٥٦ هـ. كما ذكرنا، فقام من بعده ولده «رزِّيك بن طلائع» الذي حسنت سيرته في الأوساط، وكان أول ما فعله أن عزل «شاور بن مجير السعدي» عن ولاية قوص، فلم يقبل هذا العزل، بل حشد جيشه وسار به على طريق الواحات في البرية باتجاه تروجة، وهناك جمَّع الناس أيضاً، واندفع بهم إلى القاهرة، فلم يثبت «رزِّيك» في المجال، وكان من أمره أن فرّ، ولكن قبض عليه فيما بعد بأطيفح.

بعد هذا الحدث استقّر شاور في الوزارة لأيـام خلت من صفر سنة ٥٥٨ هـ، وظلَّ قائماً فيها إلى حين قيام «ضرغام» صاحب الباب، وعندئذٍ فرَّ إلى بلاد الشام. ومن الجدير بالذكر أن ضرغام بعد أن تسلّم الوزارة، أظهر عن نياته فقتل أمراء الدولة، وكبارها ممَّـا أضعفها، ومنع الجميع من الظهور، وهنا كان لا بـد من تحرك الصليبيين، فهاجموا مدينة بلبيس عدة مـرات، ولكن جيش مصر بقيادة ضرغام دافع عنها دفاع المستميت، ممَّا جعل الصليبيين يعودون إلى بلادهم في الساحل كما أن ضرغام عاد بجيشه إلى القاهرة.

وفي جمادي الآخرة سنة ٥٥٩ هـ. جنَّد شاور جيشاً من بلاد الشام، وهبط فيه إلى الديار المصرية، وفي مدينة بلبيس التقى به ضرغام وكان يقود عساكر مصر، فوقعت بينهم معارك طاحنة تراجع في نتيجتها ضرغام وجيشه إلى مصر بعد أن خسر خسائر فادحة غنمها شاور. وعلى مقربة من القاهرة نشبت معارك جديدة بين الفريقين كانت الغلبة فيها لشاور، فدخل القاهرة، وقتل ضرغام في شهر رمضان سنة ٥٥٩ هـ. واستقّر في الوزارة مرة ثانية، ولكنه بعد فترة قصيرة اختلف مع «الغز» وهم من أتراك أواسط آسيا، وكانوا قد تجندوا معه في الشام، وكان يقودهم «شيركوه» الكردي، فنشبت بينهم وبينه معارك عنيفة هددت مصيره، ممَّا جعله يكتب إلى «مرّى» ملك الإفرنج يستدعيه ويغريه بمعاونته على محاربة شيركوه وأعوانه «الغز» ويطمعه بحقوق ومكافئات، فحضر إلى مدينة بلبيس حيث وافاه شاور قادماً إلى القاهرة مع جيوشه، وهناك وبعد معارك طاحنة تمكنا من محاصرة شيركوه ثلاثة أشهر. وأخيراً:

تمَ توقيع معاهدة صلح، فسار شيركوه إلى الشام مع الغز، ورحل الإفرنج عن البلاد المصرية، كما أن شاور عاد إلى القاهرة. وكان ذلك سنة ٥٦٠ هـ. ولكن الأمور لم تستقر بعد هذا الاتفاق، لأن شيركوه عاد من جديد رامياً غزو مصر للمرة الثانية، وذلك في ربيع الآخر من العام نفسه. فخرج شاور من القـاهـرة للقـائه، واستدعى «مرّى» مرة ثانية إلى نصرته مع جيوش الإفرنج، وعندئذٍ خرج شيركوه من شرق أطيفح، ووقعت المعارك الطاحنة المشهورة التي انتهت بتقدم شيركوه، فاحتلَ الإسكندرية في حين عاد شاور إلى القاهرة.

هذه الحالة لم تستقر طويلاً، فقد خرج شيركوه من الإسكندرية باتجاه القاهرة، بعد أن استخلف عليها ابن أخيه «صلاح الدين بن يوسف بن أيوب» واتجه إلى قوص، وأخذ يجبي الأموال من البلدان التي يمر فيها، وعندئذٍ خرج شاور من القاهرة إلى الإسكندرية بقصد احتلالها، فبلغ شاور ذلك فعاد إليها من قوص وحاصرها. ولأسباب أخرى سار شيركوه وأصحابه منسحبين إلى بلاد الشام، وذلك في شهر شوال من العام المذكور، وفي هذه الفترة طمع الإفرنج في السيطرة على بلاد مصر، فهاجموا القاهرة وتسلموا أسوارها، وأقاموا فيها «شحنة» أي رئيس شرطة، ومعه عدد من المسؤولين الإفرنج الذين قاسموا المسلمين الصلاحيات، وخاصة الأموال.

أمَّا شاور فقد ساءت سيرته، وكثرت رغبته في سفك الدماء، وقتل الآمنين الأبرياء، وأتلف الأموال، وعندما جاء عام ٥٦٤ هـ. تمكن الإفرنج من القاهرة وتسلموا الصلاحيات والمهمات كافةً وجاروا في حكمهم، وأذلوا الناس، وضغطوا على المسلمين، وانطلق رئيسهم «مرِّى» يريد أخذ بلاد مصر بكاملها، فنزل على مدينة بلبيس واحتلها عنوةً وعندئذٍ تحرك العاضد فكتب إلى «نور الدين محمود بن زنكي» المعروف «بالشهيد» صاحب الشام يستصرخه، ويحثه على نجدة المسلمين، وانقاذ مصر من خطر الإفرنج، وعندئذٍ جَهَّز أسد الدين شيركوه» عسكراً وفير العدد مجهَّزاً بأحسن تجهيز، وسيرهم إلى مصر.

وممَّا تجدر الإشارة إليه، أن شاور كان قد أحرق مدينة القاهرة، كما تذكر المصادر التاريخية ، ونزل «مرِّى» ملك الإفرنج على القاهرة، وألَحَّ في قتال أهلها حتى كاد يأخذها عنوة فسيَّر إليه شاور وخدعه وأرضاه بمال يجمعه له، وعندما شرع بتنفيذ ما وعد به وصل الخبر إلى شيركوه، فقدم إلى القاهرة للمرّة الثالثة على رأس جيوش «الغز» فخلع عليه العاضد وأكرمه، ولكن شاور شنها حرباً على «الغز» كعادته، وظلت المعارك مستعرة حتى قتل في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ، وكان قد تقلَّد وزارة العاضد، وقام بها لمدة شهرين وخمسة أيام، ومات في الثاني والعشرين من جمادى الآخره، وعندئذٍ فوَّض أمر الوزارة «لصلاح الدين يوسف بن أيوب» فساس الأمور ودبر لنفسه مقاماً مرموقاً. وبذل الأموال، ووضع

برنامجاً للقضاء على العاضد، وعلى البقية الباقية من الفاطميين في مصر، وذلك باستنفاد الأموال من بين أيديهم، وهكذا ظلَّ أمره في ازدياد، وأمر العاضد في نقصان حتى وصل الأمر به إلى إعطاء الأوامر للمساجد بذكر اسم السلطان محمود بن نور الدين الشهيد، وهذا جرى بعد العاضد ثم تحوَّل بعد ذلك إلى اسم المتسضيء العباسي، وأقطع أصحابه البلاد، وأبعد أهل مصر، وأضعفهم واستبد بالأمور، ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس أنه يقصد إزالة الدولة الفاطمية، وقد تجلَّى ذلك في الواقعة التي خاضها مع عبيد العاضد، والتي تمكن فيها من إبادتهم، وبعد تلك المعركة تلاشى العاضد، وانحلَّ أمره، ولم يبقَ له في مصر ما يستند عليه.

ووالى صلاح الدين الأيوبي تصفية الدولة الفاطمية، فأتى على المال والخيل والرقيق والثروات ويروى: أنه لم يبق عند العاضد سوى فرس واحد، وأخيراً طلبه منه، واضطرّه إلى السير على الأقدام عندما كان يريد الخروج، وهناك من قال أنه لم يخرج من القصر بعد هذا التدبير.

واستمر صلاح الدين في أعماله، فتتبع جند العاضد، وأخذ بترحيلهم عن مصر الواحد بعد الآخر، وانتقل أخيراً إلى الأمراء فأخذ أراضيهم، ومزارعهم، ووزعها على أصحابه «الأكراد» الذين وفدوا إلى مصر بأعداد كثيرة، كما أنه استحضر أباه وأخوته وأهله من الشام، فأنزلهم في القصور الفاطمية، وفي سنة ٥٦٦ هـ أبطل صلاح الدين المكوس في ديار مصر، وهدم دار المعونة بمصر، وجعلها مدرسة للشافعية، وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية، وعزل قضاة الشيعة، وقلَّد القضاء «صدر الدين بن درباس الشافعي»، وجعل إليه الحكم في إقليم مصر، كما عزل سائر القضاة، واستناب قضاة الشافعية، فتظاهر الناس في تلك السنة بمذهب مالك والشافعي. أمَّا مذهب الفاطمية فقد توارى عن أرض مصر، ولم يبق منه سوى الذكريات.

هذا ويجب أن لا يسهى عن البال أن صلاح الدين أخذ في غزو الإفرنج... فخرج إلى «الرملة» ثم سار إلى «إيلة» ونازل الإفرنج في القلعة وأخذها، وسيَّر «توران شاه» فأوقع بأهل الصعيد وأخذ منهم

ما لا يمكن وصفه وعاد، وفي تلك الفترة كثر الحديث من قبل صلاح الدين وأعوانه في ذم العاضد وانتقاده، وجرت محادثات لخلعه، تمهيداً لإقامة الدعوة العباسية في الديار المصرية.

وأخيراً قبض على سائر من بقي من أمراء الدولة، وأخذ دورهم، ثم أنزل فيها أصحابه الأكراد وقد تمَّ ذلك في ليلة واحدة، ممَّا سبب قيام ضجة عامة، وفوضى شملت أحياء القاهرة، فتعالى العويل والبكاء، وتحكم أصحابه في البلد بـأيديهم، واستملكـوا المزارع، والأراضي بالقوة حتى وصل الأمر إلى ممتلكات العاضـد نفسه، فاحتجزه في بيته، ومنع الناس من الاتصال به، كما استلم القصور الفاطمية وسلَّمها إلى الطواشي «بهاء الدين قراقوش» وأبطل من الآذان «حيّ على خير العمل» وأزال شعارات الدولة الفاطمية، وكل هذا أوقع في نفس العاضد، فمرض أخيراً في ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ. ثم مات بعدها. ويعتبر العاضد آخر الفاطميين، فهو آخر نائب خليفة.. والخلافة الفاطمية تبدأ من عبد الله المهدي حتى العاضد ومدّتها مائتان واثنتان وسبعون سنة وبضعة أيام... منها مائتان وثماني سنوات في القاهرة.

وزراء العاضد

رزّيك بن طلائع: من ١٩رمضان سنة ٥٥٦ هـ حتى ٢٢ محرَّم سنة ٥٥٨ هـ.

هو ابن طلائع الذي مرَّ ذكره... تولَّى الوزارة بموجب وصية من أبيه. يقول عُمارة اليمني في ترجمته:

«إن الله لم يمهله إلاّ مدة يسيرة، وكانت أفعال الخير فيه كثيرة، وذلك أنه سامح الناس بالبواقي من الأموال والحسابات القديمة، وأسقط من يوم الظلم مبالغ عظيمة، وأقام على الحاج أمين الحرمين الذي كان صاحب ثقة في الأوساط، كما سيَّر على يد الأمير شمس الخلافة أمه، وخمسة عشر ألفاً إلى أمير الحرمين عيسى بن أبي هاشم وهـي رسم اطلاق الحاج، وظفر بقتلة أبيه ظفراً عجيباً بعد تشتيتهم في البلاد، وتمَّ زفاف أخته إلى العاضد، كما حفر سرداباً تحت الأرض يوصل فيه دار الوزارة بالقصر. وترامت في أيامه الحال بالأمير عز الدين حسام قريبه، وعظم صيته واستولى على تدبير كثير من أمور عمه فارس المسلمين وصهره سيف الدين، وعظم غلمان أبيه عن الوقوف عند أوامره، ولم يشهد له من البأس إلاَّ خروجه بعد عمه، وسيف الدين في نوبة غارة الإفرنج على أعمال

الخوف، فإنه أغذَّ السير خلف الإفرنج إلى أبي عروق. والموقف الثاني إدراكه لبهرام الغزّي حين نافق، وأخذ يطالب بالصعيد، فإنه سرى فيمن خفَّ معه من الجيش حتى أدرك الغز عند الفجر فقتلهم جميعاً».

وقد خالف رزّيك وصية والده، فعزل شاور عن ولاية الصعيد، فخرج عليه، وقدم من الصعيد عن طريق الواحات، إلى أن وصل إلى تروجة بالقرب من الإسكندرية، فدخلها يوم الأحد الثاني والعشرين من محرّم سنة ٥٥٨ هـ.

كان رزّيك بخلاف أبيه محباً للخير، وكارهاً جمع الأموال، ولكنه لم يستمر طويلاً في الوزارة، وفي أيامه دخلت البلاد في آخر أطوار الضعف والانهيار نتيجة للصراعات في سبيل السيطرة على الحكم، إذ ثار شاور عليه واستولى على الوزارة منه، دون صعوبة، لأن غلمان أبيه لم يمتثلوا لأمره، وأنضمَّ ضرغام وغيره من وجوه الأمراء، والتحقوا بشاور ممَّا كان له أكبر الأثر في القضاء على بني رزِّيك.

شاور:من ٢٢ من محرَّم سنة ٥٥٨ هـ. حتى شهر رمضان من السنة المذكورة. هو: أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر ابن شاش بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن فجيس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد «حليمة» مرضعة الرسول الكريم محمد (ص).

أول وزير عربي الجنس يلي الوزارة من وزراء السيوف، وكان طلائع ابن رزّيك قد ولّاه الصعيد الأعلى، ثم ندم على توليته، ولكنه أوصى ابنه بعدم عزله لعلمه بقوته، ولكنّ ابنه خالف وصيته وعزله، فثار عليه، واستطاع أن يحل محله في الوزارة ويعتقله ثم يأمر بقتله على يد «طي بن شاور».

وممَّا تجدر الإشارة إليه... أن شاور لمَّا وزر جلس في دار الذهب على شط الخليج، فانهالت عليه وعلى ولديه «طي والكامل» أموال بني رزِّيك وودائـعهم من عند الناس حتى كان في الناس من تبرع بما عنده، وافترقت أمراء «البرقية».. فضرغام ومن معه حزب، وابن الزبير ومن معه حزب، فأمّا ضرغام فكان أظهر الحزبين لأنه نائب الباب، ولأنه من نفسه وأخوته وأصهاره يشكلون جيشاً كبيراً، وأمَّا نظراؤه فاختصوابـطي بن شاور فكاثروه ولازموه إلى أن كان من خروج شاور إلى الشام، وقتل ولده طي، وتولي ضرغام الوزارة.

كانت أخلاق شاور في الوزارة مستورة باستمرار السلامة والطاعة والاستقامة ولم يكن فيها أقبح من قتل رزّيك، فإنها سوَّدت ما ابيض من عالي قدره، وأعربت عن ضيق عطفه وحرج صدره، فأمَّا كرمه فكان إليه المنتهى، ولم يكن يمسك شيئاً ولا يكنزه. وأمَّا الحماسة وشدة البأس فهو في موطن الموت، شديد الثبات، سديد الوثبات.

في رمضان سنة ٥٥٨ هـ. ثار ضرغام على شاور، وقتل ولده طي، فخرج شاور إلى الشام لاجئاً إلى نور الدين، وفي سنة ٥٥٩ هـ. عاد شاور إلى مصر، بعد أن زوّده نور الدين بجيش عهد بقيادته إلى «شيركوه»، فاستطاع أن يهزم ضرغام، ثم قتله في أواخر جمادى الآخره سنة ٥٥٩ هـ، وبعد ذلك تسلَّم الوزارة من رجب سنة ٥٥٩ هـ. حتى ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ، ولم يكد يستقر في الوزارة حتى تنكر لشيركوه، وأخلَّ باتفاقه مع نور الدين، واستعان بالصليبيين، وانتهى الأمر أخيراً باحتلال مصر من قبل شيركوه في ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ... وقتل شاور في السابع عشر من الشهر المذكور... وقد وصف الشاعر عُمارة هذا الواقع بهذين البيتين:

ألَا إن حدَّ السيف لم يبق خاطراً　　من النـاس إلَّا حائـراً يتـرددُ
ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلح　　على نفسه أضعاف ما خاف مفسدُ

ثم أضاف على ذلك قوله عن السنوات التي قضاها شاور بالحكم بأنها:

«كثيرة الوقائع والنوازل، وأن فيها انكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نغماته، وعضّه الدهر وأوجعه الثكل وأمضّه، وبان غمره وثماره وجمره ورماده، ولم يجف من الأنكاد لبده، ولا صفا من الأقذاء ورده، وما هو إلَّا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عرضاً عن الراحة، وحفلت هذه الأيام علاوة على هجوم «الغز» والإفرنج بثورة قبيلة «لواته». إلى أن يقول:

«لم يربّ أحد رجال الدولة مثل ما رباهم طلائع، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، ولا أموالهم مثل شاور... فشاور أغرق البلاد في بحر من الفوضى، وأحرق الفسطاط، وتقاتل نور الدين والإفرنج حتى تمكن شيركوه قائد نور الدين من الاستيلاء عليها، وقتل شاور وأصبح بعد ذلك وزيراً للعاضد.

ضرغام بن عامر اللحمي:من شهر رمضان سنة ٥٥٨ هـ. حتى آخر جمادى الآخره سنة ٥٥٩ هـ.

من أمراء الدولة، وكبار قوادها، وقد كان طلائع بن رزّيك قد أنشأ في وزارته أمراء أطلق عليهم اسم «البرقيَّة» وجعل ضرغاماً مقـدماً عليها، فترقّى في الخدمة حتى صار صاحب الباب، ولمَّا طُرِدَ شاور ولي الوزارة مكانه، وتلقّب «بالملك المنصور».

مدة وزارته تسعة أشهر، وهذه المدة أطلقوا عليها اسم «الحمل»... كان ضرغام على جانب كبير من الشهرة في الأوساط الاجتماعية حتى قالوا عنه بأنه فـارس عصره، في الكتابة، وكمال الصورة، وجمال المحاضرة ووحيد دهره، وكان عاقلاً كريماً، إلاَّ أنه كان عنيداً لا يصغي لأصحابه، وإذا ظنَّ بإنسان شراً جعل الظن يقيناً، وفي أيامه ذهبت أمراء البرقية قتلاً بسيفه وهم: «صبح بن شاهنشاه»، و «الظهير مرتفع، وعين الزمان، وعلي بن الزبـير، وأسد الغـازي»، وأقاربهم وهم نحو من سبعين أميراً سوى أتباعهم. فذهبت لذلك هيبة الدولة، واختلت أحوالها، وضعفت بذهاب أكابرها، وفقدان أصحاب الرأي، والتدبير فيها.

وأخيراً:

تمكن شاور من هزيمتـه وقتله في أواخـر جمادى الآخـرة سنة ٥٥٩ هـ...

ومن الحوادث التي وقعت في عهده:أنه اختلف مع «عموري» ملك بيت المقدس على المبلغ السنوي الذي كان يدفعه الوزراء لـلإفرنج لقاء عدم إقدامهم على غزو مصر، ممَّا دفع ملك بيت المقدس إلى غزو مصر، فأقدم ضرغام على فتح سدود النيل وقت الفيضان. فأغرقت البلاد واضطرَّ عموري إلى العودة، ولكن ضرغاماً لمَّا علم بالتجاء شاور إلى نور الدين وطلب معونته، شعر بالندم وبضياع الفرصة لعدم ارتباطه بالصليبيين، فأسرع إلى طلب هدنة دائمة، وزاد في مقدار الجزية، ممَّا جعل نور الدين يتدخل في شؤون مصر بإرساله حملة مع شاور، ولكن بقيادة شيركوه كما ذكرنا.

شيركوه العاضدي:من ١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤ هـ. حتى وفاته ٢٢ جمادى الثانية من السنة المذكورة.

هو كردي الأصل... كان من أخلص رجال نور الدين. تولّى الوزارة للعاضد بعد مقتل شاور واشتهر بأنه من القواد البارزين.

ومن الجدير بالذكر أنه لمَّا انتظمت الأمور لأسد الدين في الديار المصرية أقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه، وكان صلاح الدين ابن أخيه هو الذي يقرر الأمور، وبيده زمام الأمر والنهي.

صلاح الدين بن يوسف بن أيوب: من ٢٥ جمادى الآخرة إلى نهاية السنتين والنصف كوزير، وبعد ذلك استقلَّ بالملك.

يعتبر صلاح الدين الأيوبي من الشخصيات الخالدة في التاريخ، وهذا رأي الكثيرين، بينما يرى فيه بعضهم التخلف، والرجعية والتعصب الديني الذميم، اشتهر بشجاعته وقدرته كقائد، وقد قضى الجانب الأكبر من حكمه في توحيد البلدان الإسلامية ضد الصليبيين، والمراجع العربية والأجنبية حافلة بأروع الأعمال، وأجل المواقف التي تنسب إليه ولكن الحقيقة هي أن في تاريخه إهمالاً للقضية العربية، حيث كان يحاربها ويقف حجر عثرة في سبيل تقدّمها.

ولد في تكريت العراق.. والده هو: نجم الدين أيوب، كان قائداً كردياً خدم الخلفاء العباسيين في بغداد، ثم التحق أخيراً بخدمة الأتابك زنكي، وابنه نور الدين من بعده.. ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين اشترك في حملات عمه الثلاث على مصر، واشتهر ذكره في معركة البابين، وفي الدفاع عن مدينة الإسكندرية، وقد حاولت بعض المراجع التاريخية الإسلامية إبراز موقفه، ورفضه الالتحاق بحملة عمه الثالثة، وأنه جاء مرغماً حتى يتم له ما أراده القدر.

بعد وفاة شيركوه وقع اختيار العاضد عليه لتولي الوزارة، بالإضافة إلى أن وصية عمه أسد الدين شيركوه كانت تنص عليه... وممَّا تجدر الإشارة إليه أنه عندما تمَّ له الأمر تاب عن شرب الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمَّص لباس الجد والاجتهاد إلى أن توفاه الله. ويذكر أنه كان يقول:

لمَّا يسّر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه اراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي».

كان موقف صلاح الدين دقيقاً، فقد وجد نفسه فجأة وبلا موعد وزيراً لخليفة شيعي، وهذا أبغض الأشياء إليه، ونائباً لملك سني

يضغط عليه للقضاء على تلك الدولة الشيعية، والعودة بمصر إلى المذهب السني في ظل الخلافة العباسية.

لقد استطاع صلاح الدين أن يكسب ودّ الأهلين بكرمه وشخصيته العظيمة، واستعان بمن يثق بهم لإدارة شؤون الحكم، ولمّا قامت العناصر السودانية بثورتها استطاع بمجهود شاق أن يقضي عليها، وبذلك أصبح القصر في قبضته، كما تمكن عقب هذه الثورة أن يرد هجمات الصليبيين على دمياط، وانتصر عليهم انتصاراً رائعاً، واضطرهم إلى طلب الصلح، وقد كانت هذه الحملة نقطة تحول في الصراع مع الصليبيين فمنذ ذلك الوقت أصبحت مملكة القدس تقف موقف الدفاع بدلاً من الهجوم الذي كان طابعها من قبل.

ومهما يكن من أمر.. فإن صلاح الدين تمكن ليس فقط من أن يضع يده لا على ثروة البلاد فحسب، بل على كل ما وجده في قصور الفاطميين من تحف وجواهر وسلاح.

ويقول المؤرخ المقريزي:

«ما لا يفي به ملك الأكاسرة، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة، ولا يشتمل على مثله في الممالك العامرة، ولا يقدر على حسابه إلاّ من يقدر على حساب الخلق في الآخرة».

أمّا صلاح الدين.. فقد وُصف بأنه استطاع أن يثبت حكمه، واستمال إليه القلوب، وجمّع حوله الناس، وتمكن من القضاء على ثورة خطيرة قام بها السودان بتشجيع من العاضد وأتباعه، وبنتيجتها ضعف أمر العاضد، وبعد ذلك أخذ صلاح الدين بتنظيم الأمور وتقوية المذهب السني، والقضاء على المذهب الإسماعيلي الشيعي وقد دشّن مشروعه هذا بإتلاف التراث الفاطمي المتمثل بالمكتبة الكبيرة.

ولا بد من القول: بأن الصراع ظهر على أشده بين صلاح الدين قبل تسلمه الوزارة من جهة، وبين شاور وضرغام من جهة ثانية كما ذكرنا، وكان هنالك تنافس بين الصليبيين ونور الدين على امتلاك مصر، وقد عانت مصر من ذلك الصراع الكثير، حتى أن شاور أمر بإحراق الفسطاط، كما أمر بإحراق الأسطول عندما نزل الإفرنج على بركة الحبش قرب القاهرة، وقد نهبوا فيما نهبوا العبيد. ولما دخل

شيركوه البلاد أصبح الجند من «الغز» إلى جانب الجنود المصريين، وكانت هنالك، وفي ذلك الوقت طوائف من الجنود المصريين وهم: الريحانيَّة، والفرحيَّة من السودان، والجيوشيَّة، والوزيريَّة، والأرمن، وقد تجمَّع من هؤلاء ومن العامة ما يقدر بخمسين ألف لقتال صلاح الدين وذلك بعد قتله مؤتمن الخلافة جوهر، وهو أحد المحنَّكين الأساتذة في القصر، والذي قيل عنه إنه كان يتآمر مع الصليبيين ضد صلاح الدين، وقد استطاع صلاح الدين القضاء على الثائرين قضاءً مبرماً: العبيد والأرمن أو غيرهم على حد سواء ولم يبقِ على أحدٍ منهم.

نهاية المطاف

يعتبر العاضد آخر فاطمي حكم الديار المصرية، لأن الحكم بعده تحوَّل إلى صلاح الدين الأيوبي، وأصبحت مصر مرتبطة بالدولة العباسية في بغداد، وقد كنا أشرنا سابقاً إلى أوضاع الدولة الفاطمية بعد وفاة الخليفة الثامن الإمام المستنصر بالله، عندما تصدّى للحكم قائد الجيش «الأفضل الجمالي الأرمني» الذي فرض ابن شقيقته «المستعلي» وهو الابن الأصغر للخليفة الإمام المستنصر بالله، وجعله خليفة وإماماً بقوة السلاح، وكان قد أبعد وقتل غدراً الخليفة والإمام الشرعي «نزار» وقد كانت هذه المؤآمرة الثغرة الأولى في بناء الدولة الفاطمية فبعدها أخذت الدولة تتخبط في فوضى عامة نتج عنها ضياع ممتلكاتها، ورضوخها إلى حفنة من المغامرين المتهورين الذين لا يملكون إلَّا الرغبة في الجلوس على كرسي الحكم.

أمَّا بالنسبة للإسماعيليين فإنه لم يبق منهم في مصر إلَّا قلة لزمت «التقية» وعاشت في سرية تامة، وأكثرها من النزارية... أمَّا أتباع المستعلي فقد نقلوا نشاطهم بعد زوال عهد العاضد الأخير إلى اليمن، وعاشوا في هذا القطر حياة العزلة والتستر، فلم يعد يقوم لهم أي كيان سياسي، وكانت أمورهم منوطة «بنائب» للإمام أطلقوا عليه اسم «داعي مطلق» ورتبة الداعي هذا ما زالت حتى يومنا هذا قائمة عندهم، ومتوارثة، ويتمتع الداعي بصلاحيات دينية كبرى، منها أنه على اتصالٍ بالإمام «الطيّب» وأنه يعرف مكانه، ولكنه لا يحقّ له التكلم عنه...

الإسماعيلية
المستعلية أو البهرة

من مصر الى اليمن

كنّا ذكرنا... أنه بعد وفاة العاضد الفاطمي، واستلام صلاح الدين الأيوبي شؤون الحكم في مصر.. لم يبق للمستعلية ـ البهرة ـ في القطر المصري ما يمكن أن يعزّز وجودها، فاتخذت اليمن مقراً لها، وقام بشؤونها الدينية «داعٍ مطلق» أعطى لنفسه صفة النيابة عن الإمام الغائب المستور «الطيِّب»... هذا ومن الجدير بالذكر أن المستعلية انقسمت سنة ٩٩٩ هـ إلى فرقتين: داؤدية وسليمانية، وذلك بعد وفاة الداعي المطلق «داؤد بن عجب شاه». فانتخبت مستعلية كجرات «داؤد بن قطب شاه»، خلفاً له، ولكن اليمانيين عارضوا ذلك، وانتخبوا داعياً آخر يُدعى «سليمان الحسن» ويقولون: إن داؤد قد أوصى له بموجب وثيقة لا تزال الفرقة السليمانية تحتفظ بها ونحن إذ نقدم في الصفحات التالية ترتيب دعاتهم نقول:

إن الداعي المطلق للفرقة المستعلية الداؤدية«البهرة» هو: «برهان الدين بن طاهر سيف الدين» ويقيم في محلة «سيفي محل ـ ملابارهيل ـ بومباي ـ الهند». أمّا الداعي المطلق للفرقة الثانية السليمانية المستعلية فهو «علي بن الحسين» ويقيم في مقاطعة «نجران» التابعة للملكة العربية السعودية.

العدد	اسم الداعي المطلق	تاريخ الوفاة	الملاحظات
١	لمك بن مالك	٥١٠ هـ	من الدعاة الكبار الذين درسوا على المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعاة، شغل وظيفة قاضي القضاة، وهو من بني حمّاد من همذان.

العدد	اسم الداعي المطلق	تاريخ الوفاة	الملاحظات
٢	يحيى بن لمك	٥٢٠ هـ	تسلّم منصب والده لمك. كان تحت رعاية الملكة أروى. له كتاب (فصل في بيان الأرض وما عليها من المعادن).
٣	أروى بنت أحمد الصليحي	٥٣٢ هـ	لعبت دوراً كبيراً على مسرح الأحداث، وأدخلت اليمن بكافة أجزائها تحت حكمها ألقابها ملكة اليمن، والسيدة الحرة، وأروى الصليحي. كان لها ميول نزارية.
٤	الخطّاب بن الحسن الهمذاني	٥٣٣ هـ	هو أخو الملكة الحرة بالرضاع. كان شاعراً وعالماً.. ترك ديوان شعر، وله كتب: غاية المواليد، ومنيرة البصائر، ورسالة النعيم، وإعجاز القرآن.

بعض علماء المستعليين البهرة لا يدخلون هؤلاء الدعاة الأربعة في عداد الدعاة المطلقين بدعوى أنهم عاصروا عهد استتار الإمام «الطيّب».

العدد	اسم الداعي المطلق	تاريخ الوفاة	الملاحظات
١	ذؤيب بن موسى	٥٤٦ هـ	له رسالة النفس، ورسالة معرفة الموجودات.
٢	إبراهيم بن الحسين الحامدي	٥٥٧ هـ	له كتاب كنز الولد، والابتداء والانتهاء، وكتاب تسع وتسعون رسالة في الحقائق.
٣	حاتم بن إبراهيم الحامدي	٥٩٦ هـ	
٤	علي بن حاتم	٦٠٥ هـ	له رسالة «روضة الحكمة الصافية، وبستان العلوم الشافية».

العدد	اسم الداعي المطلق	تاريخ الوفاة	الملاحظات
٥	علي بن محمد الوليد	٦١٢ هـ	له رسالة تحفة المرتاد وغصة الأضداد، وجلاء العقول وزبدة المحصول، والرسالة المفيدة في إيضاح لغز العقيدة، وضياء الألباب المحتوي على المسائل والجواب، وديوان شعر، وكتاب دامغ الباطل وحتف المناضل وكتاب مختصر الأصول، وتاج العقائد ومعدن الفوائد، ومجالس الفصح والبيان ورسالة الإيضاح، ورسالة لب المعارف، ورسالة لباب الفوائد وصفو العقائد.
٦	علي بن حنظلة الوداعي	٦٢٢ هـ	له قصيدة سمط الحقائق، وضياء الحلوم ومصباح العلوم.
٧	أحمد بن المبارك	٦٢٧ هـ	
٨	الحسين بن علي ابن محمد بن الوليد	٦٦٧ هـ	
٩	علي بن الحسين ابن علي بن محمد	٦٨٢ هـ	
١٠	علي بن الحسين ابن علي بن حنظلة	٦٨٦ هـ	
١١	إبراهيم بن الحسين بن علي ابن محمد بن الوليد	٧٢٨ هـ	
١٢	محمد بن حاتم ابن الحسين	٧٢٩ هـ	
١٣	علي شمس الدين ابن إبراهيم بن الحسين	٧٤٦ هـ	

العدد	اسم الداعي المطلق	تاريخ الوفاة	الملاحظات
١٤	عبد المطلب نجم الدين	٧٥٥ هـ	
١٥	عباس بن محمد ابن هاشم	٧٧٩ هـ	
١٦	عبد الله فخر الدين بن علي	٨٠٩ هـ	
١٧	حسن بدر الدين ابن عبد الله	٨٢١ هـ	
١٨	علي شمس الدين ابن عبد الله	٨٣٢ هـ	
١٩	ادريس عماد الدين بن حسن	٨٧٢ هـ	له: كتاب عيون الأخبار، وزهر المعاني، ونزهة الأفكار.
٢٠	حسن بن ادريس عماد الدين	٩١٨ هـ	له روضة الأخبار.
٢١	حسين حسام الدين بن ادريس	٩٣٣ هـ	
٢٢	علي شمس الدين ابن الحسن	٩٣٣ هـ	
٢٣	محمد عز الدين بن الحسن	٩٤٦ هـ	
٢٤	يوسف نجم الدين ابن سليمان	٩٤٧ هـ	
٢٥	جلال شمس الدين بن الحسن	٩٧٥ هـ	
٢٦	داؤد بن عجب شاه	٩٩٩ هـ	بعد وفاة هذا الداعي انقسمت المستعلية إلى فرقتين: داؤدية وسليمانية.. كما هو مبين.

رقم متسلسل	اسم الداعي المطلق للفرقة الداؤدية	تاريخ الوفاة	الملاحظات
٢٧	داؤد برهان الدين	١٠٢١ هـ	
٢٨	شيخ آدم صفي الدين	١٠٣٠ هـ	
٢٩	عبد الطيب زكي الدين	١٠٤١ هـ	
٣٠	علي شمس الدين	١٠٤٢ هـ	
٣١	قاسم زين الدين	١٠٤٥ هـ	
٣٢	قطب خان قطب الدين	١٠٥٦ هـ	
٣٣	بيرخان شجاع الدين	١٠٥٨ هـ	
٣٤	إسماعيل بدر الدين	١١١٠ هـ	
٣٥	عبد اللطيف زكي الدين	١١٢٢ هـ	
٣٦	موسى كليم الدين	١١٣٠ هـ	
٣٧	نور الدين محمد نور الدين	١١٥٠ هـ	
٣٨	إسماعيل بدر الدين	١١٦٨ هـ	
٣٩	إبراهيم وجيه الدين	١١٩٣ هـ	
٤٠	هبة الله المؤيد في الدين	١٢٠٠ هـ	
٤١	عبد اللطيف زكي الدين	١٢١٣ هـ	
٤٢	يوسف نجم الدين	١٢٢٢ هـ	
٤٣	عبد العلي سيف الدين	١٢٣٦ هـ	
٤٤	محمد عز الدين	١٢٣٦ هـ	
٤٥	طيب زين الدين	١٢٥٢ هـ	
٤٦	محمد بدر الدين	١٢٥٦ هـ	
٤٧	عبد القادر نجم الدين	١٣٠٢ هـ	
٤٨	عبد الحسين حسام الدين	١٣٠٨ هـ	
٤٩	محمد برهان الدين	١٣٢٣ هـ	
٥٠	عبد الله بن بدر الدين	١٣٣٣ هـ	
٥١	طاهر سيف الدين	١٣٨٥ هـ	
٥٢	برهان الدين طاهر		هو الداعي المعاصر ويقيم في الهند بمدينة بومباي

رقم متسلسل	اسم الداعي المطلق للفرقة السليمانية	تاريخ الوفاة	الملاحظات
٢٧	سليمان بن الحسن	١٠٠٥ هـ	
٢٨	جعفر بن سليمان	١٠٥٠ هـ	
٢٩	علي بن سليمان	١٠٨٨ هـ	
٣٠	إبراهيم بن محمد	١٠٩٤ هـ	
٣١	محمد بن إسماعيل	١١٠٩ هـ	
٣٢	هبة الله بن إبراهيم	١١٦٠ هـ	
٣٣	إسماعيل بن هبة الله	١١٨٤ هـ	
٣٤	حسن بن هبة الله	١١٨٩ هـ	
٣٥	عبد العلي	١١٩٥ هـ	
٣٦	عبد الله بن علي	١٢٢٥ هـ	
٣٧	يوسف بن علي	١٢٣٤ هـ	
٣٨	حسين بن الحسين	١٢٤١ هـ	
٣٩	إسماعيل بن محمد	١٢٥٦ هـ	
٤٠	حسن بن محمد	١٢٦٢ هـ	
٤١	حسن بن إسماعيل	١٢٨٩ هـ	
٤٢	أحمد بن إسماعيل	١٣٠٦ هـ	
٤٣	عبد الله بن علي	١٣٢٣ هـ	
٤٤	علي هبة الله	١٣٣٣ هـ	
٤٥	علي بن محسن	١٣٥٥ هـ	
٤٦	غلام حسين	١٣٥٧ هـ	
٤٧	حسين بن أحمد	١٣٥٨ هـ	
٤٨	علي بن الحسين		يقيم في نجران ـ السعودية

دولــة ألَــموت
الإسْمَاعِيليّة
والنِــزاريّة

الحسن بن الصبَّاح: شيخ الجبل

اسمه: الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن الصبَّاح الحميري. ولد سنة ٤٤٤ هـ في مدينة، «قُم» بمقاطعة الري ببلاد فارس، وتوفي في «ألَموت» سنة ٥١٨ هـ فيكون قد عاش أربعاً وسبعين عاماً، قضى منها خمسة وثلاثين عاماً في حكم دولة «ألموت» الإسماعيلية النزارية التي أشادها.

ينحدر من أسرة عربية تنتسب إلى قبيلة همذان اليمنية، وتتصل بملوك حمير اليمنيين، أما تاريخ قدوم أسرته من اليمن إلى الكوفة فكان قبل مئة عام، ومن الكوفة إلى بلاد فارس فيما بعد، فلا يمكن تحديده، أو توضيح أسبابه.

ألقابه: شيخ الجبل، والداعي الأكبر، وحجة ألَموت، والمعلم، ويكنَّى: بأبي محمد وتجمع المصادر التاريخية على القول: بأنه نشأ في بيت علم، وأدب، ووجاهة... في ظل أسرة عرف عنها بأنها شيعية، وهناك من يقول: بأنها زيدية، وآخر، بأنها إثنا عشرية.

وصفه صاحب كتاب «فصول وأخبار» الإسماعيلي، فقال:

«إنه كان شاباً وسيماً، وجريئاً، عزيز النفس، لا يبالي بالصعاب، ويأنف من الصغائر، وكان فصيح اللسان، عذب الصوت، يؤثر في السامع، ويجبره على الاستسلام إلى افكاره ... وقد وهبه الله من الذكاء النادر أثقبه، ومن الذهن المتوقد أكمله، وأعطاه كل ما يمكن أن يعطيه لمؤسسي الدول العظام من جرأة، وعظمة وذكاء».

ولا بد لنا ونحن نكتب سيرة الحسن بن الصبَّاح من أن نُعرِّج ولو هنيهة على تاريخ نظام الملك فنقول:

ذهب نظام الملك بعد تخرجه من خراسان إلى ما وراء النهر، ثم انتقل إلى غزنة وكابول، وبرجوعه عيّنه السلطان السلجوقي «ألب ارسلان» وزيراً، فقام بالمهمة خير قيام.

ففي إحدى مقابلات السلطان ألب ارسلان مع نظام الملك جرت المحادثة التالية... قال السلطان ألب ارسلان لوزيره نظام الملك، وكان قد أرسل بطلبه.

«أي وزيرنا العزيز... طلبتك في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح، لأستوضح منك عن بعض القضايا التي تهم دولتنا.. إن أوضاع الدولة المالية قد أصبحت في حالة من التدهور الخطير، وقد عجزنا عن إيجاد العلاج الناجع ... فهناك عجز مالي كبير، ونفقات تزيد على الواردات، وهذا كان من الواجبات الملقاة على عاتقك باعتبارك الوزير الأول المسؤول في الدولة، ولكني مع كل أسف لم أجد أية بادرة تدل على اهتمامك بهذا الأمر، فأجاب الوزير نظام الملك:

إنني يا مولاي أعلم بكل ما قلته، وإني أشعر بهذا العجز المالي الذي يهدد الدولة... وفي الحقيقة: لم أتوان ساعة واحدة عن تنفيذ أوامرك الحكيمة، ووصاياك الثمينة، والدليل على ذلك أني استدعيت أحد الأخصائيين في علم الحساب لمراجعة موازنة الدولة، ووضع المخططات والقواعد الثابتة... وجاء هذا الخبير من البلاد المصرية، ولكنه بعد اسبوعين من الدرس والبحث أعلن عجزه عن اكتشاف الداء، وإيجاد العلاج، فعاد من حيث أتى يجر أذيال الخيبة والفشل.

هذا صحيح... وماذا علينا أن نفعل بعد ذلك؟

إنني أعرف شاباً يسمّى «الحسن بن الصبّاح» ومن الممكن أن يقوم بهذه المهمة، فهو من العلماء النوابغ بعلم الحساب والأرقام، وصاحب أكبر عقلية رياضية في عصرنا الحاضر، ولكني لم أستدعه حتى أقف على رأي مولاي وبعد موافقته. فهذا الرجل الرهيب ذو ميول ثورية انقلابية وطموح للحكم وعقلية تكاد تكون شاذة وغريبة.

هذا لا يهمني.. بقدر ما يهمني إصلاح أمور الدولة.

.. فنحن نريد إنقاذ الدولة من الحالة المتردية التي هي الآن فيها.

إذن لا يرى مولاي مانعاً من استحضاره، والعهدة إليه بتنظيم شؤون الدولة المالية؟ كلاّ ويجب أن أراه حين يأتى لهذا الغرض.

سوف أرسل إليه غداً رسولاً يبلغه رغبة مولانا.. فقد علمت أنه الآن في ضواحي «قزوين» يعيش في تلك الربوع».

لم يتمكن رسول الوزير نظام الملك من العثور على الحسن بن الصبَّاح في أرجاء قزوين فعاد أدراجه.. فالحسن كان في مكان آخر، وعندما عاد إلى قزوين أخبروه برسول نظام الملك، فأسرع الخطى وتوجه إلى عاصمة الدولة السلجوقية، ولكنه أخبر وهو في الطريق بوفاة السلطان ألب ارسلان متأثراً بجراحه، والمناداة «بملك شاه» سلطاناً مكانه... أما قصة وفاته فهي كما يلي:

كان السلطان ألب ارسلان مشغولاً بالحرب مع الأتراك، وعند وصوله إلى مقربة من نهر جيحون، أحضروا إليه أسيراً يسمَّى «يوسف ترمزي» وكان قائداً على حصن من الحصون، وقد صمد بوجه رجال ألب ارسلان فترةً ثم استولوا عليه أخيراً عنوة بعد معركة حامية، وقد اغتاظ ألب ارسلان من هذا الرجل فأمر رجاله أن يحضروه إليه، وأن يبسطوه أمامه على الأرض، وأن يشدوا رجليه ويديه إلى أربعة أوتار مثبته في الأرض،وأن يتركوه على هذا الحال حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعندما استمع القائد الأسير إلى هذا الحكم القاسي أرغى وأزبد وشتم السلطان، ثم أخذ يبكي، ويصيح، فاستولى الغضب على السلطان ألب ارسلان وأشار إلى رجاله أن يبتعدوا عنه بعد فك وثاقة،وأسرع إلى قوسه ورماه بسهم قاتل، ولكن المهارة التي امتاز بها في الرماية خانته، فهجم الأسير بعد أن وجد نفسه طليقاً على ألب ارسلان وجرحه جرحاً مميتاً في خاصرته بخنجر كان يخفيه في طيّات ثيابه، وقد حدث كل هذا في سرعة خاطفة.. وأخيراً قتل الأسير، أما السلطان ألب ارسلان فقد ظلَّ حياً بعد إصابته مدة يومين، ثم أسلم الروح، وكان قد أوصى لابنه «ملك شاه» بالملك، وإلى ولده «اياز» بولاية بلخ ما عدا قلعتها أما ولده «قاورت» فقد ترك له ولاية كرمان.

وصل الحسن بن الصبَّاح إلى مقر السلطان ملك شاه في مدينة أصفهان. فمشى بخطى ثابتة، رافع الرأس، شامخ الأنف، وعندما وصل إلى القاعة الملكية قدَّمَ مراسم التعازي، والتهاني، وبعد أن عرَّف السلطان باسمه، حاول الرجوع، ولكن السلطان قال له:

يجب أن لا تذهب من أصفهان قبل أن تراني، ولا بأس أن تأتي غداً في مثل هذه الساعة إلى القصر وتدخل عليَّ.

«كما يريد مولاي السلطان».

وفي اليوم التالي قابل الحسن السلطان فخاطبه بقوله:

«إني آسف جداً، لأن مليكنا الراحل تمنّى أن يراك قبل موته، وقد حدثني عن رغبته هذه مرات عديدة... والآن قل لي يا حسن... إن الدولة السلجوقية أصبحت بحاجة ماسة إليك الآن، فهل أنت على استعداد للعمل في خدمتها؟

ومتى كان الحسن يتهرب من خدمة الواجب الإنساني، أو يأبى الانضواء تحت لواء دولة يعيش حراً في ظلها... «أجل.. إني على أتمّ استعداد لخدمة الدولة السلجوقية وسطانها العادل ملكشاه».

«أريد يا حسن.. أن أعهد إليك بتنظيم شؤون مملكتنا المالية ووضع قواعد ثابتةللصادرات،وللواردات.. فإني أعتقد أن هذه الناحية تسير في طريق متعرج. فالأيدي الفاسدة تتلاعب بثروتنا ومقدراتنا، وتكاد تؤدي بنا إلى سوء المصير».

كان نظام الملك حاضراً الاجتماع... وأخيراً: خاطب السلطان ملك شاه وزيره نظام الملك قائلاً:

«هذا هو الحسن أيها الوزير... فسلّم إليه كما اتفقنا كل ما يلزم لتسهيل مهمته»، وهكذا مضى على الحسن بن الصباح ما يقارب الشهرين وهو جاد في عمله، يضع التقاويم ويصلح الأخطاء، ويضبط الحسابات، ويصدر التعاليم إلى الموظفين والمسؤولين، وخلال تلك الفترة القصيرة تمكن من الحصول على أصدقاء عديدين من كبار القواد والموظفين، فحاز على إعجابهم وتقديرهم وأصبح موضع أحاديثهم، وإشادتهم، مما ادخل الحسد في نفس الوزير نظام الملك. فخاف على مركزه منه خاصة بعد أن سرت إشاعة في أروقة القصر بأن السلطان ملك شاه سيجعله وزيراً للخزانة. فدخل نظام الملك على السلطان وقال:

جئت يا مولاي لأنعم بالمثول بين يديك، وغايتي أن أعرض على جلالتك أمراً بمنتهى الخطورة، لهذا فإن كل تهاون يبدو منّا يؤدي بالدولة إلى عواقب وخيمة.

وماذا جرى أيها الوزير؟

«لقد بتُّ أعتقد يا مولاي أن «الحسن بن الصبّاح» الذي أوليناه ثقتنا، ووضعنا بين أيديه مقدراتنا، وجعلناه في مركز كبير في دولتنا، لن يغادرنا إلا بعد أن يحوّل الدولة إلى رماد، ويجعل العرش الذي تعب آباؤك وأجدادك في بنائه أثراً بعد عين».

وماذا فعل الرجل حتى استحق كل هذا الغضب؟

إنه في كل يوم يقوم بعمل جديد، ويبتدع فكرة حديثة من شأنها إشاعة

الفساد في البلاد والحقيقة: أنه يتآمر على سلامتك، وسلامة الدولة، وعندي أن وجوده أصبح يشكل خطراً كبيراً على البلاد، وقد تأكدت من تأثيره على عدد كبير من المستخدمين، وقواد الجيش، والحرس الملكي.

مضافاً إلى ذلك تأثر بعض رجال الطبقة العليا في المجتمع ويجب أن لا يستغرب مولاي إذا ما قلت له أن بعض الوزراء قد وقعوا تحت سيطرته الفكرية .

«وكيف تمكن من تحقيق كل ما ذكرت في هذه الفترة القصيرة»؟

«إنه يا مولاي... على جانب عظيم من الذكاء... فعيني لم ترَ أفصح منه لساناً ولا أقوى حجة، وأركز منطقاً، وأوسع معرفة، وأعمق تفكيراً. إنه يلم بكافة العلوم، ويجيد التكلم بعدة لغات، ويعلم الفلسفة، والمنطق، والإلهيات، والطبيعيات، وعلم التفسير، والتأويل، والفلك والجبر، والهندسة، ولا شكَ أنه ذو تأثير غريب على السامع حتى أن المستمع إليه كثيراً ما يتمنى أن لا يفارقه وهو على جانب كبير من معرفة علم الفراسة والهيئة، والقدرة على قراءة الأفكار، ومعرفة الطبائع، والتأثير، والسيطرة على من يستمع إليه، وإدخال الشك والارتياب إلى قلبه متى أراد فضلاً عن الترغيب، والتحكم، والتأسيس، من عالم إلى آخر... وكل هذا معناه طموحه بإقامة دولة يكون فيها صاحب الكلمة الأولى».

إن ماذكرته يدل على عظمة الرجل، ولكن ألا ترى أننا بحاجة إليه وأننا جئنا به إلى هنا لكي نستعين بعلمه ومواهبه في تنظيم شؤون الدولة المالية ورسم القواعد التي تخرجها من العجز والانهيار، فإذا ذهب الآن فمن يقدر على إنجاز المهمة الخطيرة؟

اطمئن يا مولاي.. فإن الأعمال التي أوكلنا إليه القيام بها قد أصبحت جاهزة وتامة، ويوم أمس سلمني التقويم والمخططات، وشرح لي كل ما يتعلق بهذا الأمر.

وكيف وجدتها؟

الحقيقة يا مولاي.. أن عمله المنجز رائع، ومن إبداع عقل خلّاق، وإننا إذا ما طبقنا بنوده فنكون قد وصلنا إلى ما ننشده من آمال.

حسناً... فماذا تريد أن نعمل الآن؟

أرى... أن لا يبقى في أصفهان يوماً واحداً يا مولاي... خاصة بعد أن أنهى عمله... إنه يشكل خطراً على الدولة، ويقوم بأعمال جبّارة من شأنها تعريض دعائم الملك للانهيار لذا أرى... أن تستدعيه إلى مجلسك يا مولاي، وتطلب إليه مغادرة أصفهان، بعد أن تشكره على خدماته. وتمنحه مكافأة مالية.

ـ أنا لا أرى لاستدعائه سبيلاً بلّغه أنت رغبتنا أن يترك العمل فوراً.. وقل له إن مولانا السلطان أراد أن يراك ليقدم لك شكره وامتنانه على الخدمات التي أدّيتها للدولة، ولكن وعكة صحية فجائية ألّمت به، وقد أنابني عنه بتقديم هذه المكافأة المالية.

إبعاد الحسن

خرج «الحسن بن الصبّاح» من بلاط السلطان ملكشاه، وفي أعماقه من الألم والحقد على نظام الملك ما لا يمكن وصفه، وقد ظهر ذلك جلياً عندما رفض استلام المكافأة المالية، وكان يعلم أنه ذهب ضحية مؤامرة نظام الملك. فأقسم على الانتقام. وخرج دون أن يفكر في الانتظار، أو مناقشة الوزير... ومن أصفهان أخذ طريق الري وكان قد عقد العزم أن يقوم برحلة طويلة في أرجاء فارس، وعند وصوله إلى مدينة الري نزل في أحد الخانات، وتشاء الظروف أن يلتقي بصديقه الداعي الإسماعيلي «ابي النجم» الذي كان يقوم بإحدى المهمات في تلك الجهات، ولم يمضِ على الحسن سوى ثلاثة أيام حتى أصيب بمرض خطير مفاجىء. فعاهد الله أن يقوم بزيارة مصر ومقابلة الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله إذا منّ الله عليه بالشفاء، وبعد أن شفيَ من مرضه بفضل جهود أبي النجم السراج، ورفيقه «الأمير الضرّاب» وغيرهما من الذين سهروا عليه، وساعدوه حتى اجتاز مرحلة الخطر، وبعد أن استعاد صحته خرج من الري، وبينما كان في الطريق إلى إحدى القرى التقى بالداعي الاسماعيلي الأكبر «عبد الملك بن عطاّش» الذي باركه وحيّاه، وأعطاه توصية إلى الداعي الاسماعيلي المصري «أبي داؤد» وذلك بعد أن أخبره أنه في طريقه إلى القاهرة.

وصل الحسن إلى القاهرة بعد جهود مضنية، ومشقات عرضت له في الطريق، وبعد أن نجا أكثر من مرة من الأعداء الذين أقامهم الوزير نظام الملك وكلفهم بقتله، وذلك بالاتفاق مع العباسيين وأعوانهم في بغداد، وكان الحسن قد جاهر بعداوته للوزير نظام الملك بعد خروجه، من أصفهان، وأرسل إليه يتهمه، ويتوعده بالثأر حينما تسنح الفرصة.

وفي القاهرة «المعزيّة» حظي برعاية الداعي «أبي داؤد المصري» الذي أكرم وفادته وقرّبه، وسهّل له التعرف على كبار الناس في

القاهرة، وفي طليعتهم ولي عهد الإمامة الفاطمية «الأمير نزار بن المستنصر بالله» الذي محضه أيضاً ثقته ومحبته، ومهَّد له السبيل للمثول بين أيدي الخليفة المستنصر بالله أكثر من مرة، وكان الخليفة، ومنذ اللقاء الأول، قد توسّم فيه الخير.

أثارت تحركات الحسن بن الصبَّاح في القاهرة، واتصالاته وما توصل إليه من المكانة والشهرة في تلك الفترة القصيرة، الريبة والحسد في نفس قائد الجيش «بدر الجمالي». فأضمر له الشر. وكانت قد جرت اتصالات سرية بينه وبين نظام الملك، وأرفقها بهدايا ثمينة، وأموال، ونصائح بضرورة الاتفاق على خطة للتخلص من هذا الرجل الخطير الذي لم ينزل القاهرة إلا وفي نيته إبعاد الجمالي عن الحكم. وكل هذا عجَّل بالطلب إلى الحسن أن يعدّ العدة للذهاب إلى بلاد النوبة حيث أن الدعاية للمذهب الإسماعيلي قد تثمر في هذه الأيام، وكان الجمالي على ثقة بأنه إذا ذهب فلن يعود، لأن من سبقه إلى تلك البلاد من الدعاة قد لاقوا حتفهم على أيدي بعض المتمردين الذين يكرهون كل ما يمت إلى الإسلام بصلة. فلما تلقى الحسن الأمر، ذهب إلى الأمير نزار لتوديعه، ولكن نزاراً أدرك المؤامرة، فأمره بالتريث وذهب به إلى مقر الخليفة الإمام المستنصر بالله، حيث عرض أمامه صورة عمَّا يقوم به أعداء الحسن من مؤامرات للتخلص منه. فأصدر الخليفة أوامره على الفور بضرورة الإبقاء على الحسن بن الصبَّاح في القاهرة تحت تصرفه استعداداً لإيفاده في مهمات خاصة.

ومهما يكن من أمر... فإن المصادر التاريخية الإسماعيلية أجمعت على القول بأن الحسن بن الصبَّاح أقام مدة ثمانية عشر شهراً في القاهرة، وعادت هذه المصادر لتذكر أنه شهد وفاة الداعي الأكبر «المؤيد في الدين ـ هبة الله الشيرازي» كما شهد وفاة أمير الجيوش «بدر الجمالي» وتنصيب ولده «الأفضل» مكانه ... وتضيف تلك المصادر بأن الداعي الإسماعيلي الكبير. «عبد الملك بن عطّاش» تمكن أثناء وجود الحسن في القاهرة من الاستيلاء على بعض القلاع والحصون في منطقة «قزوين» الفارسية وهي: شيركوه، وخوش، وقائين، والناظر... كما أنه سيطر على بعض القرى من منطقة أصفهان، ومنها بلدة «دست كور» التي افتتح فيها مدرسة لتعليم

الطلاب والمستجيبين قواعد المذهب الإسماعيـلي وأصولـه، وهذا النشاط حرّك نظام الملك والسلجوقيين، فارسلوا جيشاً قوياً لمقاتلة الإسماعيليين الذين قد ظهروا فجأةً بقوة عسكرية، وبعد معارك عديدة قتل الداعـي الكبير ابن عطاش، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، أمر الحسن بن الصبَّاح بالذهاب إلى فارس لإنقاذ الموقف بعد أن منحه رتبة «داعي جزيرة» وبذلك خلف ابن عطّاش في بلاد فارس.

وصل الحسن إلى بلاد فارس، بعد أن تعرّض للمصاعب أيضاً، ولعدة كمائن أعدها أعداؤه مرة ثانية، وأقاموها بوجهه قصد التخلص منه. فأخذ يقوم بتجميع قواه، وبذل نشاطـه وتمرين فـدائيته، وإعدادهم للمعركة الكبرى المتوقعة، وهذا التحرك لم يخف على نظام الملك. فأخذ أيضاً يوغر صدر السلطان ملكشاه السلجوقي على الحسن وعلى الإسماعيليين، يعاونه في ذلك العباسيون في بغداد، الذين حسبوا أكثر من حساب لظهور هذا النشاط فجأة في منطقة تعتبر من مناطق نفوذهم.

ولكن الحسن كان يرقب فجراً وعده الله به، فكان يقول لرفاقه ومؤيديه وفدائيته:

لا بد أن ينبلج هذا الفجر قريباً، ويمنحنا تورده وزخرفة طلعته الحياة الجديدة في هذه البلاد... فهذا الفجر بدأ يتنفس، وسوف نستظل نحن الذين سنرث هذه الأرض التي رويناها بدماء شهدائنا، وغداً سنكون أحراراً فيها، كهذا النسيم العذب... واعلموا: أن المجد الذي نخطط له أصبح يمشي في موكب من العزة والجلال فـوق الرؤوس والعصور البعيـدة والمستقبل، ومن وراء هـذه الشمس الغاربة.

كان الحسن سريع التنقل من مكان إلى آخر، يحيط أعماله بالكتمان الشديد، يعاونه دعاة أعلام على درجة عالية من الثقافة والمرونة. ففي فترة قصيرة تمكن من الوصول إلى ما تمناه. فانضم إليه العديد من أبناء الشيوخ والأمراء، والمدرسين والأغنياء، فضلاً عن العمَّال، والصنَّاع، ورجال الأعمال، وأقام الحلقات السرية والخلايا للدعاية وللمراقبة، كما تمكن من استقطاب بعض العلماء ورجال الدين من

الشباب الذين أناط بهم ملاحقة رجال الدين الشيوخ من أصحاب المذاهب، والطرائق الأخرى.

أجل لقد حصر الحسن بن الصبَّاح مهمته بتنفيذ الأفكار والمبادىء الهادفة إلى القضاء على المجتمع الفاسد، وهدم كل ما يحوطه ليقيم على أنقاضه مجتمعاً صالحاً مستقيماً تكون قيادته الزمنية والروحية معقودة اللواء للأئمة الفاطميين. فهؤلاء العباسيون وأعوانهم قد ملأوا الأرض فساداً وطغياناً وأصبحوا بعد ذلك في حالة يستحقون معها الموت.

كان الصبَّاح تاريخاً كاملاً، وسفراً من أسفار البطولة. بل كان الرجولة والكرم والوفاء.. إنه النسر الجريء الذي لا يمل الصعود في السماء، ولا تثنيه أية عقبة عن التحليق في الأعالي..

«لقد مات مولانا أمير المؤمنين الإمام المستنصر بالله أيها الداعي الرفيق، ووقعت الفتنة الكبرى في مصر بين أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي، وبين ولي العهد الأمير نزار بن الإمام المستنصر بالله... إن الاخبار التي وردت إلينا تؤكد: بأن الأفضل تمكن من إحراز التفوق بعد معارك عديدة وقعت في مدينة الاسكندرية، وذكر أن الأفضل في خاتمة المطاف تمكن من القبض على الأمير نزار، واخوته وأولادهم، وزجهم في أحد سجون القاهرة».

كلمات قالها الداعي «مؤمن» للحسن بينما كان يقوم بجولة في منطقة بخارى فعقد الخبر لسانه واستسلم إلى السكون، والاغراق في الصمت، وعندما استفاق من ذهوله قال لمؤمن:

«هذا ما كنت أتوقعه أيها الرفيق. والآن: عليك أن ترسل رسلك إلى كافة الدعاة للحضور إلى الري، وقصدي إبلاغهم أوامر جديدة».

بعد حضور الدعاة إلى الري. اجتمع إليهم الحسن، فقصّ عليهم الخبر، وسلّم إلى كل منهم المهمة التي يصلح لها، وطلب إليهم حصر اهتمامهم بمنطقة قزوين، وإعداد المقاتلين الشباب.

وصل الحسن إلى الري وشرع، على الفور بالعمل، وأخذ يعد الخطة لإقامة الدولة النزارية التي يحلم بها والمناداة «بعلي الهادي بن نزار بن المستنصر بالله» إماماً وقائداً، فطلب دعاته، ووجههم، وأعطاهم التعليمات القاضية بتنظيم أمور أتباعه، وإعداد المقاتلين للمعركة المتوقعة بينه وبين السلجوقيين والعباسيين.

وهكذا لم يمض عليه سوى فترة قصيرة حتى استولى على القلاع التالية:

دزكـوه، شاه ذر، خـان لنجـان، قـائين، زوزن، خـور، خوسف، شمنكوه، استوناوند، اردهن، كردكوه، الناظر، طنبورك، خلادخان، وقلاع وادي «ألَموت». أمّا ألموت بجعلها قاعدة لدولته، وجعل إقامته فيها، ومنها أخذ يقوم باتصالاته، وتنظيم فدائيته التي لم تلبث أن أرعبت الملوك، وأدخلت الرعب إلى قلوبهم.

هذه التحركات الإسماعيلية أثارت الوزير نظام الملك، وهو المعروف بحقده على الحسن بن الصبَّاح، فأوغر صدر السلطان ملكشاه، وحرّضه على الحرب، والقضاء على هذه المنظمة الإرهـابية التي اتخذت أماكن لها في أعز وأمنع الجبال تمهيداً لاستئناف زحفها على كل بلاد فارس.

ومهما يكن من أمر فإن أوامر ملكشاه صدرت أخيراً إلى الجيش بالتحرك والاستعداد للزحف على ألموت، والقضاء على الحسن، وتشاء الأقدار أن يخرج السلطان كعادته للقيام برحلة صيد في ضواحي بغداد، وبينما كان على أحسن حال يمارس هوايته المفضلة أصيب بعارض فجائي قيل إنه «الحمَّى» الدماغية التي لم تمهله سوى بضع ساعات، فقضى مأسوفاً عليه.

بعد موته تسلم الملك ولده «محمد» الأول الذي أراد أن لا يخالف خطط والده، فأصدر أوامره بالزحف على «ألموت» وقبل أن تتحرك جيوشه، قتل الوزير نظام الملك اغتيالاً وكـان قد ارتـدى ثياب الصوفية البالية، وجاء إلى مقر نظام الملك طالباً الأذن بالمثول بين يديه لوعظه، وبعد أن اختلى به عاجله بخنجر وتركه مضرجاً بدمه. وهناك رواية أخرى تقول بأن زوجةملكشاه السلجوقي تركان خاتون قد دبّرت مقتل الوزير نظام الملك بسبب تدخله في مسألة ولاية العهد التي كان يطمح إليها ابنها بركيارق وأخوه محمد شاه.

وصلت الجيوش السلجوقية إلى قلاع الإسماعيلية النزارية، وبدأت المعارك العنيفة بين الفريقين، ثم أخذت تشتد ضراوة يوماً بعد يوم، وبينما كانت الحرب على أشدها، جـاء من أخبر قـواد الجيش السلجوقي بمقتل السلطان محمد الأول فجـأةً اغتيالاً من قبـل

مجهول، وعندئذٍ كان لا بد للجيش السلجوقي من التراجع والعودة من حيث أتى.

وانكفأت جيوش السلجوقيين عن أبواب أَلَموت مولية الأدبار تندب رجالها الذين سقطوا قتلى تحت أسوارها المنيعة، وتبكي قوادها الذين ماتوا في سبيل غايةعمياء ـ وجههم إليها الوزير نظام الملك. لقد انكفأت تلك الجيوش عن قلاع الإسماعيليين عائدة إلى موطنها مشتتة البال، قلقة الخاطر، تتنازعها الأفكار، وتعصف بها التيارات. انكفأت أمام جيش الحسن القائد البطل الذي خرج من حصونه، ومن قمم الجبال، ومن مقره يأمر فدائيته بالوقوف على المعابر والمسارب والشعاب الضيقة، وعلى مسالك الطرق يحصي على الغزاة أنفاسهم دون أن يلحقه أي تعب عندما ينحدر من الأعالي والمرتفعات، أو عندما يصعد من الأودية لملاقاة العدوّ المهاجم.

عاد الجيش وكان سنجار ابن السلطان ملكشاه قد تسلّم الملك بعد موت أخيه محمد، فجَرّد حملة ثانية، واندفع نحو قلاع الإسماعيليين، ولكنه في منتصف الطريق توقف، وأمر جيشه بالعودة، بعد أن أصبح ذات يوم في خيمته، فرأى خنجراً ملوثاً بالدم، مكتوباً عليه «الحسن ابن الصبّاح» على مقربة من فراشه.

أما أبناء نظام الملك، وأكبرهم أحمد، فقد قتل في أحد شوارع بغداد بخنجر أحد المجهولين الذي فرّ دون أن يتمكن أحد من القبض عليه. أمّا الثاني وهو «فخر الملك» فقد قتل أيضاً.

بعد هذه الانتصارات الرائعة التي حققها الحسن في تخلصه من أعدائه الواحد تلو الآخر. وخاصة نظام الملك وأولاده والسلجوقيين حلفاء بني العباس الذين هم فرع من «الغز» الأتراك الذين أغاروا على حدود فارس الشرقية والشمالية منذ منتصف القرن الرابع للهجرة.

وقد اتفق المؤرخون على القول: بأن جدهم الأول كان يسمَى «تقاق» ومعناه «القوس» وهو والد «سلجوق» الذي كان أول من اتخذ الإسلام ديناً بين قومه. وجاء في بداية أمره من تركستان إلى ما وراء النهر مع قبائله، فجعلوا مشتاهم في «نور» على مقربة من «بخارى» ومصيفهم قريباً من «سمرقند» وبعد سلجوق جاء ولده «ميكائيل»

فأعقب ثلاثة من الملوك المشهورين وهم «طغرل» و «ألب ارسلان» و «ملكشاه»... وفي عهد ملكشاه امتد سلطانهم من حدود الصين إلى حدود الشام، ومن أقصى بلاد المسلمين شمالاً حتى حدود اليمن جنوباً، وقد دفع لهم أباطرة الروم الجزية، واستطاعوا أن يضموا إليهم دولتين كانتا من أهم الدول وهما: الغزنوية ـ والبويهية، وعندما دعي ملكشاه إلى تولي عرش المملكة العظيمة التي أسسها أبوه، وعم أبيه، لم يكن له من العمر أكثر من سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة، وما لبث بعد توليه العرش أن ظهرت أمامه بعض المتاعب والشدائد، فتغلّب عليها الواحدة إثر الأخرى. ومن الواضح أنه كان لوزيره الأول «نظام الملك» الفضل الكبير في التغلب على الأزمات.

زار ملكشاه مدينة بغداد مرتين أثناء حكمه، واستصحب معه وزيره نظام الملك وزوّج ابنته «زليخا خاتون» من «محمد بن شرف الدولة» وأقطعه الرحبة، وحرّان، وسروج، والرقة، والخابور، كما زوّج ابنته الثانية أيضاً من الخليفة العباسي نفسه أما الزيارة الثانية فقد حدثت قبل سنة من وفاته.

ومهما يكن من أمر... فإن الأمبراطورية السلجوقية بلغت في عهده ذروة الازدهار والقوة وعلو الشأن، وكانت مدينة أصفهان أحب المدن إليه، فقد اتخذها مكاناً لإقامته وموضعاً لكرسي ملكه، وزيّنها بجملة من المباني الجميلة، والحدائق الغناء، حتى أصبحت مدينة جميلة مشهورة بموقعها الذي كان يستهوي الأنظار، القائم على أرض مستوية ذات ماء عذب، وهواء عليل. وكان لها سور مرتفع له بوابات على الأبراج يجلس فيها الحراس والمقاتلون إبان الحروب.

جلس الحسن بن الصبّاح في زاويته البسيطة في قلعة «ألَموت» المطلة على بحر «قزوين» وعلى جبال طالقان المتوجة قممها أبداً بالثلوج، فشكر الله على ما هيأه لـه من نصر، واستعرض شؤون دولتـه الفتيّة وقلاعه الجبارة، وجيشه الذي تعب كثيراً في سبيل تنظيمه وإعـداده ونفخ روح التضحيـة، والفداء فيـه، وخاصـة الفرقـة «الفدائية». وفي هذه العقيدة الإمامية الفلسفية الهادية التي أوكل إليه الخليفة الإمام المستنصر بالله أمر تعميمها في هذه الديـار،

وغرس بذورها في أفكار الناس، ثم عاد أخيراً إلى المدينة الفاضلة «ألَموت» التي شادها وحصّنها، وأدخل التعديلات عليها، وهي التي طالما تخيلها، كما وصفها الحكماء والفلاسفة والشعراء.

وظل مستمراً وغارقاً في بحر عميق من التفكير، ولم يحس بالبرد القارس ولم يذهله القر الشديد الذي يسود كل مكان في القلعة، بل طاف خياله من جديد في السفوح، والأودية، والجبال، ولفح جبينه ريح بارد جعله مع خياله يطوف بالروابي والمرتفعات مفتشاً عن كنف يفيء إليه، وناحية يستريح على أرضها، وكانت الذكرى تعوده فترة بعد الفترة فتضع أمامه صورة عن شواهق الجبال، والألوان، وكل هذا حمل إلى نفسه العزاء وخاصة عندما عرضت أمام عينيه المعارك اللاّهبة التي قادها ضد السلجوقيين، وانتصر فيها على قواتهم الكبيرة. وحانت منه التفاتة إلى الجهة الجنوبية من باب الزاوية فرأى خادمه الأمين يقف على مقربة منه لحراسته ويتطلع يمنة ويسرة.. فناداه:

«اريدك أن تذهب الآن، وتحضر معك «زاده أسد» و «حسن بن سعيد» فلم تمض سوى فترة قصيرة حتى كانا يقفان أمامه... فقال لهما:

«دعوتكما الآن لأمر هام جداً... يتوقف عليه مصيرنا، ومستقبل دولتنا وأمتنا وعقيدتنا، وهو على جانب كبير من السرية، وبما أنكما موضع ثقتي، فقد وقع اختياري عليكما من بين كافة الدعاة فماذا تقولان؟

قالا: «لا جواب عندنا سوى الطاعة والعزم على التنفيذ».

قال: لا شك عندي بأنكما تعلمان ما آل إليه مصير مولانا الإمام نزار، وما اقترفه الطاغية الأرمني الأفضل بن بدر الجمالي من جرائم بحق الأسرة الإمامية... فهذه القصة باتت معروفة لدى الخاص والعام، أما الأمر المجهول الذي أريد أن يبقى سراً من الأسرار.. فهو أنني عندما ذهبت إلى القاهرة المعزية كان همي أن أعمل على إشادة عرش للإمام علي الهادي بن نزار بن المستنصر، لأني على ثقة بأن الله لا يخلي الأرض من إمام مسؤول يضطلع بمهام جده الرسول الأعظم محمد (ص) بالحفاظ على الشريعة، وتطبيق قواعد الإسلام.. وبالفعل ساعدني الله فعثرت على «علي الهادي» مع والدته في منزل أحد دعاتنا النزاريين المسمى «عبد الإمام» في بلدة «بلبيس» فقابلته، وبايعته وأوصيت به خيراً. وبما أن الوقت الآن قد أصبح سانحاً، وعرش «ألَموت» الإسماعيلي النزاري ينتظر من يجلس عليه من ذرية الإمام نزار بن المستنصر بالله، فإني دعوتكما

إليّ، وغايتي أن أعلن لكما، اعتمادي عليكما، وثقتي التامة بكما أجل... أردت أن ألقي على عاتقكما مهمة سرية تقضي عليكما بالذهاب إلى البلاد المصرية بصورة سرية لإحضار الإمام علي الهادي مع والدته إلينا. فعدّا عدتكما للسفر في ساعات الصباح، وإنني سأهيء لكما كتاب إلى الداعي «عبد الإمام» أدعوه فيه إلى الحضور والمشاركة في هذه المهمة.

إني لا أريد الآن توجيه النصائح إليكما، فأنتما ولا أشك في ذلك أحرص مني على مصلحة دولتنا الإسماعيلية النزارية وأكثر مني وفاءً وإخلاصاً للدعوة الهادية، وللإمام علي الهادي... ولكن يهمني أن لا تستقلوا المراكب البحرية في طريق العودة، وأفضل أن تسلكوا الطرق البرية، وأن تغيّروا لباسكم وهيئتكم وكل ذلك خيفة الوقوع في شرك الأعداء»

مضت ثلاثة أشهر على الداعيين المذكورين دون أن يأخذ الحسن أي خبر عنهما، ولم يحدّث الحسن أحداً من الدعاة الكبار عن طبيعة المهمة، وكل هذا جعله قلق البال، حائراً لا يدري ماذا عليه أن يفعل؟ وأخيراً: كان لا بد له من دعوة المجلس الاستشاري الأعلى، وعندما أكتمل عقد هذا المجلس قال لهم:

«إنني قلق البال أيها الرفاق على تأخرّ الداعيين «زاده أسد» و «حسن بن سعيد» ... فلقد أرسلتهما في مهمّة سرية إلى مصر، وحتى الآن لم أتلق منهما ما يشير إلى نجاح مهمتهما أو فشلهما، وكل ما أخشاه أن يكون قد افتضح أمرهما، أو عجزا عن تنفيذ المهمة التي ذهبا لأجلها.. وقد تسألوني عن المهمة الآنفة الذكر... فأجيبكم:

إن المهمة هي استحضار ولي عهد الإمامة «علي الهادي» بن الإمام نزار بن المستنصر بالله، وقد كنت نقلت إليكم خبر وجوده حياً في جهة من جهات مصر...فأجابه الداعي مؤمن:

عسى أن لا يكون في تأخيرهما ما يزعجنا... وأرى أنه لا بد من الصبر والانتظار، إنهما غائبان أيها الرفيق، ومن الصعب أن يتنبأ الإنسان بالغيب، ولم يكد مؤمن يتم كلمته الأخيرة حتى وقف الحاجب في الباب يقول:

أحد رجالنا من العراق في الباب ويطلب الإذن بالمثول، ويقول إنه يحمل رسالة من الداعي «زاده أسد» فأذن له بالدخول، وعندما قرأ الرسالة برقت أسارير وجهه وقال:

البشرى لكم أيها الرفاق... البشرى لكل من يعتنق قواعد دعوتنا الهادية في أية ـ جهة من جهات الأرض. فقضيتنا الكبرى ومهمتنا العظمى قد تحققت.

الكتاب من زاده أسد، وحسن بن سعيد، وقد أرسلاه إلينا من مكان ما في العراق وفيه البشرى بنجاح مهمتهما، وهما الآن في الطريق إلينا ومعهما إمامنا ورئيس دولتنا الفاضلة، فعلينا أن نفتح له قلوبنا، ونفرش أرواحنا، ومنذ الآن وصاعداً أصبحت المَوت عاصمة لدولتنا النزارية الإسماعيلية، ومقراً لأمير المؤمنين. علينا أن نتهيأ منذ الآن لاستقباله، وعليكم أن تعمموا الأوامر على القلاع والمدن في العراق، وبلاد الشام وفارس لكي يحضروا ويشاركوا في الأفراح ويتقدمون لمبايعة إمامهم.

لك الحمد والشكر يا إلهي، فقد تحققت الآمال وزالت الغمة، وجاء الفرج، وتحققت كلمة «نصرٌ من الله وفتح قريب».

عرش الامامة في أَلَموت

«ألموت» معناها باللغة الفارسية «عش العقاب» وفي اللغة العربية يقولون إن أصلها «إله الموت»، وهناك من يقول إنها «الموت» أي الفناء، وهذه القلعة واقعة في جبال «البُرز» أي شمال غربي قزوين، ومن المعروف أن بناءها تم على يد، «حسن الداعي إلى الحق» سنة ٢٥٥ هـ على وجه التقريب، وهو من دعاة البويهيين الشّيعة ثم استولى عليها الحسن بن الصبّاح، وحصّنها، وأضاف إلى أبنيتها بنايات جديدة، وأبراجاً حصينة وأعدها لتكون عاصمة للدولة الإسماعيلية النزارية، ومقراً للإمامة، وعرشاً للإمام علي الهادي بن نزار بن المستنصر بالله الفاطمي، وهو الإمام العشرون.

الهادي الامام العشرون

ولد سنة ٤٧٠ هـ. ونصب إماماً في «ألَموت» سنة ٤٩٠ هـ. ذكر أنه كان صغيراً عندما أخذه الدعاة الإسماعيليون إلى بلاد فارس، فتولّى الحسن بن الصبَّاح الوصاية عليه، بينما عهد إلى الداعي «كيا بزرك أميد» أمر تربيته وتعليمه وإعداده للخلافة وللإمامة.

من الجدير بالذكر: أن الحسن بن الصبَّاح انصرف في ذلك الوقت إلى تأليف الفرق الفدائية وإعدادها، وإلى تنظيم القوانين الخاصة بالدعاة، وفي ذلك الوقت أطلق على الحسن بن الصبَّاح اسم «شيخ الجبل»، في عهده تمَّ محاصرة قلعة أَلموت من قبل السلجوقيين، وفي ظروف غامضة قتل الوزير نظام الملك غيلة بتدبير من زوجة ملكشاه، كما أسلفنا ثم هلك بعده ملكشاه السلجوقي، وعندئذٍ تراجع الجيش عن أَلموت خائباً، وفي عهده أيضاً قام «أبو الهاشم العلوي» وادّعى الإمامة ولكنه قتل بالرغم من أنه من الأسرة الفاطمية.

قضى الإمام الهادي شطر حياته الأكبر في قلعة لمسر، ومن المعلوم انه قضى أربعين عاماً على عرش الإمامة الإسماعيلية النزارية في «ألموت» ودفن في قلعة لمسر.

وبعد جلوسه على عرش الإمامة في ألموت، أقبل الناس من كل حدب

وصوب لمبايعته وأخذ بركاته، والانضواء تحت لوائه ومنهم: الأمير المظفَّر، والحسين القائيني، وغيرهما من بلاد فارس، كما أقبل دعاة الإسماعيلية وقوادهم من بلاد الشام، وكانت الدعوة الإسماعيلية في تلك الفترة قد وصلت إلى الأوج، وازدهرت ازدهاراً لم تشهده من قبل. ففي حلب وضواحيها، وفي دمشق، وفي طرابلس، وعكار، وفي جبال «البَهْرَة» حتى أن حمص وحماه كانتا تعجان بالإسماعيلية أيضاً، وكل هذا التقدم يرجع إلى جهود الحسن، ومساعيه، ودقة إعلامه في نشر التعاليم فهو قد أدخل على نظم الدعوة وقوانينها مواد جديدة، كما غيَّر وبدَّل منها الكثير ممَّا لم يكن يتلاءم والعصر الذي عاش فيه، وعندما نعلم أن الحسن بن الصبَّاح هو المؤسس الأول للمنظمة الفدائية.. أدركنا أيّ عقل مدبر كان.

ازدهرت الدعوة في عهده ازدهاراً عظيماً، وأصبحت الدولة مرهوبة الجانب تفرض هيبتها وسيطرتها على كافة الدول بعد أن أصبح لها جيش منظم وإدارة قوية، وبعد أن اعتمدت على أنظمة حديثة تقدمية لفتت الأنظار.

لقد كان الحسن بن الصبَّاح يقوم بالمهمات السياسية في ذلك العهد يعاونه «كيا بزرك أميد» وهو أحد أعيان الفرس القدماء الذين انتسبوا إلى الإسماعيليين النزاريين مع قبيلته، وهذا القائد تدرَّب على يد الحسن بن الصبَّاح، ثم تسلَّم الحكم من بعده.

المهتدي الامام الواحد والعشرون

ولد المهتدي سنة ٥٠٣ هـ. وتسلَّم شؤون الإمامة سنة ٥٣٠ هـ. وهو الابن الأكبر للإمام الهادي، كان يعيش حياة الزهد والتقشف، ولكن قائد جيوشه «محمد كيا بزرك» قام بتصريف شؤون الدولة. فعمَّر القلاع والحصون في كل مكان، ونظَّم الجيوش العسكرية تنظيماً متقناً.

في عهده أرسل «الراشد» العباسي جيوشه لقتال الإسماعيليين، ولكنه اغتيل قبل أن يصل جيشه ممَّا اضطره إلى التراجع، وفي عهده مات القائد «كيا بزرك أميد» وتسلَّم ابنه محمد مكانه.

توفي ودفن في قلعة لمسر سنة ٥٥٢ هـ.

القاهر
الامام
الثاني والعشرون

ولد القاهر سنة ٥٣٢ هـ. وتولّى الإمامة سنة ٥٥٢ هـ وقام بشؤون قيادة الجيش «حسن بن محمد بن كيا بزرك أميد».

وفي عهده عمَّ الاضطراب جميع النواحي، وسمي ذلك العهد «عهد الطوائف للملوك» بحيث قامت إمارات عديدة في كل جهة من الجهات. كالسلجوقيين، والخوارزميين، والغوريين... والأيوبيين في الشام وغيرهم كما مات القائد «محمد بن كيا بزرك»، وظهر من وراء النهر «جنكيز خان» كقوة تخطط للاندفاع نحو البلدان الإسلامية.

كان على جانب كبير من بعد النظر، وفي عهده بلغت الدولة تقدماً وازدهاراً في مجال الاقتصاد، والصناعة، والتجارة، والثقافة. كما بلغت الدعوة شأواً كبيراً في الانتشار والتنظيم.

توفي في قلعة «ألَموت» ودفن فيها سنة ٥٥٧ هـ.

كيا بزرك أميد

عندما مات الحسن بن الصبَّاح عام ٥١٨ هـ كان قد عيّن خلفاً له كيا بزرك أميد الذي استمر في حكم القلاع حتى عام ٥٣٢ هـ وفي عهده استقرت أوضاع الإسماعيليين لميل السلاجقة إلى الاستكانة والهدوء، وعظم أمر الإسماعيليين وبلغت دولتهم الأوج في النظام والبنيان والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والديني، وأصبح لهم من المؤيدين والأنصار في كل مدن بلاد فارس..

ويعد عهد كيا بزرك أميد عهد رقي رغم أن بلاد الشام تمتعت بحكم بدأ ينمو ويعظم وبخاصة بعد أن توسعت إمارتهم بالامتداد إلى قلاع القدموس والخوابي ومصياف منطلقين من قلعة الكهف في عهد الداعي الكبير أبي محمد، وتوفي كيابزرك أميد سنة ٥٣٢ هـ وحكم بعده ابنه محمد بن بزرك آميد، ويعتبر ثالث الحجج الذين حكموا ألموت وامتد حكمه من سنة ٥٣٢ حتى سنة ٥٥٧ هـ. وفي آخر حياته أوفد إلى قلاع الشام الحجة سنان راشد الدين.

حسن على ذكره
السلام الامام
الثالث والعشرون

هو الإمام الحسن بن القاهر ولد سنة ٥٣٧ هـ في ألَموت

وأعلــن إمــامتــه، عــام ٥٥٧ هــ بــعــد وفــاة الإمــام القــاهــر وقــد لقب بحسن عــلى ذكــره الســلام. وكــان لظهــوره أثــر كبــير في نفوس الإسماعيليين وبخاصة عندما أعلن عن القيامة الروحية التي هدفت إلى تقدم الإسماعيليين الروحي وسموهم في مجال المعرفة بالحقيقة، وعندما أخذ الإمام الحسن على ذكره السلام ينتقل من قلعة إلى أخرى في بلاد فارس يشرح للمؤمنين طريقته الروحية ليمكّنهم من إدراك أهدافه المثلى، كان سنان راشد الدين يطبق التعاليم نفسها في قلاع بلاد الشام، وهذا واضح من خلال رسالة رد فيها راشد الدين على نور الدين الزنكي عندما اتهمه بالخروج عن تعاليم الإسلام بقوله: «إنما نحن مسلمون عارفون محققون معنى الإسلام وسموه ولا يغرنّك المظاهر التي تبدو أمام ناظريك، فلو أدركت ما نحن عليه من سمو في المعــرفة لأبطلت كــلامك، ولعرفت مدى الخطأ الذي ارتكبته باتهامك إيانا بهذه الأباطيل».

ولقد جاءت دعوة الإمام الحسن على ذكره السلام في مكانها بالنسبة للإسماعيليين العارفين، ولكن ذوي النوايا والضمائر الملتويــة لم يستوعبوا دعوته فحقدوا عليه.

وكان الإمام الحسن قد تزوج من سيدة من عائلة الملوك البويهيين، وقد تمكن بعض المعادين للإمامة من استمالة المدعو حسن بن نامور وهو شقيق زوجة الإمام الحسن، ودفعوا له الهدايا والأموال، فدخل على الإمام وهو في قلعة لمستر واغتاله بطعنة من خنجره وكان ذلك سنة ٥٦١ هــ. وكان قد نص على تولية ابنه الإمام أعلا محمد.

الامام محمد بن الحسن الملقب اعلا محمد

تسلم اعلا محمد الإمامة سنة ٥٦١ ـ وسنة ٦٠٧ هــ واشتهر بين أتباعه بحبه للعمران، وقد ذكر أنــه بنى العديــد من المساجــد والتكايا، والمدارس، والخانات، والزوايا، والمكاتب، كما عبّد العديد من الطرقات، وأصلح البروج، والجدران في قلاعه وجعلها صالحة في كل وقت للوقوف بوجه الغزاة.

في عهده ظهر التتر من وراء ما بين النهر كقوة عظيمة، وقد أرادوا أن يتحالفوا معه وعندما أرسل سفيره إلى ما وراء النهر، ووقف على

حقيقة أمرهم، عاد وهو ينفض يده من كل تحالف معهم، ومما يؤكد ذلك أنه تحالف مع جلال الدين خوارز مشاه، عندما غزا جنكيز خان بلاد فارس فتمكنا من ردعه، وهكذا استطاع إنقاذ بلاده، وأتباعه من هذا الخطر العظيم.

يعتبر عهده من العهود الذهبية.. ففي ذلك العهد تمكن الدعاة الإسماعيليون من تحقيق انتصارات كبرى في مقاطعات اذربيجان، وجيلان، ومازندران، وقزوين، وخوزستان، وكردستان، وكرمان، وشيراز، وتبريز، وفي حلب، ومصر، وبغداد حتى بلاد «بامير».

ومن الجدير بالذكر أنه انتصر لحاكم أذربيجان عندما شن عليه خليفة العراق حرباً. زوجته هي إحدى الأميرات من «جيلان» وولي عهده هو الحسن بن محمد الملقب بـ «جلال الدين حسن».

الامام جلال الدين حسن

ولد الإمام جلال الدين حسن عام ٥٦٢ هـ وتولى الإمامة بعد وفاة والده عام ٦٠٧ هـ. كان واعياً أحداث عصره بدقة وله بروز على المستوى الإسلامي والإسماعيلي وله اتصالات ببلاد الشام فقد عثرنا على نص إمامي مرسل من قبله إلى أتباعه في بلاد الشام وهذا النص مؤرخ بتاريخ سنة ٦١٨ هـ. أي قبل وفاته بعام واحد... وهذه بعض فقراته:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

إلى سيف دعوتنا، وحجتنا، في جبال البَهْرة وبلاد الشام «ناصر الدين الأسدي» وإلى أبنائي المؤمنين.

الحمد لله مؤيد الحق ونصيره، ومظهر العدل بتدبيره، ومقسم الأرزاق بتسخيره، ومضيء النهار بسنا نوره، الدال على توحيده ببراهينه، والمقيد جميع عباده بحدوده... وصلَّ الله على النبيين والمرسلين أجمعين.

أيها المؤمنون..

اخلصوا إلينا بقلوبكم، وارحلوا إلينا بنفوسكم، فإن «عهدنا» واصل إليكم، وقد آمرنا حامله بتلاوته عليكم، فتلقوه بقلوب صادقة، ونفوس طائعة غير آبقة فحامله «باب» من أبواب دعوتنا، وقد أمرناه أن يقرأ

عليكم العهد ويتليه، ويوضحه، ولا يخفيه وهو «شمس الدين بن علي» الذي يوضح الحق حتى ينجلي.

أيها المؤمنون..

المخلصون الموقنون القاطنون بحلب، والشام، وقلاع الدعوة، في جبال البَهَرة من الأمراء الكرام، والأسياد العظام، والدعاة الأخيار أصحاب مدينة السلام، وسائر المؤمنين، حسَّن الله أحوالهم في الدارين.

استعجلوا الطاعة، واتبعوا الحق، وتخلقوا بالأخلاق الكريمة من الصبر والتوكل، والشكر، وقلة الطعام، والمنام، واجتنبوا المناهي والمحرمات وسائر الأخلاق الذميمة .

واعلموا أن الحمَّام التي وقعت في قلعة «الكهف» هي خاصة بإمامكم. فعمروها واستعجلوا بارجاعها إلى ما كانت عليه، واعرضوا مشكلاتكم في الدين والدنيا علينا، ثم اعلموا أن معتمدكم «محمد الخراساني» والداعي إبراهيم قد وصلا لعند مولاكم، فكان راضياً منهما، ومن جماعة المؤمنين المخلصين. والحمد لله رب العالمين.

الامام علاء الدين بن حسن بن محمد

ولد في «أَلَموت» سنة ٦٠٩ هـ. وعند وفاة والده كان في التاسعة من عمره، ولهذا فقد تسلَّمت والدته شؤون الدولة وكانت على مستوى رفيع من التهذيب، والمرونة، والذكاء، وفي الوقت نفسه أناطت بالدعاة أمر تعليمه وإعداده وتربيته. وعندما بلغ الخامسة عشرة تسلم شؤون الإمامة، بعد أن تحسنت حالته الصحية، أمر فوراً بقتل قتلة والده وأعوانهم ومحرضيهم.

أصيبت الدولة النزارية الإسماعيلية في عهده بالوهن والإنهيار، على عكس الازدهار الذي حصل في عهد والده. فلم يعد للإسماعيلية ذلك الدور المهم، أو العلاقات الودية القائمة مع الدول المجاورة.

وفي عهده قام حاكم «نيسابور» «الأمير أورخان» فشنَّ غارة على قرى الإسماعيلية في هذه المنطقة، وعندئذٍ أمر الإمام علاء الدين قائده كمال الدين بمفاوضة أورخان والطلب إليه الكف عن التعديات، ولكن أورخان أساء الأدب مع السفير، وهدده بخنجره، فرجع كمال الدين إلى أَلَموت، ونقل إلى الإمام علاء الدين ما سمعه، وما شاهده، فأمر عندئذٍ بتجهيز جيش والزحف لتأديبه، وبالفعل نفَّذ الطلب على الفور،

ولدى وصوله إلى المنطقة المذكورة هاجم أورخان، وبعد معارك عديدة تمكن من إلقاء القبض عليه وإعدامه، وبعد أن تمَّ ذلك جاء خليفة أورخان وعقد صلحاً مع كمال الدين، وهكذا رجع إلى ألموت، بعد أن استولى على قلعة «دامغان».

في عهد الإمام علاء الدين أيضاً، نكث السلطان أحمد السلجوقي عهوده، وأعلن عداءه للإسماعيليين ولإمامهم، وفعل مثله سلطان خوارزم، واتفق الإثنان على الجريمة والغدر فأرسلا «الحسن المازندراني» إلى قلاع ألموت الإسماعيلية فتمكن من الوصول إلى مكان إقامة الإمام، وبينما كان الإمام قائماً يصلي، استلّ خنجره وطعنه عدة طعنات فلم يلبث أن مات على أثرها.

ومن الأمور البارزة والمهمة التي أقدم عليها اتخاذه العلاَّمة الفيلسوف «نصير الدين الطوسي» وزيراً لدولته. مات سنة ٦٧٢ هـ. ودفن في قلعة شيركوه.

محمود ركن الدين الامام الرابع والعشرون

تسلَّم شؤون الإمامة الإسماعيلية النزارية بعد مقتل والده سنة ٦٥٣ هـ. وفي عهده بدأت الحروب والغزوات المغولية لدولة «ألَمَوت» ولبغداد العبَّاسية بقيادة هولاكو، وفي هذه الصفحات ننقل الوقائع عن تلك الفترة، كما وردت في كتب التاريخ، على أن نعود إلى التعليقات، فقد أفادت المصادر التاريخية وهي «تاريخ الأدب في إيران» تأليف «براون»، وتاريخ مختصر الدول للعلاَّمة «غريغوريوس» أبي الفرج بن هرون الملطي المعروف «بابن العبري» وغيرها من المصادر التاريخية.

وجاء في أحد هذه المصادر:

> «جاء هولاكو من كيش سنة ٦٥٤ هـ. إلى معقلين من معاقل الإسماعيلية في ولاية قهستان فاستخلصها وهما «تون وخوان» وقد أمر حينئذٍ بإعدام كل من يزيد عمره على عشر سنوات من سكان هاتين القلعتين، ثم استعمل هولاكو الطرق المغولية المعروفة بنشر الوعود الكاذبة رجاء أن يجني من ورائها ما يريد، وقد تنازعت المخاوف ركن الدين، وكان الوزير الإسماعيلي «نصير الدين الطوسي» يزيّن له الاستسلام.

وما زالوا يضيقون على الإسماعيلية الخناق حتى سلموا إليـه بعض الحصون والمعاقل، ثم إنه أرسل أخاه «سيرانشاه» ومعه ثلاثمائة رجل إلى هولاكو كرهائن، فأمر هولاكو بقتلهم في بلدة «جمال اباذ» الواقعة بالقرب من قزوين، ثم أتبع ذلك قتل جميع الإسماعيليين الذين سلموا معاقلهم إليه، ولم يستثنِ من ذلك أحداً منهم حتى الأطفال فإنه قتلهم في مهادهم، واستيأس جماعة من أشداء على مقاومة المغول، وحصل لهم الإمام ركن الدين على عفو كتابي «يرليغ» ولكنهم استمروا على مدافعة المغـول، واستطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً منهم، غير أن هذه المحاولات جميعها لم تؤدي إلى تأجيل النهاية التي كانت تنتظر الإسماعيلية، حينما اضطر ركن الدين لتسليم نفسه إلى المغول سنة ٦٥٤ هـ».

وحينما استولى المغول على قلعتي «ألموت» و«ميمون دز» أعملوا الغارة ثم أشعلوا النار بعد ذلك في المكتبة الكبرى، وقد استطاع «عطا ملك الجويني» أن يستأذن مولاه هولاكو بأن يحتجز لنفسه جملة من التآليف القيمة التي اشتملت عليها مكتبة «ألَموت» التي جاء على ذكرها المؤرخ «رشيد الدين» بقوله:

إنهـا كـانت تضم مليـون ونصف مجلـد من الكتب الفلسفيـة، والتاريخية، ومصنفات الحكمة، والأدب، والجبر، والهندسة، والفلك، والفقه، والفنون، وقد احتفظ المغول ببعض الأدوات والمراصد التي استعملوها لرصد النجوم.

وقد ترك المؤرخ المذكور لنا وصفاً للمهارة الفائقة التي بني على أساسها حصن «ألَموت» بحيث كان من الأماكن الحصينة التي لا يمكن اختراقها، وقد نقل إلينا أيضاً عن كتاب تاريخي وجده في القلعة وهو من تأليف «فخر الدين البويهي» وفي هذا المؤلف يذكر: بأن الذين بنوا هذا الحصن هم أمراء الديلم سنة ٢٤٦ هـ.

وممَّا تجدر الإشارة إليه أن المغول بعد ذلك استولوا على بقية معاقل الإسماعيلية في فارس فأخذوا «كمشير» سنة ٦٥٥ هـ. ولكنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا «كردكوه» حتى نهاية سنة ٦٥٨ هـ، وكان «منهاج السرَّاج» قابعاً فيها على تدوين كتابه «طَبقات ناصري».

وأخذ المغول الإمام ركن الدين إلى همذان، وأحسنوا معاملته، وفي سنة ٦٥٥ هـ أرسلوه إلى «قراقورم» ليقدم نفسه إلى الأمبراطور

المغولي «منكو خان»، وفي أثناء الطريق اضطروه إلى أن يأمر ضباطه في «قهستان» بتسليم قلعتهم إلى المغول، ففعلوا ذلك بعدما أمنهم المغول على حياتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن قتلوا من السّكان الآمنين اثني عشر ألفاً بمجرد أن تحرك ركاب ركن الدين في طريقه إلى قراقورم، ولم يكد يصل إليها حتى أمر منكو خان بقتله، ثم أمر بعد ذلك بقتل بعض أولاده أينما كانوا.

وجاء في مقدمة كتاب «جامع الحكمتين» لهنري كوربان ومحمد معين:

«وقد نجح الإمام ركن الدين بأن هرَّب ولده وولي عهده «شمس الدين» الوريث الشرعي للإمامة الإسماعيلية، وكان عمره سبع سنوات، وقد جاء بعد ذلك إلى «انجدان» وهي على الطريق بين أصفهان وهمذان».

وجاء في المصادر الإسماعيلية، وفي كتاب «فصول وأخبار» لمؤلفه: «نور الدين أحمد».

«لم يكفّ بنو العباس وأتباعهم يوماً واحداً عن تقديم الأذى لآل بيت النبوة الأطهار، والقيام بالتحريض، وحياكة المؤآمرات عليهم أينما وجدوا، وفي عهد الإمام ركن الدين في ألَموت زينوا للمغل ورسموا لهم خطة اجتياح قلاع الإسماعيلية، كما قدموا إليهم الأموال والسلاح والرجال والأدلّاء.

وعندما زحف المغول على قلاع الإسماعيليين تجنَّد العديد من أعوان العباسيين، ومن مريديهم وتابعيهم في صفوف المغل وكانوا ينادون: إلى الجهاد الأكبر. فقتلوا الأطفال، ورموا بهم من فوق أسوار الحصون أمام أمهاتهم وآبائهم، وبقروا بطون النساء بالحراب، وأحرقوا الرجال، المكبلين بالحديد، كما أحرقوا المصاحف، ودمروا بيوت الله على المصلين. وأخيراً: شجعوا المغل على قتل الإمام ركن الدين مع أطفاله ونسائه وجميع أفراد أسرته، واعتقدوا انهم بذلك قد أطفأوا نور الإمامة من الوجود، ولكن هذا النور لم يلبث أن ظهر في إحدى جهات الأرض».

شمس الدين محمد الامام الخامس والعشرون

يعتبر هذا الإمام آخر أئمة النزارية الإسماعيلية في ألَموت، فبعده لم تقم للإسماعيلية دولة في فارس، ولا في غيرها من البلدان، وانتقل نشاط النزارية إلى قلاع الدعوة في بلاد الشام.

ولد الإمام شمس الدين محمد في ألَموت سنة ٦٤٣ هـ. وكما ذكرنا

فإنه الإنسان الوحيد الذي استطاع أن ينجو من المغول.

عاش متنقلاً بين أذربيجان، وتركستان، وبغداد، وحلب، وكان يحاول أن يلم شمل أتباعه الذين فرقتهم الحروب، ولكن عيون الأعداء كانت تراقبه، وتلاحقه، وتحد من نشاطه، وتسد عليه المنافذ.

أقام في «قونية» فترة طويلة، وعرف بأنه كان يمتهن مهنة التطريز، وكان وسيماً بهي الطلعة حتى أطلقوا عليه اسم «الشمس». أمَّا شمس تبريزي الذي ذكر بأنه معلِّم جلال الدين رومي... فهناك أقوال عديدة عنه. فالبعض يؤكد أنه هو نفسه الإمام شمس الدين بن محمد، والبعض الآخر يؤكد بأنه شمس الدين بن الإمام علاء الدين أي عم الإمام شمس هذا، وهناك من يذكر: أنه شمس الدين بن صلاح الدين من أهالي «سبزه» وكان من دعاة الإسماعيليين البارزين.

ولد للإمام شمس الدين ثلاثة أولاد هم:

قاسم شاه، ومؤمن شاه، وكيا شاه. وبعد موته انتقل بعض أفراد أسرته إلى مقاطعة «جيلان» وأقامت في إحدى القرى الصغيرة النائية «مآهيانا» وقد أطلق عليهم في ذلك العهد «السادة الخداوندية».

المصادر التاريخية تذكر: بأن الإمام شمس الدين محمد توفي سنة ٧١١ هـ... ومن الجدير بالذكر أنه كان على جانب كبير من الصبر، والبطولة، وقوة الاحتمال، ومن المعروف أنه شهد أكبر كارثة حلت بأسرته وبأتباعه، فقابلها بصبر وأعصاب قوية شأن الرجال العظام الذين لا تلين عزائمهم أمام الأحداث والكوارث.

بعد موت الإمام شمس الدين محمد تسلم شؤون الإمامة ابنه قاسم شاه، الولد الأول وهو الذي وقع عليه النص وإليه تعود أسرة الأئمة الحاليين للإسماعيليين. بينما تقول النزارية المؤمنية ان الذي تسلَّم الامامة ولده الأكبر مؤمن شاه.

القاسم شاهية

ذكرنا أن الإسماعيلية النزارية بعد وفاة الإمام شمس الدين بن ركن الدين آخر أئمة دولة «ألموت» النزارية انقسمت بين ولديه مؤمن بن شمس الدين وقاسم بن شمس الدين، ولما كان الإسماعيليون اليوم يأخذون بالاقتداء في سلالتين من أسر الأئمة فلا بّد أن نعرض هاتين الأسرتين بدءاً من أسرة قاسم شاه ثم أسرة مؤمن شاه. وكلا الأسرتين هما من أبناء الإمام نزار بن المستنصر بالله.

قاسم بن شمس الدين الامام التاسع والعشرون

ولد قاسم شاه سنة ٧٠١ هـ وتولى الإمامة بعد وفاة والده الإمام شمس الدين محمد سنة ٧١٠ ـ ٧١١ هـ في أذربيجان، وقاسم شاه حسب القاسم شاهية هو الابن الأول للإمام شمس الدين، وفي عهده تم إرسال الدعاة إلى عدد كبير من الأقطار شملت مناطق في آسيا الوسطى مثل كشمير والتيبت وافغانستان وبدخشان ذات حضارات ولغات متمايزة.

يعتبر السبزواري «شمس الدين» من دعاته الذين أنيطت بهم مهمة الدعاة في «ملتان» وقد ذكر أنه عَمّر قرية باسمه في إيران تعرف «بقاسم أباد».

كان «بهاء الدين زكريا الملتاني» معاصراً له وبعد وفاة الداعي شمس الدين تسلَّم مكانه حفيده صدر الدين فقام بالمهمة خير قيام.

كان يلقب في بلاد فارس «الأنور» وكان تقياً ورعاً ملازماً للعبادة، والصلوات، والانقطاع عن الناس، وذكر أنه كان يعطف على الصوفيين والدراويش.

في عهده تمَّ تغيير اسم «الداعي» إلى «بير» ومعناها «المرشد» وقبل وفاته نص على ولده الأكبر «إسلام شاه» مات سنة ٧٧١ هـ. وكان عمره يناهز السبعين.

اسلام شاه الامام الثلاثون

ولد سنة ٧٥٧ هـ. في بلدة «قاسم أباد» وتسلَّم شؤون الإمامة سنة

٧٧١ هـ. بعد وفاة والده، ومن ألقابه «أحمد سلام شاه» و «سلام شاه» والدته هي: خليلة بي بي.

كان في عهده من الدعاة «بير صدر الدين، وحسن كبير الدين» يقومان بشؤون التبليغ في بلاد الهند. أقام في «بابك» و «كوهك» الفارسيتين. أما اهتمامه فكان موجهاً إلى بلاد الهند، وفي عهده ازداد عدد الإسماعيليين في تلك البلاد. وفي عهده توسع انتشار الدعوة إلى مناطق في شمالي الهند مثل «شيترال».

وفي عهده أيضاً ظهر «تيمورلنك» واندفع نحو البلاد الإسلامية يمعن فيها قتلاً واحتلالاً وتدميراً وكان شاعر إيران الأكبر «حافظ الشيرازي» معاصراً له.

وتذكر المصادر الهندية بأن دعاة هذا الإمام في الهند تمكنوا من إدخال أعدادٍ كثيرة من الهنود في دعوتهم وقد أطلقوا عليهم اسم «الخوجه»، ويرجع الفضل الأكبر لهذا التحول إلى «بير صدر الدين» الذي كان متضلعاً بالعلوم الفلسفية الهندوسية، ومن المعلوم أن هذا الداعي الكبير مات في الهند، وبعد موته تسلّم شؤون التبليغ ولده «حسن كبير الدين» الذي كان يلقب «بكاسر الكفر».

وذكر أيضاً: أنه في عهده تمّ تغيير الأسماء العربية وأُبدلت بأسماء هندية منها: «مُكي» بدل داعي و «كامريا» بدل محاسب، وغير ذلك.

توفي سنة ٨٢٩ هـ . ودفن في بلدة «كوهك».

محمد بن اسلام شاه الامام الواحد والثلاثون

ولد سنة ٧٨١ هـ. في بلدة «بابك» وتولّى الإمامة سنة ٨٢٧ هـ . من دعاته «بيرتاج الدين بن صدر الدين». في عهده جاءت وفود عديدة من بلاد الهند إلى إيران لنيل بركاته، وكان كل هندي يزوره يسمّى «درويشاً» ولهذا فإن كلمة «دراويش» فيما بعد صارت موافقة لكل إسماعيلي يتشرف بمقابلة الإمام.

في بدء حياته كان بير حسن كبير الدين حياً، وبعد وفاته عيّن بير تاج الدين مكانه، ولكن أحد أولاد حسن كبير الدين، وكان يسمّى «إمام شاه» استهواه المنصب الديني الكبير، فطلب من الإمام تعيينه والإذن له بالوعظ والتبليغ. فرفض الإمام طلبه، وعندئذٍ ذهب إلى

الهند، وأعلن عن نفسه بأنه «الإمام» وقام بالدعوة لنفسه، وقد استجاب له بعض الناس، وشكلوا فرقة دينية جديدة عرفت باسم «جون دهرمية» ومعناها الخاضعون للمرشد ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء لم يكونوا يذكرون اسم «محمد بن إسلام شاه»، وبعد وفاة هذا الإمام «الدعي» قامت زوجته، وتوجهت إلى أحد أبناء «بير حسن كبير الدين» المسمى «رحمة الله شاه» وأنابته بالتبليغ من جديد على أن يذكر اسم «محمد بن إسلام»... وبالفعل... تمّ كل هذا في وقت قصير، وعادت المياه إلى مجاريها.

ومما يجب أن نشير إليه.. أن المرشد تاج الدين كان هندي الأصل وكان يسمًّى «برلهار» وذريته في الهند تعرف باسم «بيراج برلهار» توفي الإمام محمد بن إسلام سنة ٨٦٨ هـ. في بلدة بابك، ودفن فيها.

المستنصر بالله (الثاني) الامام الثاني والثلاثون

ولد سنة ٨٠٦ هـ. في بلدة بابك، وتسلَّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرة سنة ٨٦٨ هـ وكان مسكنه في بلدة «بابك» المعروفة في بلاد فارس... اسمه «علي شاه»... كان شاباً وسيماً، وعاش حياة الترف والجاه، والجلال والعظمة، كما يعيش الملوك،وفي عهد إمامته أسند مهام التبليغ إلى «بير محمد نور نجش» وهذا ينحدر من سلالة بير حسن كبير الدين، وكان مجتهداً وذكياً، وقد استطاع تقديم أحسن الخدمات، وأدّى كافة الواجبات الملقاة على عاتقه، وحصر نشاطه في مقاطعة كشمير الهندية، وفي عهده كان يسكن في هذه المقاطعة عالم وثني اسمه «بهرتي ناته» وكان ساحراً عجيباً، ولكن «ميتها» وهو الاسم الذي كان يعرف به «محمد نور» تمكن من إبطال سحره، وفضح ألاعيبه، ممّا قربه من قلوب الناس، وجعلهم يتهافتون على الانضواء تحت لواء دعوته، أو فرقته التي اتخذت لها اسم «النور بخشية» فكانت على العموم فرعاً من الدعوة الإسماعيلية، ولكنها تميزت بإدخال بعض التعاليم الخارجة عن تعاليم الإسلام، والمستمدة من الطقوس الهندية، وهذا لم يكن يرضي الإمام مستنصر بالله، ولكنه اضطرَّ إلى التغاضي.

حكم الإمام المستنصر بالله مدة اثني عشر عاماً، وتوفي سنة ٨٨٠ هـ في بلدة بابك

عبد السلام شاه الامام الثالث والثلاثون

ولد سنة ٨٢٤ هـ. في بلدة بابك، وتسلَّم شؤون الإمامة سنة ٨٨٠ هـ. بعد وفاة والده مستنصر بالله الثاني... سمَّاه والده «محمود شاه» عند ولادته، ولكن اسم عبد السلام غلب عليه أخيراً لأنه كان محباً للسلام، ومؤمناً بالمحبة والتسامح مع كل الناس.

وجَّه اهتمامه لبلاد الهند، وخصها بعنايته، ولهذا فإن الوفود لم تنقطع عن المثول بين يديه، وفي عهده أطلقوا على جماعة الإسماعيليين النزاريين في الهند أسم «خوجه».

وفي عهده أيضاً جرت تغييرات هامة في الدعوة، واستغنى عن كثير من دعاة الأقاليم لأنهم ذهبوا إلى حد الدعوة لأنفسهم.... الجدير بالذكر أنه أضيف إلى مناصب الدعاة ألقاب «وارث» كما أضيف لقب «الوكيل» وكانت مهمته محصورة في الأقاليم.

وممّا تجدر الإشارة إليه.. أنه كان معاصراً لملك إيران الشاه إسماعيل الصفوي، وكان الشاعر «خاكي الخراساني» صديقاً له.

توفي سنة ٨٩٩ هـ في بلدة بابك.

غريب ميرزا الامام الرابع والثلاثون

ولد سنة ٨٤٥ هـ. في بلدة «بابك»، وتسلَّم شؤون الإمامة سنة ٨٩٩ هـ. سمَّاه والده عند ولادته «عباساً» ولكن أتباعه أطلقوا عليه فيما بعد اسم «غريب ميرزا» وتذكر المصادر التاريخيّة أنه ترك موطن آبائه بابك، وانتقل إلى قرية «انجدان» في مقاطعة «كاشان» وهي قرية جميلة هادئة تقع في سفح جبل عالٍ، مجلل بالأشجار، وتتفجَّر منه الينابيع، وتبعد أربعة وعشرين ميلاً عن بلدة «محلات»، وأهلها جميعهم من المزارعين.

عاش غريب ميرزا أيامه القصيرة جداً بالزهد والتقشف، والانقطاع للعبادة، ولهذا لقبوه «بغريب ميرزا».

كان له أخ يسمَّى «نور الدين» وقد انصرف إلى أعمال الزراعة والبناء، فأنشأ المزارع، وأسَّس البنايات في قرية انجدان، كما عمَّر

تكية للدراويش الذين يأتون لزيارة الإمام، وقد سمّاها «نور أباد» فكانوا فيها يمارسون العبادة والرياضة الروحية.

وفي عهده وقعت أحداث خطيرة، وانقلابات، وحروب بين الصفويين والتركمانية وغيرها ولكن أيامه القليلة على مسند الإمامة لم يعترضها أي عارض.

كان على اتصال بأتباعه في الهند، وأفغانستان وآسيا الوسطى وكانت الوفود تأتي لزيارته ونيل بركاته. مات سنة ٩٠٢ هـ. ودفن في قرية انجدان.

أبو الذر علي الامام الخامس والثلاثون

ولد سنة ٨٧٢ هـ. في قرية انجدان، وجلس على سرير الإمامة بعد وفاة والده سنة ٩٠٢ هـ. اسمه: «نور الدين» أمّا لقبه الذي عرف به فهو «أبو الذرعلي».

كان مثل والده يعيش حياة البساطة، وينقطع للعبادة، وأداء الصلوات.

في عهده أيضاً وقعت حروب وانقلابات، وازداد ضغط الصفويين الحاكمين على الإسماعيلية، ولكنهم عرفوا فيما بعد بأنهم كانوا على خطأ، ولهذا تقدموا من «أبي الذرعلي»، واعتذروا عن سوء تفاهم حصل لهم، وبعد ذلك زوجوه فتاة من أسرتهم اسمها «صابرة خاتون» وهي قريبة من «السلطان طهماسب» وهذا الزواج كان له شأنه وأهميته بالنسبة للإسماعيلية، إذ مكنهم من الظهور في الحياة العامة، والانتساب إلى الجيش، كما دعي العديد منهم إلى الوظائف، وخدمة الدولة. توفي في انجدان سنة ٩١٥ هـ.

شاه مراد ميرزا الامام السادس والثلاثون

ولد سنة ٨٨٤ هـ. وتسلّم شؤون الإمامة سنة ٩١٥ هـ. ولمّا كانت والدته من أسرة ملوك الصفويين الحاكمة، فإنها وجهته للعمل في السياسة ولمصلحة الأسرة التي تنتمي إليها ولهذا بدأ يقوم بأعمال لمصلحة الدولة الصفوية كما ذكرنا وهذه البادرة جعلت ملوك

الصفويين يستجيبون إليه ويتقربون من الإسماعيلية، ويعملون على إيصالهم إلى وظائف الدولة ومؤسسات الجيش والإدارة والمالية.

كان اسمه «مراد علي» وفي عهده ازداد النشاط وخاصة في السند وكجرات .. توفي سنة ٩٢٠ هـ. ودفن بمقبرة الأسرة، وأقيم عليه مزار عظيم يؤمه السواح لمشاهدة الآثار والتحف الثمينة الموجودة فيه.

ذو الفقار علي
الامام
السابع والثلاثون

ولد سنة ٨٩٧ هـ. في انجدان، وتولّى الإمامة سنة ٩٢٠ هـ. أي بعد وفاة والده مباشرة، ولكن مع كل أسف فإن المنية لم تمهله إذ أنه لم يمر عليه سوى عامين حتى انتقل إلى رحمة الله.

كان يسمًى في فارس وبلاد الهند «خليل الله» وكان على جانب كبير من الثقافة، وقد أولى التعليم، والمعارف، ونشر الدعوة، والصحة والعمران اهتماماً خاصاً بالرغم من المدة القصيرة التي عاشها وهو يقوم بشؤون الإمامة.

ومن الواضح أنه أولى الفقراء والمحرومين عطفاً خاصاً، وكان يزودهم ويرفه عنهم ويرعى شؤونهم. أمّا بالنسبة للهند فإنه ظل على اتصال بأتباعه يرسل إليهم الدعاة والأوامر ويتلقى وفودهم في مقره، وأما بالنسبة لعلاقته بالدولة الصفوية فإنها ظلّت بين مد وجزر، وقد عاصره السلطان عباس الصفوي وتوفي سنة ٩٢٢.

شاه نور الدين
الامام
الثامن والثلاثون

ولد سنة ٨٩٣ هـ. في انجدان. جلس على كرسي الإمامة سنة ٩٢٢ هـ. في بلاد فارس والهند. كانت ألقابه «فرد حق» و «مرد حق» و «شاه زمين وزمان».

سكن انجدان ... وانصرف إلى العبادة والنظر في شؤون أتباعه الذين كانوا يفدون إليه من بلاد الهند باستمرار.

كان معاصراً للسلطان الصفوي عباس الثاني، وتذكر المصادر التاريخية الإسماعيلية بأنه كان عدواً للإسماعيلية، والإمام شاه نور الدين

ساءت العلاقة بين الإسماعيلية وبين هذا السلطان بعدما أقدم على قتل الشاعر الإسماعيلي «خاكي الخراساني» الذي اتهم بأنه يمدح الأئمة الإسماعيليين مدائح تخرج عن الحد المألوف وتتضمن الغلو في الاعتقاد وكل هذا أوجب غضب أعدائه الذين قابلـوا السلطان وطالبوه بإعدام هذا الشاعر. وعندما قتل حدثت اضطرابات عنيفة.

خليل الله علي
الامام
التاسع والثلاثون

ولد سنة ٩٣٢ هـ. في انجدان. وجلس على مقعد الإمامة سنة ٩٥٧ هـ. وفي عهده كان الداعي الكبير «سيد داؤد» يقوم بشؤون التبليغ وإدارة أمور الدعوة في مقاطعة السند، وكان يحمل من الإمام رتبة «الوكيل» وهو بالأصل هندي الجنسية. ومن مقاطعة السند. وقد جاء من وطنه سنة ٩٦٢ هـ إلى ايران وقام بزيارة الإمام خليل الله في قرية «انجدان» فباركه وفوَّضه وألبسه تاج الوكالة لعموم بلاد الهند. وهكذا عاد وقام بمهمة التبليغ على أكمل وجه، وقد وصف بأنه كان على مستوى عظيم من البلاغة والرجولة وبعد النظر والإخلاص، وفي عصره كان يحكم السند «محمد سمره» وهذا الحاكم أظهر العداوة للإسماعيلية دونما سبب، وكان أول عمل قام به أن أصدر أمره بالقبض عليه، ممّا جعله يفرُّ إلى بلاد «كجه» وكان حاكم تلك المقاطعة يسمَّى «شري مهاروا»، فاستقبله أحسن استقبال، وأفسح له المجال للعمل وقد تمكن بعد فترة من ادخال أربع قبائل هندية في الدعوة الإسماعيلية وأحد رؤسـاء هذه القبائل كان يسمىً «بـير داؤد» والآخر «باوا هاشم» وهذا خدم الإسماعيلية خدمات كبرى، وكان حضرته يقوم بالدعوة منذ عهد إمامة إسلام شاه. وكان له شقيقان قتلا في سبيل عقيدتهما.

يعتبر عهد خليل الله علي من أزهر العهود، وهو من هذه الجهة كان على جانب عظيم من العلم والفضل، وقد ازدهرت الدعوة في عهده أزدهاراً كلياً، وبلغت درجة عليا من التقدم في مجال الدعـوة، وإدخال المستجيبين. توفي سنة ٩٩٣ هـ. ودفن في مقابر أجداده في قرية انجدان.

شاه نزار الثاني
الامام الأربعون

ولد سنة ٩٧٢ هـ. في انجدان، وتسلَّم شؤون الإمامة بعد والده سنة ٩٩٣ هـ... وعند تسلمه كانت هناك رابطة من الثقة والمحبة المتبادلة

بين ملوك إيران الصفويين والإسماعيليين، وكانوا يطلقون على شاه نزال الثاني اسم «عطا الله»

ذكر أنه شيَّد قرية قرب جبل «بندى» وسماًها قرية «شاه نزار» ولا يزال حتى الآن تسمّى «الكهك» ولكن الهنود كانوا يلفظونها بالتخفيف فيقولون: «كيك»

الجماعة الإسماعيلية في الهند أي «الخوجة» كما يسمونهم حتى اليوم كانوا يفدون بأعداد كبيرة من الهند إلى مقر الإمام لنيل بركاته ومقر الإمام كان يدعى «باب» أو «درخانة».

أمّا اسماعيلية إيران فكانوا في عهد شاه نزار الثاني يسمون «عطاء الهي» وكانوا يتعاطون أعمال الزراعة في منطقة «كوهك»، ومن الجدير بالذكر أنهم عمروا البنايات، والحدائق الغناء عند كوهك، وسميت هذه الحدائق باسم «نزار اباد» كما أنه شيّد روضة عظيمة لمقابر أئمة الإسماعيلية، وتشاء الظروف أن يقع الخلاف من جديد بين الصفويين والإسماعيليين، فأعمل الصفويون السيف في رقاب الإسماعيليين، وشردوهم من المدن، وطاردوهم في كل مكان، كما امتلأت السجون بهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في عهد شاه نزار الثاني قتل الصفويون الشعراء الإسماعيليين منهم «قاسم أميري» و«داعي عبد الغني» وقد اتهموهما بالكفر والإلحاد.

ومن الأمور البارزة في عهد شاه نزار الثاني ظهور أحد كبار الصوفيين الإسماعيليين واسمه «**قبله مين شاه**» ولهذا العلّامة الكبير مقام عالٍ في مقاطعة «كرمان» ببلدة «ماهيون».

ومهما يكن من أمر... وبالرغم من كل ما وقع للإسماعيليين من ضغط وإرهاب، فإن عهد شاه نزار كان عهداً مزدهراً وذهبياً، وقد تمكن الإسماعيليون من اكتساب العديد من المستجيبين لدعوتهم.

توفي سنة ١٠٣٨ هـ. ودفن في «كوهك».

شاه سيد علي الامام الواحد والاربعون

ولد سنة ١٠١٥ هـ. في بلدة «كوهك» وتسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده أي سنة ١٠٣٨ هـ.

انصرف إلى الشؤون السياسية المتعلقة بالقضايا الفارسية، وعلى الأخص قضايا السلطنة، ومن ألقابه «اسماعيل آغا» وكنيته «سيد أبو الحسن بيك» عرف أتباعه باسم «عطا الهي» وقد انخرطوا في سلك البوليس والإدارات الحكومية.

مسكنه كان في بلدة «بابك» ولكن الحكومة الصفوية عينته حاكماً على مقاطعة «كرمان» وتشاء الظروف أن يموت السلطان عباس شاه في وقت تسلمه منصبه المذكور فجلس ابنه صفي ميرزا على عرش إيران بموجب وصية والده، ولكن تصرفاته وأعماله كانت مدعاة إلى قيام معارضة من قبل الشعب، وفي سنة ١٠٥٢ هـ. جلس شاه عباس الثاني على كرسي الحكم فقام بالمهمة خير قيام، فسنَّ القوانين والمراسيم، وقاد الرعيّة خير قيادة، وأثبت مرونة وذكاء عندما فكر الأتراك والأفغانيون بشن هجوم على إيران، وكان إلى جانبه الإمام سيد علي يساعده ويمده بالمعونة وبالآراء، وخاصة تنظيم الجيش الذي ضمَّ العديد من القواد والجنود الإسماعيليين.

وبالرغم من انشغاله بالأمور السياسية العليا، فإنه خصّص جانباً من أوقاته لأتباعه، والعناية بهم، والإشراف على شؤونهم، وخاصة الهنود الذين كانوا يتهافتون على مقره.

امتدت امامته اثنتين وثلاثين سنة ومات في مدينة «كرمان» ودفن فيها وذلك سنة ١٠٧١ هـ.

حسن علي الأول
الامام الثاني والاربعون

ولد في بلدة كوهك سنة ١٠٣١ هـ. وجلس على مسند الإمامة بعد وفاة والده سنة ١٠٧١ هـ. ومن الجدير بالذكر أنه وجَّه كافة اهتمامه إلى شؤون أتباعه، وإلى الدعوة، وكان يعاونه أفراد من عائلته ويؤدون له أحسن الخدمات.

كان معاصراً للشاه «سليمان الصفوي» وكان على علاقة جيدة به، وفي عهد، الشاه المذكور أصبحت قلعة «ألموت» سجناً للسياسيين، كما أنه أعاد ترميم بعض القلاع الإسماعيلية وحوَّلها إلى سجون.

في عهده أصبح «الشاه حسين الصفوي» سلطاناً على إيران، ولم يكد

يتسلّم شؤون الملك حتى عيّن «حسن علي الأول» حاكماً على«كرمان» وقد ظلّ في منصبه مدة عام، حيث أدركته المنية.

مات سنة ١١٠٦ هـ. ودفن في «النجف».

قاسم علي
الامام
الثالث والاربعون

ولد في كرمان سنة ١٠٩٠ هـ. وتسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرة أي سنة ١١٠٦ هـ... كان محبوباً ومقدَّراً من قبل ملوك إيران الصفويين لدرجة أنهم كانوا يلجأون إلى آرائه، وقد أسندوا إليه وظيفة الحاكمية على كرمان.

في عهده أخذ الإنحطاط يتسرب إلى الدولة الصفوية، وظهرت بوادر الضعف والإنهيار جلية وذلك عندما قام «نادر شاه الافشاري» بمعارضته وتطلعه للحكم، وقد نجح في مساعيه، وقامت القبائل القاجارية باندفاع سياسي وعسكري نحو عرش الصفويين، فتمكنوا من النجاح، والاستيلاء على العرش.

توفي سنة ١١٤٣ هـ. ودفن في مدينة «كرمان»

أبو الحسن علي
الامام
الرابع والاربعون

ولد في كرمان سنة ١١١٥ هـ. وجلس على مقعد الإمامة سنة ١١٤٣ هـ، وفي إيران يلقبونه «بالسيد حسن شاه» و «حسن بيك» سكن في قرية «قياب» قرب «دركان».

تم في عهده انقراض الأسرة الصفوية الحاكمة، وقيام الأسرة «الافشارية» مكانها، وتنصيب «نادر شاه» سلطاناً.

انصرف إلى العناية بشؤون أتباعه، وقد عيّن «علي شاه» وكيلاً في الهند، وقامت حروب مستمرة بين«نادر شاه»و «محمد شاه» ولكن الإمام أبا الحسن علي وقف بجانب نادر شاه ممَّا جعله يعجل بتعيينه حاكماً على كرمان.

وبعد وفاة نادر شاه بمدة وجيزة ضاعت السلطنة من يد «الإفشارية» واستولى على الملك «كريم خان زند» وهو من عائلة «الزندية» المشهورة بالشجاعة والحرب، وكان الإمام أبو الحسن علي على علاقة طيبة به،

ولهذا اتخذه مستشاراً وكان لا يقوم بعمل من الأعمال إلَّا بعد الرجوع إليه.

بعد تسلم «كريم خان» الملك قام بوجهه «محمد حسين خان» من قبيلة «القاجارية» وأراد الإستيلاء على الملك، ولكن كريم خان تمكن من الانتصار عليه وقتله ثم سجن ولده «محمد خان آغا»، وهكذا أخضع كريم خان بلاد إيران بمجموعها إليه، فكرّس دولته ووضع الإمكانيات بتصرف الإمام أبي الحسن وذلك مكافأة له على موآزرته وعلى المساعدات التي قدمها له وخاصة الجنود الإسماعيليين الذين أبلوا البلاء الحسن في الحرب..

توفي السلطان كريم خان سنة ١١٩٢ هـ وبعد وفاته بعام واحد توفي الإمام أبو الحسن علي سنة ١١٩٣ هـ. وقد نقل جثمانه إلى النجف الأشرف بناءً على وصيته.

ازدهرت الدعوة الإسماعيلية في عهده ازدهاراً قوياً وخاصة في الهند، وكان يقوم بشؤون التبليغ ذرية «بيرسيد رحمة الله وداؤد» وفي تلك الفترة أنهى الإمام اسم «الوكلاء» في الهند، واستعاض عن ذلك باسم «باوا».

شاه خليل الله
الامام الخامس والاربعون

ولد سنة ١١٥٣ هـ. في مدينة «كرمان» وتسلَّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرةً أي سنة ١١٩٤ هـ.

منذ أن كان صغيراً كان يرافق والده إلى مقاطعة «محلّات»، ومن المشهور عنه طيبة قلبه، وترفعه، وأخلاقه العالية، ومحبته لكافة الناس، وهذا ما قربه إلى القلوب، وجعل السلطان يصدر أمره بتعيينه حاكماً على مقاطعة «محلّات».

تزوَّج في سن مبكرةٍ من ابنة عمه«**بي بي سركار**»بنت «ميرزا محمد باقر خان» وبعد فترة ماتت، فتزوج شقيقتها «**إيماني خان**».

وتشاء الظروف أن يسافر في تلك الفترة إلى بلدة «يزد» لبعض الأعمال، ولتفقد بعض أتباعه، وهناك تشاجر خادمه مع أحد الباعة، فذهب البائع وشكا أمره إلى متسلم البلدة «نوَّاب ميرزا جعفر»، فطلب«نوَّاب المذكور الخادم لمعاقبته، ولكن الإمام رفض تسليمه،

وهذا الرفض دفع أحد أعداء الإمام المقربين من الحاكم فأخذ يحرِّضه على الإمام، وعلى الأثر أرسل الحاكم فرقة مسلحة وعلى رأسها «ملاَّ حسين» فأحاطوا بدار الإمام، ودخلوا إليه، ولما كان رجال الإمام غيرمسلحين،فإن مقاومتهم لم تستمر فسقطوا قتلى، كما سقط الإمام نفسه قتيلاً.

وعندما علم «زمين خان» حاكم «يزد» بهذه الواقعة ألقى القبض على المهاجمين وأرسلهم إلى السلطان «فتح علي شاه القاجاري» مع تقرير يتضمن التفاصيل.

وبعد أن اطلع السلطان على الحقيقة أمر بإبعاد «نوَّاب جعفر ميرزا» بعد أن أجبره على دفع الديَّة، كما أمر بإعدام «ملاَّ حسين اليزدي».

بعد هذه الواقعة هاجت نفوس الإسماعيليين، وفكروا بالثأر ، ولكن السلطان«فتح علي شاه»طيَّب خاطرهم، وقرّبهم، وأحسن معاملتهم، ثم طلب ابن الإمام وولي عهده «حسن علي شاه» وقرَّبه ومنحه لقب «آغا خان»، ثم زوجه بابنة من عائلة أسرة السلطان الحاكمة، وكان عمره وقتئذٍ سبعة عشر عاماً.

في عهد «شاه خليل الله» انتهى حكم قبيلة «الـزنديـة»، وتسلَّم «القاجاريون» شؤون السلطنة الإيرانية. وبالنسبة للـدعوة فـإن العلاقات ظلَّت قائمة مع الهند، وكان يقوم بها كل من «بير غلام علي شاه» و «بير محمد شاه» في بومباي، ومن الملاحظ أنهما ماتا قبل استشهاده .. كان للإمام خليل الله أربعة أولاد هم: «شاه حسن علي (آغا خان) »و «سردار محمد تقي خان» وسـردار محمد أبو الحسن خان» وسردار محمد باقر خان ... توفي سنة ١٢٣٣ هـ ودفن في النجف الأشرف.

شاه حسن علي آغا خان الأول

ولد شاه حسن علي سنة ١٢١٩ هـ. في بلدة «محلاَّت»، وتسلَّم شؤون الإمامة سنة ١٢٣٣ هـ. بعد وفاة والده، وكان لا يعرف إلاَّ باسم «آغا خان»، وهذا اللقب طغى على اسمه الأصيل.

كان معاصراً للسلطان فتح علي شاه القاجاري كما عاصر السلطان «محمد شاه» بعد وفاة جده «فتح علي شاه»، ومن الجدير بالذكر أن آغا خان عاونه وشجعه وأمده بالاستشارات، ولكن الوزير الأعظم

«الآقاسي» خاف من آغا خان، وتذكر بعض المصادر الإيرانية التاريخية أن رجلاً فارسي الأصل، وضيع الأرومة، كان يخدم الوزير المذكور، فلما ارتفعت درجته طلب يد إحدى كريمات الآغا خان فلما رفض طلبه راح يوغر صدر السلطان على آغا خان ويحرضه عليه، ويحذره منه، ممَّا جعل السلطان يخضع لوشاية «الآقاسي» وأصبح ينظر للإمام آغا خان نظرات مريبة.
وقعت بعض المعارك بين جنود السلطان والإسماعيلية في بعض المناطق وساءت الأحوال لدرجة أن «آغا خان» علم بأن بقاءه في إيران لم يعد جائزاً، فأعدَّ عدة السفر مع أسرته وغادر إيران بطريقه إلى الهند، وعند وصوله إلى «بلوجستان» استقبل استقبالاً منقطع النظير من قبل الأهلين ثم تابع سفره بعد ذلك إلى الهند، وكان قد تعرَّض لكثير من المصاعب والأهوال التي أقامها سلطان إيران ووزيره في طريقه.

كانت «بريطانيا العظمى» في ذلك الوقت في الهند تضع قدمها لاستعمار هذه البلاد الواسعة، ومن الغريب أن هذه الدولة قد رحَّبت به واستقبلته استقبالاً رسمياً عند وصوله إلى حدود الهند ووضعت تحت تصرفه كافة الوسائل التي تؤمن له الراحة والاطمئنان. وممَّا تجدر الإشارة إليه أن أمراء وملوك السند كانوا في تلك الحقبة يُبدون معارضة عنيفة للدولة المستعمرة، ويجهزون أنفسهم للدفاع والقتال. فتقدم آغا خان وتوسَّط بين الطرفين، فتمكن من إصلاح ذات البين وإيقاف كل نزاع. وهذا ما جعل «بريطانيا» تضاعف تقديرها لجهوده وولائه وخدماته. ولكن النزاع لم يلبث أن ظهر من جديد بين الدولة المستعمرة، وأمراء السند بشأن مدينة «كراتشي» فبريطانيا طلبت الإستيلاء عليها لتحويلها إلى قاعدة بحرية، ومرفأ تجاري في آن واحد، على أن تؤدَّى إلى خزائن السند كافة العائدات الجمركية، وعندما رفض أمراء السند هذا الطلب، تقدم آغا خان منهم ونصحهم بالقبول والموافقة على طلب الدولة الصديقة، وعندما أصروا على الرفض بدأ القتال، تمكن الإنكليز خلال مدة قصيرة من تحقيق الانتصار الساحق على الجيوش الهندية بقيادة «سير جاكسن» وهذا ما حرَّك آغا خان ثانية فذهب إلى «كلكتا» وعقد اجتماعاً مع أمراء الهند، ومهَّد إلى اجتماع عام مع

البريطانيين انتهى بعقد صلح طويل الأمد. قابل الانكليز هذه الجهود والخدمات بكل تقدير واحترام واعتبروها ولاءً جديراً بالثناء والمكافأة وعندئذ أصدر حاكم السند البريطاني أمره بمنح آغا خان لقب «His Highness» أي «صاحب السمو» كما عيّن له راتباً ضخماً، واتفقوا معه أن يكون مقره الدائم في مدينة «بومباي».

وقد حافظ آغا خان طيلة حياته على صداقته للبريطانيين، ومن مجالي التكريم والتأييد أن الملك أدوارد السابع، وكان لا يزال ولياً للعهد قام بزيارته في منزله عندما زار الهند، وتحادث معه طويلاً في كل ما يتعلق بشؤون الهند وسياستها الداخلية والخارجية.

توفي آغا خان سنة ١٢٩٨ هـ. أي سنة ١٨٨١ م ودفن في محلة «مجكاؤن» في مدينة بومباي، وأقيمت له روضة تسمَّى «حسن أباد». وممَّا تجدر الإشارة إليه أنه أقيمت له جنازة رسمية اشترك فيها كافة أمراء الهند والسفراء الأجانب والدولة.

ترك آغا خان بعد وفاته أربعة أولاد هم:

«علي شاه» الذي اصبح إماماً بعد وفاة والده، و «جنكي شاه» و «جلال شاه» و «أكبر شاه».

علي شاه
آغا خان الثاني

ولد سنة ١٢٤٦ هـ في بلدة «محلّات» الإيرانية وتسلم شؤون الإمامة سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨١م).

والدته هي: سرو جهان بيجوم وهي كريمة «فتح علي شاه» القاجاري... زوجته سيدة عراقية اسمها «مريم سلطان» وقد ولدت له ولدين.

كان من الرماة المعروفين المشهورين في عموم الهند. أمَّا هوايته فكانت صيد الحيوانات المفترسة، ويذكر تاريخه أنه قتل ما ينيف على الأربعين أسداً قتلها في غابات الهند وجهاً لوجه.

بعد وفاة زوجته مريم سلطان، تزوج بسيدة إيرانية من أهالي شيراز كانت تسكن في مدينة بومباي، وبعد وفاتها تزوج بصاحبة العزة والتقوى السيدة «عالية شمس الملوك» ابنة «ميرزا علي محمد خان، نظام الدولة ابن عبد الله خان أمين الدولة ابن الحاج محمد حسين

خان الأصفهاني» وكان والدها مقرباً ومحترماً لدى شاه إيران القاجاري. ومن الجدير بالذكر أن السيدة عالية شمس الملوك ولدت صاحب السمو «سلطان محمد» آغا خان الثالث وهو الذي تسلَّم شؤون الإمامة بعد والده.

من الجدير بالذكر أن «علي شاه» تزوَّج خمس نساء فكان له منهن ثلاثة أولاد أحدهم: «شهاب الدين» مؤلف رسالة «حقيقة الدين» وكان عالماً فذاً، والثاني هو «نور شاه».

سار على خطى والده فيما يختص بعلاقته مع الدولة البريطانية. ففي زمن حاكمية «سرجيمس» صدرت الأوامر إليه ليكون السفير العام لإيران في الهند، كما كان يضطلع برئاسة «جمعية الاتحاد الإسلامية». مضافاً إلى ذلك أنه كان يتمتع بشعبية عظيمة في الهند. وكانت الحكومة البريطانية توليه ثقتها التامة، مما ساعده على النهوض بأتباعه.

توفي في بومباي سنة ١٣٠٢ هـ. ونقل جثمانه إلى النجف حيث دفن وكان عمر الذي تولى الإمامة بعده«سلطان محمد»«آغا خان الثالث» ثمانية أعوام.

سلطان محمد شاه آغا خان الثالث

لم يكن آغا خان الثالث شخصاً عادياً تسهل دراسته، أو النفاذ إلى واقعه، أو الوصول إلى أعماق حياته، ودقائق أسراره، ومعرفة كل خفاياه. فهذه الشخصية لعبت دوراً مهماً على مسرح الحياة العالمية، فكانت مرموقة في كل حركاتها وسكناتها، وموفقة في كافة مراحل حياتها، وبارعة في تمثيل أدوارها. حلقَّت في الأعالي، فوصلت إلى القمم الشاهقة، وتفيأت ظلال المثل العليا تحوطها هالة من التقدير والجلال، وتحجب حقيقتها عن العيون سحابة كثيفة من غموض أثارت حولها المزاعم وجعلتها هدف الناس وشاغلهم، وموضع تخميناتهم.

وعندي أن آغا خان لم يكن للإسماعيليين أو للمسلمين فحسب، بل كان للإنسانية جمعاء... فهو من الذين عرفوا الحياة، وتفيأوا ظلها الوارف، وعبروا عنها تعبير ناطقٍ حكيم بصير، وساروا باتجاه الكمال المطلق يغرفون من ينابيعه الخيرة، ويمرون على مسرح الحياة مرور

سحابة عابرة فوق بادية جدباء، يوحون إليها بالأمل، ويعطـرون أرجاءها بالحياة، ويبشرونها بالخير والرجاء

كان آغا خان الثالث تاريخاً قائماً بذاته... لا تزال صفحاتة مطويَّة، ولم تزل سريته عميقة، وبعيدة الغور.. كان يعمل للخلود، ويترفَّع عن صغائر الأشياء، ويتظلَّل بروحية خالدة.. وإيمان مطلق يضفيان عليه سحابة من السمو والإجلال.وذهب إلى الغرب، وضرب لهم مثلاً أعـلى... علمهم أن في شرقنـا الجميل نبوغاً وأن الشـرق منبع الحضارات والفنون، ومهبط العبقريـات والإلهام، وإني أجلّه عن مستوى السياسي المحنك، وأرفعه عن نطاق الزعيم الاجتماعي الكبير. أجلّه عن مستوى هذين، لأضعه في مصاف الفلاسفة والمصلحين الأفذاذ، والقوّاد العباقرة والحكماء الباصرين الذين سبقوا عصرهم بمراحل، وتعمقوا بدراسة الحياة، فساروا بأمتهم إلى الغاية المثلى والهدف الأسمى والكمال المطلق.

وقبل أن تندلع نار الحرب الكونية الثانية سنة ١٩٣٧ م. رأيناه يهرع مدفوعاً بإيمانه إلى«بيرختشغادن»في ألمانيا، مـقر زعيم ألمانيا النازية «هتلر» ليثنيه عن عزمه ويقنعه بعدم إشعال نار الحرب، وكانت الدول الحليفة قد انتدبته لهذه المهمة.

سمعته في القاهرة سنة ١٩٥٦ يقول لأتباعه الذين جاءوا لزيارته:

«علِّموا أولادكم العلوم العملية وأبعدوهم عن العلوم النظرية. فالعالم قادم على انقلاب خطير، وتطور سريع في ميدان الاستنباط والاختراع».

ورأيته في القصر الجمهوري في دمشق سنة ١٩٥١ ... عندما قُلّد وشاح أمية المرصّع، يباحث كل وزير من الوزراء بشؤون وزارته، ويسأله أسئلة دقيقة ومحرجة، ثم يعطيه بعد ذلك الآراء والتوجيهات بالأرقام... ويومها قال أحد المسؤولين الوزراء:

«ما رأيت مثل آغا خان... إنه يفهم كل موضوع، ويلم بكل فن، ولا تفوته شاردة أو واردة».

وقرأت وصيته إلى أتباعه في أفريقيا الشرقية، عندما أمر بإنشاء المستشفى الكبير في نيروبي، كينيا التي يقول فيها:

«يجب أن يكون هذا المستشفى للجميع على اختلاف الملل والنحل».

يصنفه البعض على أنه من أنصار السياسة الإيجابية «اللاعنفية»

بالنسبة لبريطانيا العظمى في الهند، وقد تكون هـذه السياسـة مستوحاة من معرفته بأن سياسة العنف لا توصل الهند إلى استقلالها.

وأيّد «آغا خان» الثالث «محمد علي جناح» بحملته التي قام بها لإيجاد دولة باكستان الإسلامية، وفصلها عن الهند، فدعم كيان باكستان في المجال الدولي، وقدم العون للمسؤولين فيها لا شيء إلاّ لأنّ فلسفته واعتقاده بأن ذلك قد يضع حداً للمذابـح الأهلية، وللمعارك الدموية الدينية، بين الهندوس والمسلمين.

وقرأنا عنه ما قاله للوفد الإسلامي الذي جاء يطالبه بالمساهمة ببناء «معهد مومباسا للتربية الإسلامية» في مدينة «مومباسا» كينيا:

«إنني لا أساهم إلاّ بإنشاء مدرسة صناعية كبرى لتعليم الصناعات المختلفة والمهن الحرة... فقدكفانا،نوماً وركضاً وراء الخيالات والأحلام».

ومن اقواله المأثورة:

لو كان لدينا جميعاً وعي صحيح لما وقعت الحروب... إن العقل الكامل ينقص بني الإنسان

وقال:

لا أرى حلاً للقضية الهندية إلاّ الاستقلال التام، وإلغاء التمييز العنصري الذي هو أشد اعداء الإنسانية.

وقال:

إن الشجاعة لا تكون في ميادين القتال، وإنما في عقيدة الإنسان، بغض النظر عن لونه وعقيدته.

وقال:

إن المهاتما غاندي لم يكن في يوم من الأيام حائلاً دون التفاهم والتعاون... ولسوف يعتريني حزن عميق إذا مات. لأن غيابه عن الهـند كغياب الشمس عن الأنظار.

وقال:

يخطىء من يظن أن اهتمامي ينحصر بالسياسة وحدها، فإن أعظم أوقاتي وأعمقها خلوداً في نفسي هو يوم «الجمعة» حيث أقضي ككل مسلم ساعة صلاة وتأمل وانقطاع.

وقال للوفد الأفريقي الذي جاء للترحيب به في مدينة دار السلام بأفريقيا الشرقية:

إنني أؤمن بعظمة الله، ولسوف يأتي يوم يعم النور فيه كافة القارة الأفريقية، وذلك حينما تعيش جميع الملل والشعوب والألوان والعقائد دون أي تمييز مع بعضها لتحقيق العدالة والحرية والمساواة.

وأخبر مرة أن شاباً إسماعيلياً متحمساً اغتال ثلاثة من الإسماعيليين الذين تركوا عقيدتهم، وقد ظن هذا الشاب أن عمله يرضي آغا خان، فما كان منه إلا أن أصدر أمره بطرده وحرمانه من كافة الحقوق، حتى أنه منع دفنه في المقبرة العامة الخاصة بالإسماعيلية، ثم أعطى أمراً إلى أتباعه بأن هذا الحادث إذا ما تكرَّر فإنه سيكون سبباً رئيسياً لتخليه عن القيادة العامة وعن الإمامة أيضاً.

لا أدري... ماذا أقول بعد كل هذا عن آغا خان... عن الشخصية التي برزت في حقل التقدم الفكري بروزاً واضحاً، وكان ببعد نظره وصدق حدسه، وبراعته في التنظيم، وفصاحته في القول من أنبل من عرفته البشرية، وكان عظيماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وقد عمل لخير الإنسانية كافة وللسلام العام، وفهم الحياة من خلال واقعية صادقة قائمة على الحقيقة والصدق والإيمان.

ولد «سلطان محمد، شاه آغا خان الثالث» يوم الجمعة في ٢ تشرين ثاني سنة ١٨٧٧ م في محلة «شهر العسل» بمدينة كراتشي، ومنذ طفولته كان يبدي اهتماماً بالغاً بمختلف الألعاب الرياضية، فيسير مسافات طويلة على قدميه، ويتحبب إلى الحيوانات.

ولماً بلغ الخامسة من عمره توفي جده «حسن علي شاه» آغا خان الأول، وبعد أعوام ثلاثة مات والده «علي شاه، آغا خان الثاني» وفي هذه السن المبكرة اجتمع رجال الدعوة الإسماعيلية في الهند، واحتفلوا بتسلمه شؤون الإمامة، وقد كان هذا التدبير من الأسباب التي حفزت والدته على مضاعفة السهر على حياته، وإحضار المربين الاختصاصيين والأساتذة الماهرين الذين عملوا على تعليمه اللغات الأجنبية التي أصبح يجيدها كأبنائها وهي: الإنكليزية والإفرنسية، والعربية، والفارسية، ولغات الهند الدارجة... مضافاً إلى قراءة الكتب ودراسة كل ما يهم المثقف كتاريخ الهند، وفارس، وإنكلترة، وفرنسا، والتاريخ العام، فضلاً عن الفقة الإسلامي، والآداب الشرقية، والشعر الفارسي لحافظ، والخيَّام، وخسرو، والفردوسي، والرومي وغيرهم من أعلام الشعر والأدب.

ويقول:

«عندما كنت أدرس الأدب، والتاريخ الإسلامي، والفارسي في أيام طفولتي،

كانت ومازالت لي رغبة خاصة بالدراسات التاريخية المتعلقة بالخلفاء الأولين، والملوك الغابرين، ولقد اكتسبت على أيدي أساتذتي تعلقاً بكتاب «أبلغ المؤرخين» و «أشهر الروائيين السابقين» وكتب التاريخ، وعلم الحياة والفلسفة وعلم اللاهوت».

وفي سنة ١٨٩٣،وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره... حصل نزاع بين الهندوس والمسلمين في بومباي، الهند، بشأن ذبح بقرة، وكان من جملة الضحايا اثنان من أتباعه، فأصدر أمره المشدد إلى أتباعه بالكف عن الخصام، ومساعدة السلطات على إعادة الهدوء والاطمئنان.

وفي سنة ١٨٩٧ وقعت مجاعة كبيرة في الهند فساهم في تخفيف الكارثة ووضع المخيمات في كل مكان لتخفيف المجاعة التي كان يموت من جرائها ألوف من الناس في اليوم الواحد، وكانت الحكومة البريطانية قد أرسلت العالم الجراثيمي البروفسور «هوفكين» ليشرف بنفسه على مكافحة الوباء فأحضر مصلاً فيه الوقاية ضد المرض، وأراد استعماله، ولكن الأهلين نظروا إليه نظرة شك وارتياب، وعلت الاحتجاجات في كل مكان بأن المصل فيه سم زعاف، فتدخل آغا خان وجرّب المصل في نفسه، ليزيل الشكوك، ويكذب الإشاعات والأقاويل.

تزوج في سن العشرين ابنة عمه «شاه زاده» وزار الغرب لأول مرة سنة ١٨٩٨ وعندما وصل إلى لندن منح لقب «كوماندور» للأمبراطورية الهندية، فكان أول هندي ينال، هذا اللقب الرفيع.

وفي سنة ١٨٩٩ زار «زنجبار» لتفقد أتباعه، ومنها عاد إلى أوروبا، فزار ألمانيا ومنح لقباً من الأمبراطور، وكان آغا خان قد طالبه بأن يمنح أتباعه حماية خاصة وبعض الامتيازات في مقاطعة «تانكانيكا» في أفريقيا الشرقية، وهم لا يزالون حتى الآن يمارسون الأعمال الحرة الواسعة النطاق، وزار بعد ذلك فرنسا فقابل فيها شاه إيران المخلوع عن العرش ثم زار القسطنطينية وحلّ ضيفاً على السلطان التركي عبد الحميد الذي منحه وسام «قمر تركية» وعندما زار أفريقيا الشرقية مرة ثانية منح وسام زنجبار المتلألىء، وعندما توّج الملك إدوارد السابع انتدبته حكومة الهند لتمثيلها في حفلات التتويج.

وفي سنة ١٩٠٦ م أنشأ الهيئة الإسلامية العامة وتولى رئاستها سنة

١٩٠٧. وفي سنة ١٩١٠ م ساهم بإنشاء جامعة «عليكـره»، وفي سنة ١٩٠٨ تـزوّج الأميرة الإيطـالية «بتـريسا مـا غليانـو» فأنجب منهـا «الأمير علي خان».

وفي سنة ١٩٢٦ ماتت زوجته المذكورة. فتزوج من «أندريه كارون» الإفرنسية وولدت له «الأمير صدر الدين خان» وفي سنة ١٩٤٤ تزوج «بايغيت لابروس» الإفرنسية الأصل وفي سنة ١٩٣٦ وزن بـالذهب في بومباي وفي سنة ١٩٢٧ وزن بالذهب في نيروبي بأفريقيا الشرقية، وفي سنـة ١٩٤٦ وزن بالألمـاس في بومبـاي الهند، وفي العـام نفسـه وزن بالألماس في دار السلام بأفريقيا الشرقية. وفي سنة ١٩١١ قـام بجمع تبرعات لمساعدة جامعة «علي غرة» بلغت ثلاثة ملايين روبية. وفي سنة ١٩٣٢ مثـل الهند في مؤتمـر نزع السـلاح، وفي سنة ١٩٣٧ تـرأس عصبة الأمم في جنيف باعتباره ممثل الهنـد الدائم في هـذه المؤسسة الـدولية. وفي سنـة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ترأس الـوفد الهنـدي إلى مؤتمر الطاولة المستديرة، وفي العام نفسه قام بالوساطة بين الحلفاء وألمانيا، وقابل هتلر في بيرختشغادن.

وفي سنة ١٩٢٩ رغب إلى الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهـر بإرسال بعثة إسلامية لتدريس الدين الإسلامي في اليابان على أن يتكفل هو بالإنفاق عليها. وفي سنة ١٩٤٩ منح لقب مواطن إيراني، وفي سنة ١٩٥١ زار باكستان بعد اسقلالها، واستقبل فيها استقبالاً حافلاً.

وفي سنة ١٩٥١ زار دمشق ومنح وسام وشاح أمية المرصّع، ثم زار إيران في العام نفسه ومنح أعظم وسام فيها، وفي سنة ١٩٥٤ وزن بالبلاتين، وفي سنة ١٩٥٧ أنشـأ كرسيـاً للدراسـات التاريخيـة الإسلامية في جامعة «هارفارد» في الولايات المتحدة الأميركية.

في ١١ تموز سنة ١٩٥٧ توفي في سويسرا، ونقل جثمانه إلى «أسوان» في مصر حيث دفن فيها باحتفال مهيب، وكان هذا بناءً على وصيته.

تعتبر مذكرات آغا خان التي وضعها باللغة الإنكليزية، وقد ترجمت إلى بعض اللغات العالمية، تؤلف فتحاً جديداً في أسلوب المذكرات، بالنظر لما تضمنته من حقائق دامغة وحوادث شيقة صاغها بأسلوب واضح جذاب. وقد ترجمت سنة ١٩٥٩ إلى العربية وطبعت في بيروت ـ لبنان.

عاصر الملكة البريطانية «فيكتوريا» التي دعته إلى الولائم والحفلات أكثر من مرة وبعدها الملك إدوارد الذي منحه أرفع أوسمة الأمبراطورية العظمى.
نصَّب نفسه مدافعاً عن القضايا الإسلامية بصورة عامة، واهتم بها وتبرع لأجلها. كان مغرماً بالألعاب الرياضية وخاصة «الغولف» وله هواية كبرى بسباق الخيل، وكان يمتلك أكبر إسطبل للخيل في العالم. وكان يهوى الموسيقى والفنون الجميلة ويحب مطالعة كتب التاريخ والفلسفة.

الأمير علي خان

هو الابن الأكبر لآغا خان، ولد في ١٣ حزيران/ يونيو سنة ١٩١١ م في مدينة تورينو الإيطالية وتثقف في لندن حيث حصل على إجازة في القانون الدولي.
كان رياضياً مغامراً يهوى ركوب الخيل وقيادة السيارات، وتسلق الجبال والتزلج على الثلج، وكان لطيفاً وذكياً، ووسيماً، وبارعاً في الحديث، واكتساب الأصدقاء والمعجبين.
تطوّع في الحرب العالمية الثانية مع الحلفاء برتبة ملازم ثم أصبح «كابتن» ومهمته ضابط ارتباط بين القيادتين الإفرنسية والإنكليزية في بيروت، والمسؤول عن الأمن العسكري، وعين في الخمسينات مندوباً للباكستان لدى الأمم المتحدة وسفيراً للباكستان في البرازيل وكان معروفاً عنه دفاعه الدائم عن القضايا الإسلامية والعربية.
كانت تربطه صداقات كبرى مع الشخصيات العربية الكبرى في مصر وسورية ولبنان والعراق فضلاً عن صداقاته في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.

قضى أياماً طويلة بين أتباعه في سورية، وكان يوليهم عطفه الخاص.
تزوج لأول مرة من السيدة «تاج الدولة» وهي بريطانية وقد أنجب منها ولدين هما: كريم وأمين محمد... ثمّ طلقها وتزوج الممثلة العالمية «ريتا هيوارث» فأنجب منها ابنة اسمها «ياسمين».

قتل بحادث سيارة في باريس سنة ١٩٦٠، ودفن في «سلمية» بناء على وصيته.

كريم آغا خان الرابع

ولد سنة ١٩٣٦ م، والده هو «علي خان» ابن آغا خان الثالث وأصبح إماماً للإسماعيلية بنص شرعي من جده.

درس في جامعة «هارفارد» في الولايات المتحدة الأميركية، وتخرج منها متزوج من البيجوم سليمه، وله منها ثلاثة أولاد هم: الأميرة زهراء والأمير رحيم والأمير حسين.


الإمام نزار بن الإمام المستنصر بالله

القاسم شاهيه	المؤمنية
علي الهادي	الحسن بن نزار (الهادي)
المهتدي	محمد بن الحسن (سنان راشد الدين)
القاهر	الحسن بن محمد (جلال الدين)
حسن على ذكره السلام	محمد بن الحسن (علاء الدين)
أعلا محمد	محمود بن محمد (ركن الدين)
جلال الدين حسن	محمد بن محمود (شمس الدين)
علاء الدين محمد	
ركن الدين خير شاه	
شمس الدين محمد	

الإمام شمس الدين محمد

قاسم شاه	كياشاه	مؤمن شاه
اسلام شاه		محمد بن مؤمن
محمد بن إسلام		رضي الدين بن محمد
المستنصر بالله الثاني		طاهر بن رضي الدين
عبد السلام شاه		رضي الدين بن طاهر
غريب ميرزا		طاهر شاه الحسيني الدكني
أبو الذر علي		حيدر بن طاهر
شاه مراد ميرزا		صدر الدين بن حيدر
ذو الفقار علي		معين الدين بن حيدر
شاه نور الدين		عطية الله بن معين
خليل الله علي		عزيز بن عطية الله
شاه نزار الثاني		معين الدين الثاني بن عزيز
شاه سيد علي		محمد بن معين الدين
حسن علي الأول		حيدر بن محمد
قاسم علي		محمد الباقر بن حيدر
أبو الحسن علي		
شاه خليل الله		
شاه حسن علي = آغا خان الأول.		
علي شاه = آغا خان الثاني.		
سلطان محمد شاه = آغا خان الثالث.		
كريم شاه = آغا خان الرابع.		

مؤمن شاه (٢٦) هو الابن الأكبر للإمام شمس الدين آخر أئمة «ألموت» النزارية وصاحب النص الشرعي لدى المؤمن شاهية بينما يرى أتباع القاسم شاهية كما ورد سابقاً، بأن قاسم شاه، هو صاحب النص الشرعي وصاحب الحق بالإمامة.

ولد سنة ٦٧٩ هـ. في أذربيجان، وأخذ العلوم والفقه ومبادىء الفلسفة عن والده الإمام شمس الدين، وعن الدعاة الذين تجندوا لخدمة هذه الأسرة بعد نكبة ألموت. وبعد وفاة والده اتخذ من «تبريز» داراً للهجرة، ومقراً للإمامة.

يعتبر رأس الأسرة «الخداوندية» كما تسميها مصادر التاريخ الفارسي، والهندي، ومن الواضح أن هذه الأسرة اتخذت في عهد والده شمس الدين من قرية «خوند» في مقاطعة «مازندران» الفارسية مقراً، وذلك بعد خراب «ألَموت» على يد هولاكو، وبعد انتقال والده من قونية.

كان مؤمن شاه على مستوى رفيع من الثقافة والعلم، متعمقاً في العلوم الفلسفية والفلكية خاصة وفي عهده بدأت الإسماعيلية النزارية تتجمع بعد نكبة ألموت في بعض البلدان الفارسية، وكان قد ذهب إبَّان النكبة عدد كبير منها إلى قلاع الدعوة في بلاد الشام.

والإمام مؤمن شاه لم يتوان أبداً عن إرسال دعاته إلى مختلف الديار الإسلامية لنشر الأفكار والتعاليم، وكان يوجه عناية خاصة إلى إسماعيلية بلاد الشام الذين هرعوا إلى مبايعته والانضواء تحت لوائه، وكان هذا يتم بصورة سريَّة، لأن الدعوة النزارية بعد نكبة «ألَموت» اتخذت خطة عامة بالابتعاد عن السياسة، والانصراف إلى إقامة صرح الدعوة الدينية.

توفي الإمام مؤمن شاه في مدينة شيراز سنة ٧٣٨ هـ. ودفن فيها، ويؤرخ أحد الدعاة ذلك بقوله:

والسبطُ مؤمن شاه باليقين ... وهو المكنّى بعلاء الدينِ
مولده تبريز ذي المعالم ... هجرته شيراز في الأعاجم

«محمد ابن مؤمن» (٢٧)

ولد سنة ٧٢٩ هـ. هو الابن الأكبر للإمام مؤمن شاه. كان يلقب في بلاد فارس بلقب «خداوند»، وكان أيضاً على جانب كبير من المعرفة بالعلوم الفلكية، والفقه، والتأويل، والفلسفة، وخاصة بالطب. ويروى أنه كان يذهب بنفسه لمعالجة المرضى من أتباعه والعناية بهم، كما اشتهر بتقشفه، وانقطاعه إلى التأمل والعبادة، وكان يتردد كما ذكر على بدخشان وقلاع الدعوة في بلاد الشام، لتفقد أتباعه، وتنظيم شؤونهم وإقامة الندوات العلمية، وتشجيع العلماء والدعاة.

عاش مدة طويلة، وترك عدداً من المؤلفات باللغتين العربية والفارسية، توفي سنة ٨٠٧ هـ. ودفن في بلدة «دار سلطانية».

«رضي الدين ابن محمد» (٢٨)

ولد سنة ٧٨٧ هـ. في بلدة «دار سلطانية» في بلاد فارس. هو الابن الأكبر للإمام محمد بن مؤمن... ومن ألقابه «ضياء الدين».

وقعت في عهده اضطرابات عنيفة في صفوف أتباعه في بلاد فارس، وخاصة بين الدعاة وسببها مناصب الدعاة الدينية. فاضطرَّ إلى اعتزالهم، وترك بلاد فارس، والحضور إلى قلاع الدعوة في بلاد الشام حيث اتخذ من قلعة «الكهف» القريبة من بلدة «القدموس» مقراً له أو دار هجرة. ثم عاد إلى بلاد فارس بعد أن عادت المياه إلى مجاريها.

بعض المصادر الإسماعيلية النزارية السورية تؤكد: أنه لم يعد إلى بلاد فارس، وإنما الذي عاد هو ولي عهده وتضيف قائلة:

إنه مات سنة ٨٣٨ هـ. ودفن في قرية «الجمَّاسة» التي تبعد عن القدموس ما يقارب الخمسة عشر ميلاً إلى الجنوب حيث لا يزال ضريحه قائماً هناك ويعرف «بالمولى رضي الدين».

كان على اتصال دائم بإسماعيلية بلاد الشام قبل وفوده على ديارهم وبعده ويستنتج ذلك من الأوامر، والرسائل، والوصايا التي كان يرسلها إليهم. وقد عثرنا على نص في أحد الكتب السرّية في مدينة مصياف ننشره هنا بكامله:

من الحضرة العلية

إلى أتباعنا المؤمنين في بلاد الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يحول، ولا يزول، ولا تحيط بمعرفة كنه ذاته العقول...

وبعد فهذا تشريف من عبد الله، وحجته على خلقه الإمام رضي الدين بن محمد بن مؤمن. إلى أتباع دعوتنا المقيمين في قلاع الدعوة الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، وإلى إخوانهم المتفرقين في كافة الجهات.

أيها المؤمنون.

أدعوكم إلى التمسك بأهداب الدين، والورود على عين اليقين، والحفاظ على أصول وأحكام الشريعة المحمدية، والقيام بفروض الصلاة في أوقاتها، والاقتداء بإمامكم، والرجوع إلى دعاتكم «حجج» وحججكم لشرح القضايا، والإبانة عن الأمور الصعبة.

وأطلب إليكم إطاعة أوامر حجة إقليمكم «برهان الدين» فعليكم أن تأخذوا عنه أصول العلوم وأن تقفوا عند أوامره ونواهيه. فنحن قد أعطيناه إرشاداتنا، وأوامرنا، وفوضناه، وجعلناه نائباً لنا، وقائماً، وداعياً.

أيها المؤمنون.

إعلموا... أنه ستمر بكم فترات عسيرة، وستتعرضون للحروب وللاعتداءات من قبل أعداء يتربصون بكم، وكل هذا في سبيل محبتنا، والولاية لنا. فاصبروا ولا تهنوا، فإن لكم حسن المآب، وتماسكوا، ووحدوا صفوفكم، وأكثروا من شراء المعدات الحربية، وعززوا المواقع الدفاعية في قلاعكم وحصونكم، وعلِّموا أولادكم الفروسية، وأرضعوهم من لبان علومنا ومعارفنا، ولا تتهاونوا بالتضحية في سبيل أوطانكم، والدفاع حتى الموت عن كل شبر منها، فهي ستظل لكم رمزاً وحصناً ودرعاً وشرفاً.

ستصل إليكم أوامرنا بلا انقطاع، وسيتصل بكم دعاتنا باستمرار، ونحن نرنو من هنا بأبصارنا إليكم، وإلى كافة أتباعنا المخلصين أينما كانوا... داعين الله العلي القدير أن يلهمكم الصواب والسلام عليكم، ورحمة الله.

والحمد لله رب العالمين.

«كتب في دار سلطانيه سنة ٨٢٤ هـ. في الخامس من شهر ذي القعدة».

التوقيع

«صاحب الدعوة النبوية على صاحبها أفضل السلام والتحية»

«طاهر ابن رضي الدين» (٢٩)

ولد سنة ٨٢١ هـ. في دار سلطانيه بفارس. كان يلقب «بالعزيز». أقام فترة طويلة في قلاع الدعوة الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، حيث أشرف على شؤون أتباعه، ولكن حصول بعض الاضطرابات في صفوف أتباعه جعلته يسرع بالعودة إلى بلاد فارس.

من دعاته في بلاد الشام العالم الكبير «شهاب الدين أبو فراس»

صاحب المؤلفات العديدة في الفلسفة والتصوف. وهذا الداعي كان يقيم في قلعة «المينقة» الواقعة في منطقة قلاع الدعوة على بعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الشرق من مدينة «جبلة» الساحلية ومن أشهر كتب هذا الداعي «سلّم الصعود إلى دار الخلود» و «سلّم الارتقاء إلى دار البقاء».

وبعد عودته من بلاد الشام، اتخذ الإمام طاهر شيرازْ مقراً له فانصرف فيها إلى تنظيم أمور أتباعه وإصلاح حالهم ورأب صدعهم. حتى توفي ودفن فيها سنة ٨٦٨ هـ.

رضي الدين ابن طاهر (٣٠)

هو الابن الأكبر للإمام طاهر الأول. ولد سنة ٨٥٧ هـ. في بلدة «دار سلطانية» في بلاد فارس. كان يلقب «بشمس الدين».

ازدهرت الدعوة في عهده ازدهاراً كلياً وخاصة في مجال العلم والثقافة والدعاية، فقد نشط الدعاة إلى العمل لإدخال الراغبين والمستجيبين في الدعوة الإسماعيلية وكان أبرز هذا النشاط في نواحي الهند، والسند، وبدخشان.. ممّا جعل الصفويين (ملوك إيران) يخافون على ملكهم فوجهوا اهتمامهم للحد من نشاط الإمام رضي الدين، وخططوا لقتله، ممّا جعله يبادر إلى التخفي والاستتار، وخاصة أثناء تنقلاته وذلك حتى لا يقع بين أيدي الأعداء. وقد ذكره أحد دعاة الإسماعيليين في مصياف في قصيدة له فقال:

وبعده المولى رضي الثاني   مبدل الإجحاد بالإيمان
وبعده الولي طاهر شاه   ليس له في عصره مباهِ

تذكر المصادر: بأنه كان على جانب كبير من العلم، وأنه كان يخصص القسم الأكبر من أوقاته للتأليف والكتابة.

توفي سنة ٩١٦ هـ. في بلدة «دار سلطانية» بفارس.

طاهر شاه الحسيني أو «الدكني» (٣١)

علم من الأعلام، وعظيم من عظماء الأئمة الفاطميين لعب دوراً بارزاً على مسرح السياسة، وفي مجال الفكر، فكان مضرب الأمثال بمغامراته، وتفوقه، وعبقريته، ممّا يعيد إلى الأذهان سيرة العباقرة الذين تخرجوا من مدرسة هذا البيت الفاطمي العريق.

يكاد يكون الإمام طاهر شاه الحسيني أو «الدكني» كما ورد اسمه في المصادر التاريخية الهندية والفارسية مجهولاً في التاريخ العربي، حتى وفي المصادر التاريخية الإسماعيلية التي لا تذكر عنه إلا القليل، والذي أعتقده أن سبب ذلك هو فقدان الكتب والمصادر الإسماعيلية التي كتبت في ظروف استثنائية جائرة، على أن كل هذا لم يمنعنا من تقصي الحقائق، والتنقيب عن المصادر النادرة، وهي ولا شك تطفح باللمحات والخطرات عن تاريخ هذه الشخصية الفذة التي لعبت دوراً مهماً في المجالات العالمية، واستطاعت أن تحقق انتصارات كبرى واحتلت مركزاً مرموقاً في بلاد الهند عندما لجأت إليها فراراً من ملوك إيران المستبدين الظالمين، دون أن يكون له ما يعتمد عليه من مال أو رجال.

هو الإمام الواحد والثلاثون لجده الإمام علي بن أبي طالب، ورأس الأسرة «الخداوندية» الإسماعيلية النزارية المؤمن شاهية.

في سنة ٩٢٧ هـ حدث في تاريخ الهند حدث كبير لم يلبث أن صار مدعاة إلى التعجب والاستغراب في الأوساط السياسية والاجتماعية، والدينية، وهذا الحدث يعرفه كل من قرأ بإمعان تاريخ الهند، واطلع على وقائعه وأخباره، ففي ذلك العام أعلن الملك «برهان الدين نظام شاه الدكني» الذي تسلَّم الملك صغيراً من «أحمد نظام شاه» والذي عمل على فصل دولته عن مملكة «بهادر شاه» في «كجرات» فصارت دولة إسلامية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وكانت عاصمتها مدينة «أحمد نكر».

أعلن هذا الملك فجأةً أن المذهب الإسماعيلي هو دين الدولة الرسمي، وقد هزَّ هذا الحادث أرجاء المملكة، وأثار حفيظة الكثيرين من المؤرخين، ورجال البلاط لمعرفة الأسباب والدوافع التي أدَّت إلى هذا الانقلاب الخطير المفاجيء.

ظهر للمطلعين أن هناك اعتبارات سياسية أخرى أدَّت إلى ذلك وأهمها وجود مهاجر فارسي الأصل، غامض الشخصية، عظيم الأهمية، تمكن من الوصول إلى بلاط الملك، والتحدث إليه، ومنذ اللقاء الأول، أعجب به، واتخذه صديقاً ومستشاراً ثم وزيراً.

أثَّر هذا الرجل في الملك، أثراً جعله يتحوَّل عن مذهبه. بعدما قدَّم إليه

البيانات الدامغة، والحجج الصحيحة المدعومة بالأدلة والبراهين. ولم يكن هذا الرجل الغريب سوى «طاهر شاه الحسيني» الذي ينتسب إلى الإمام «مؤمن شاه».

إن دراسة تاريخ وحياة هذا المهاجر العظيم من كافة الجوانب تنطوي على فوائد كثيرة بالرغم من الصعوبات التي تكتنفها وفقدان المصادر

طاهر شاه هو رأس الأسرة «الخداوندية» المعروفة في العالم الإسلامي بتقواها، وصلاحها، ومحافظتها على الإسلام، وهذه الأسرة بعد سقوط «ألَموت» بيد المغول لجأ من سلم منها وهو الإمام «شمس الدين بن ركن الدين» إلى «قونية» ثم تنقل في مدن وبلدان فارس إلى أن استقرّ أخيراً في قرية «خَوند» في مقاطعة «جيلان». أمَّا سلالته فهناك من يقول إنها استترت عن الأنظار منذ مئة وسبعين عاماً لاعتبارات مكانية وزمانية، وهناك من يقول إنها تقيم في إحدى مقاطعات الهند حيث تتمتع بكل تقدير واحترام.

ذُكر «طاهر شاه الحسيني» في عدد كبير من كتب التاريخ، وسير ملوك الهند المسلمين، وأكثرها لخّصت أعماله في مجال السياسة والتعليم والتأليف، ولكن يبدو أن آثاره العلمية ومخلفاته الفكرية قد ضاع أكثرها ككل المخلفات من التراث الإسماعيلي الذي وضعه واقتناه هو وأسلافه وأفراد أسرته.

إن أهم مصدر تاريخي يمكن الاعتماد عليه، عند بحث حياة الإمام طاهر شاه الحسيني هو تاريخ «فرشته» الذي يذكر لمحة وجيزة عن كيفية مغادرته قرية «خوند» في مقاطعة «مازندران» إلى بلدة «أحمد نكر» الهندية، ومن الواضح أنه كان صغيراً عندما غادر إيران، وأن وصوله إلى مدينة «أحمد نكر» كان قبل وفاة الملك بعشرة أو بخمسة عشر عاماً، فقد ظهر فيما بعد أن الكثيرين من أسرة طاهر شاه كانوا يحظون في مدينة أحمد نكر بعطف الأسرة المالكة وإيثارها، وأن العلاقة بين الأسرتين كانت وديَّة، ومتينة، وأنها استمرَّت طويلاً.

تبدأ قصة الإمام طاهر شاه الحسيني في تاريخ فرِشته بذكر سلسلة نسبه ثم يقول:

بعد سقوط ألَموت بيد هولاكو... جاءت أسرة طاهر شاه، وسكنت في قرية «خوند» الواقعة على حدود «جيلان»، وهذا بعد خروجها من «أذربيجان» ثم عودتها... وقد ثبت أن هذه القرية غير موجودة الآن، أو ربما تكون المنطقة كلها قد تغيرت تماماً أو عفت آثارها.. ولا ندري فيما إذا كانت القرية المذكورة هي نفسها الواقعة إلى الجهة الجنوبية الشرقية من زنجان.

المهم هو أن جميع المصادر تجمع على القول بأن طاهر شاه الحسيني قد غادر فعلاً بلاد فارس مع أسرته، بعد أن تعرّض إلى ضغط شديد من قبل الشاه إسماعيل الصفوي ملك بلاد فارس، وكان قد اعتبره خطراً على مملكته. وهناك ما يشير إلى أن أقطاب البلاد وعظماءها في بلاد الهند كانوا ينظرون إليه، وإلى أسرته نظرات الاحترام والتقديس والإعجاب، بالنظر لسمعتها الطيبة، وأخلاق أفرادها، وعراقة نسبهم، وحبهم لعمل الخير، والعطف على الفقراء والضعفاء والمحرومين، والانصراف إلى العلم، والتربية، والتزود بالمعارف... أمَّا طاهر شاه نفسه فكان موهوباً فوق العادة، وعلى جانب كبير من العبقرية والفهم والذكاء والرجولة حتى أنه تفوَّق على كل أسلافه في كافة المجالات، وحاز شهرة واسعة لم يحصل عليها أحد منهم قبله، وكل هذا كان من الأسباب التي أثارت الغيرة، والحسد، والخوف في نفس شاه إيران إسماعيل الصفوي، وهو الذي كان يطمح إلى سيادة روحية كالتي للإمام طاهر شاه، وذلك بالإضافة إلى السيادة الزمنية، فأخذ يشعر بالخوف على الملك من هذا الرجل الذي ملك القلوب، وأثَّر في الأفكار، وجعل رجال البلاط وقواد الجيش، والعلماء والأشراف، والأغنياء، وكل الناس ينحنون أمام عظمته.

ولكن جميع هؤلاء لم يستطيعوا الوقوف في وجه أوامر الملك العليا التي قضت بإبعاده إلى إحدى المقاطعات الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية وهي «كاشان» التابعة «لأصفهان» حيث أسندت إليه مهمة التدريس، وإلقاء المحاضرات في إحدى الكلِّيات الدينية المشهورة في ذلك العهد... فذهب، وفي خلال مدة قصيرة تمكن من اجتذاب كافة الطلاَّب، بل لقد أصبح قدوتهم، ومثلهم الأعلى، ومعلمهم الكامل، فكان هذا من الأسباب التي جعلت الحسد يدب في قلوب الأساتذة الآخرين. فأرسلوا تقريراً إلى الملك يتهمون فيه طاهر شاه بميول

هرطوقية، واتصالات مريبة مع بلاطات الملوك الأجانب، فأصدر الملك الصفوي عندئذٍ أمره بإعدامه، ولكن أصدقـاء الشاه إسمـاعيل الصفوي، والوزراء دخلوا عليه ونصحوه وحذروه، بأن أي تدبير من هذا النوع سيفقده الملك، ويعرض الدولة إلى الانهيار.

في تلك الأثناء تمكن طاهر شاه وأسرته من الهرب، والذهاب إلى الهند، ولكنه لم يستقر طويلاً فيها، وقيل أنه أنذر بمغادرة الهند، فعاد إلى وطنه، ولكن الملك الفارسي الصفوي أمر بإلقاء القبض عليه، ممَّا جعله يعود ثانية إلى الهند بطريقة سريَّة، فوصل إلى عاصمة مملكة «بيجابور» ولكن الملك لم يوله أي اهتمام، وعندئذٍ ذهب إلى الديار المقدسة، ومن هناك تفقَّد أتباعه الكثيرين في قلاع الدعوة في بلاد الشام، وعاد بعد ذلك إلى «بيجابور» وكان ينوي إحضار عائلته والرجوع إلى بلاد الشام، وتشاء الظروف أن يلتقي في الميناء بالوزير خواجه جهان وهو الوزير الأول لملك بهمن، وكان يعرفه، ويقدّر مزاياه، فأقنعه بالبقاء، ثم أخذه حيث مهَّد له للإقامة في مدينة «أحمد نكر» فعاش فيها حتى آخر يوم من حياته. ويحدثنا مؤلف تاريخ «فرِشته» عن قصة مداواته للأمير عبد القادر بن الشاه الصغير، وإبرائه من مرض مزمن خطير، وهذه القصة تعطينا الدليل على أنه كان يتقن الطب، بالإضافة إلى تفوقه في كافة العلوم، وإلى المواهب التي كان يتمتع بها كقوة الشخصية، وتأثيره على السامعين ببيانه الساحر، وحجّته القويّة.

سكن طاهر شاه كما تذكر المصادر التاريخية الهندية ستة وعشرين عاماً في مدينة «أحمد نكر» وفي خلال تلك المدة احتلَّ منـاصب سياسية عليا، وكان جميع الوزراء والقوَّاد وأعيان البلاد يجلونه، ويحترمونه، ويقدرون مزاياه. أمَّا الملك فكان يؤثره، ويستشيره، ويقدم إليه الهدايا والأوسمة العظيمة، ويرافقه في رحلاته، وبالرغم من مشاغله السياسية الكثيرة فإنه كان يتولَّى إلقاء المحاضرات في النوادي، والمجامع، والمساجد، وقد وصفوه بأنه من أبرع المتكلمين.

ولد الإمام طاهر شاه سنة ٨٩٢ هـ.، ومات سنة ٩٥٦ هـ. في مدينة «أحمد نكر» ثم نقل جثمانه إلى كربلاء بناءً على وصيته. كان يلقب ببلاد فارس، والشام، والهند، بـ «حجة الله».

ترك الإمام طاهر شاه عدداً من المؤلفات أهمها:

ديوانه الشعري، ومجموعة من المقالات في مواضيع مختلفة، وشرح لبعض النظريات الفقهية الجعفرية، وكتاب في الفقه الشيعي عامة، وكتاب في التعليق على تفسير البيضاوي للقرآن الكريم، وكتاب في الفلسفة، وعرض بعض المقالات، والإشارات، والنقد للمجسطي، وله كتاب الشفاء المطوَّل، وكتاب «غلشن راز»، وتحفة شاهي، ورسالة بلاكي التي ألّفها وهو في طريق السفر، وله شرح التهذيب، ومقالة في آداب اللغة الفارسية، ورسالة دار المعاد، وله مؤلفات أخرى يرجح فقدانها، أو أنها لا تزال في مكتبة الأسرة.

مات الإمام طاهر شاه عن أربعة أولاد، وثلاث بنات. أمَّا الأولاد فهم حيدر شاه، ورفاع الدين شاه، وأبو الحسن شاه، وأبو طالب شاه، وجميعهم كانوا يحتلون مناصب عليا في مملكة برهان نظام الدين، وعادل شاه. ومن الثابت أن الإمام طاهر شاه كان على اتصال مستمر بالإسماعيليين السوريين، وهذا ثابت في المصادر الإسماعيلية.

يقول إيڤانوف، المستشرق الروسي المعروف في مقالة بالإنكليزية.

«حدث سنة ١٥٣٨ م حادث غريب ووحيد بالنسبة لتاريخ السلالة الملكية السنيَّة في الهند معروف لدى طلّاب التاريخ في الهند. ففي ذاك العام أعلن الملك «برهان نظام شاه» في «دكن» بأن دين الدولة الرسمي سيكون الجعفري الشيعي، وينسب المؤرخون الهنود هذا الإعلان المهم إلى غيرة الملك الدينية، وإلى خوفه الخرافي. وهذا الأمر وبالرغم من أنه عادي، فإنه يعطي انطباعاً بأنه كان مستمداً من عاطفة الملك الدينيَّة، ومن اتصالاته، وقد تكون هناك دواعٍ أخرى مهمة أوجدت هذا التبديل الفجائي، ولعلها اعتبارات سياسية بالنسبة لسلالة ملكية في بلاد فارس. وفي تلك الفترة كان مهاجر عجمي، غامض الشخصية، عظيم الأهمية يحط الرحال في تلك البلاد، واسمه «طاهر شاه الحسيني أو الدكني»، ولا شك أن دراسة أعماله من كل النواحي شيقة لأنها اكتشاف عجيب وحديث، وتفيد المعلومات بأنه كان من سلالة الأئمة النزاريين في ألموت، ومع أن هذا الفرع يكاد يكون منسيّاً الآن، فإنه يترك أثراً مهماً في تاريخ الطوائف في آسيا الوسطى، وفي الهند».

ذُكر طاهر شاه في عدد من الكتب التاريخية، وكتب سير الحياة، ومن الممكن تلخيص سيرته في عالم السياسة، ولكن يبدو أن أعماله العلمية ضاعت كلها، وقد أفلحت في اكتشاف اثنين منها فقط، وأن أي واحد يسمح له منصبه بالتنقيب والتقصي في أقطار الهند عن أحد

من سلالة طاهر شاه، أو عن بعض كتبه الخطيَّة فسيكون في ذلك فائدة تاريخية كبرى.

إن أفضل بيان عن شاه طاهر، ورد في تاريخ «فرشته» ومن الجلي أن عائلة «فرشته» وعائلة طاهر شاه كانت بينهما صداقة متينة. حيث يظهر مؤلف الكتاب احتراماً عميقاً، وعطفاً كبيراً على هذه الأسرة، ويبدو أن «فرشته» قد رجع إلى مصادر أخرى سابقة وهي:

«برهان المعاصر» تأليف «علي الساماني الطباطبائي»... و «هفت اقليم» تأليف «أمين الرازي» و «مجالس المؤمنين» تأليف «نور الله الشستري»، و«طرائق الحقائق» تأليف «معصوم علي شاه نعمة اللهي».

يبدأ «فرشته» حديثه عن طاهر شاه بتعداد أجداده، ويظهر أن السلسلة المحفوظة في عائلة الإمام طاهر لم تتغيّر، وهذه السلسلة شيقة جداً لأنها مجهولة، وليس هناك من يعرف التفاصيل عنها.

يقول فرشته:

«إنه بعد سقوط ألَموت، كان أجداد طاهر شاه يسكنون في قرية «خوَند» في مقاطعة «قزوين» على حدود «جيلان»، وفي الوقت الحاضر لا يوجد على ما يظهر قرية اسمها «خوَند»، ويبدو أن المنطقة قد تغيرت، ولعلها القرية التي نطلق عليها اسم «خوند» الواقعة في جهة جنوب غربي «زنجان».

وقبل أن يصبح طاهر شاه إماماً، ورأس السلالة العريقة، احترم أقطاب البلاد الأسرة احتراماً عظيماً، وهي أيضاً تمتعت بسمعة عالية فيما يختص بالعلم والتدين، ولكن طاهر شاه الذي كان موهوباً فوق العادة، وتفوق على كل أسلافه، وحاز شهرة واسعة، فأثارت هذه الشهرة الغيرة والحسد في قلب «شاه إسماعيل الصفوي» الذي كان علاوة على وصوله للسلطة الزمنية. يطمع بالسيادة الروحية، وكان لطاهر شاه أنصار كثيرون في بلاط الملك، وفي مقدمتهم «ميرزا حسن أصفهاني»، وكان طاهر شاه قد تسلَّم أمر الشاه بالذهاب إلى «كاشان» الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية من أصفهان، بحيث يقوم بالتدريس في الكلية الدينية المشهورة، وهناك تمكن من جذب الطلاّب. فأعلنوا ولاءهم واحترامهم له ممَّا سبب حسد الأساتذة الآخرين، فأرسلوا كتاباً إلى الملك يذكرون فيه ميول طاهر شاه الهرطقية، ومراسلة بلاطات الملوك الأجانب، فأمر الملك وكان يفتش عن عذر ليتخلص من الرجل المخيف، بالقبض عليه وإعدامه، ولكن أصدقاء

ووزراء الدولة حذَّروه من هذا الأمر.. وعندما علم طاهر بما يضمره له الملك الصفوي توجه إلى عاصمة «عادل شاه بيجابور» ولكن الأمير الحاكم لم يهتم به فقرَّر عندئذٍ أن يذهب لتأدية فريضة الحج، وفي طريقه إلى الميناء التقى بالوزير «خواجة جهان» في بلاط ملوك «البهمن» وكان يقدر مزاياه، فجاء به إلى مدينة «أحمد نكر» وهكذا استقرَّ فيها حتى موته».

ويصف «فرشته» في تاريخه قصة معالجته وشفائه للأمير عبد القادر بن الشاه، وكان يشكو من مرض خطير.

وفي مدينة «أحمد نكر» كان يشغل مناصب دبلوماسية لدولة برهان شاه، وهذا ما شغله عن متابعة التأليف، وإلقاء المحاضرات في الجوامع والنوادي والمدارس.

ويقول المستشرق إيڤانوف: زرت الإسماعيليين في سورية. فوجدت أن إيمانهم لا يزال سرًّاً حتى الآن، ولكن يظهر أن إسماعيلية «القدموس» و «مصياف» وبعض القرى الصغيرة المجاورة لهم هم من أتباع هذا الفرع المنسي المذكور في هذا المقال.

«حيدر ابن طاهر» (٣٢)

ولد في مدينة «أحمد نكر» سنة ٩٣٧ هـ.، وتسلَّم شؤون الإمامة بعد أن نصَّ عليه والده قبل وفاته. أتباعه في فارس كانوا يطلقون عليه لقب «خداوند» وهو من جهته كان على مستوى رفيع من الثقافة والعلم، وقد سهر على شؤون دعوته، ونظمها، وأرسل دعاته إلى كل مكان، وخاصة في قلاع الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام حيث بلغت شأواً بعيداً وازدهرت ازدهاراً عظيماً. في عهده أرسل ملك فارس «طهماسب» الصفوي إليه يدعوه لزيارة بلاده، فقبل الدعوة وقام بزيارة بلاد فارس، كما تفقَّد أتباعه، وهكذا زالت تلك الجفوة، وقد ذكر أن الملك عرض عليه فكرة الرجوع إلى إيران، ولكنه رفض العودة، ممَّا جعل الملك الفارسي يعهد إليه برتبة السفارة لدى عموم الإمارات الهندية في الهند، وقد ظلَّ في هذا المنصب حتى وفاته سنة ٩٩٤ هـ.

من المعروف أن الإمام حيدر شاه لعب دوراً بارزاً في سياسة الهند العليا، وكان يدافع، ويرعى شؤون المسلمين الذين أحبوه، وسلموه قيادتهم كما كان مقرباً من بلاطات الملوك غير المسلمين، وكان محل احترامهم وتقديرهم.

توفي في مدينة «أورنك أباد»وكان قبل وفاته قد نصَّ على خليفته «صدر الدين» كما هي العادة.

«صدر الدين ابن حيدر» (٣٣)

ولد سنة ٩٧٧ هـ. في بلدة «أورنك أباد» الهندية... تسلَّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده، ولقب «بمعز الدين».

كان على جانب كبير من العلم والفضل والكرم، وقد حذا حذوَ والده، وسار على خطواته في معاملته للناس، وحرصه على الإحسان للفقراء، والسهر على شؤون المسلمين عامة، وأتباعه المسلمين النزاريين خاصة.

من الجدير بالذكر أن إسماعيلية بلاد الشام كانوا على اتصال به، يتلقون أوامره ونواهيه، ويرسلون إليه أموال الزكاة كالمعتاد، أمَّا بالنسبة للصفويين في بلاد إيران، فإنهم ظلوا على عهدهم، وثقتهم به، فأوكلوا إليه بعد وفاة والده مباشرةً شؤون السفارة، وهي المرتبة التي كانت لوالده، فقام بها خير قيام.

في عهده ازداد إقبال الناس في بلاد «بامير» وما يجاورها على اعتناق المبادىء الإسماعيلية بواسطة الدعاة الذين انتشروا في كل مكان.

يعتبر عهده من العهود الزاهرة. توفي سنة ١٠٣٢ هـ. ودفن في مدينة «أورنك أباد» الهندية.

معين الدين ابن صدر الدين (٣٤)

ولد بمدينة «أحمد نكر» سنة ١٠٠٣ هـ. لقبه «القاهر» اتفقت كافة المصادر التاريخية الإسماعيلية على أن الإمام «معين الدين» كان على جانب كبير من التفقه بالعلم، والفلسفة، والأدب، وكان أيضاً يقوم بنشاط فكري شامل. أمَّا النشاط السياسي فلم تذكر المصادر أنه مارسه، كما لم يسجل عليه أنَّه اضطلع، أو تولَّى أي منصب سياسي كأجداده.

سهر على شؤون أتباعه في الهند خاصة، وجاءته الوفود من جميع البلدان تنهل من علمه وتتزود بإرشاداته، وذكر أن له عدداً من المؤلفات، ولكن حتى الآن لم يعثر على أي منها... تذكر المصادر أيضاً أنه قام بعدة رحلات إلى بلاد فارس، وقلاع الدعوة في بلاد الشام، ثم عاد بعد ذلك إلى مقره...

توفي سنة ١٠٥٤ هـ. في مدينة أحمد نكر ودفن فيها.

عطية ابن معين الدين (٣٥)

ولد سنة ١٠٢٧ هـ. في مدينة أحمد نكر، وتسلَّم شؤون الإمامة بعد وفاة والده مباشرة في «بدخشان» وما يتبعها كانوا يطلقون عليه لقب «خداي بخش» ومعناها باللغة الفارسية «عطية الله».

تذكر المصادر الإسماعيلية بأن هذا الإمام ترك بلاد الهند لأسباب لم تتوضح بعد وانتقل إلى «بدخشان» حيث أقام فيها مستتراً، وبعيداً عن الأنظار.

وتذكر المصادر: بأنه كان على جانب كبير من المعرفة بالفلسفة والعلوم الدينيَّة، وقد ترك عدداً من المؤلفات باللغة الفارسية، ويحتفظ حتى الآن علماء الإسماعيلية في بدخشان ببعض الكتب من مؤلفات الأئمة.

مات في بلدة «بدخشان» بأفغانستان ودفن فيها سنة ١٠٦٧ هـ.

عزيز ابن عطية (٣٦)

ولد سنة ١٠٤٧ هـ. في بدخشان، وتولَّى شؤون الإمامة بعد وفاة والده، كان يلقب «الخداوند عزيز شاه». له شهرة كبرى في بدخشان، وفي قلاع الدعوة ببلاد الشام. والمصادر التاريخية تذكر بأنه عاد من «بدخشان» مع أسرته، واستقرَّ في أورنك أباد، ولكنه كان كثير التنقل بين فارس، وبلاد الشام، وبامير، وبغداد، وبدخشان بحيث لم يكن يستقرْ في مكان حتى يغادره، وكل ذلك في سبيل تنظيم الدعوة والسهر عليها، ومن المشهور عنه أنه خصَّ قلاع الدعوة في بلاد الشام بزيارات عديدة، كما أقام فيها مدة طويلة، والإسماعيليون في بلاد الشام يحتفظون بعدد من رسائله وأوامره الإمامية... وتشيد بعض المصادر بكتابه المسمَّى «مذكرات الخداوند عزيز شاه» وفي هذا الكتاب تاريخ الأسرة المؤمنية، ومن الجائز أن يكون لهذا الإمام مؤلفات أخرى، ولكن حتى الآن لم يعثر عليها. توفي في مدينة أورنك أباد سنة ١١٠٣ هـ.

معين الدين الثاني ابن عزيز شاه (٣٧)

ولد سنة ١٠٨٧ هـ. في بلدة أورنك أباد. لقبه: المنصور بالله.. عمل في

الأمور السياسية، وتولَّى مناصب عليا في دولة حيدر آباد الهندية، كما اهتمَّ بمصالح الدولة الفارسية، وكان يحظى بعطف ملوك فارس، ومن الملاحظ أنه لم يتوان عن القيام بإحداث المشاريع الخيرية كالمدارس، والمصحات، والمساجد، والتكايا، ومن جهة ثانية كان على اتصال مستمر بإسماعيلية قلاع الدعوة في بلاد الشام يوليها عطفه وعنايته، وهم لا يزالون يحتفظون ببعض وصاياه، وأوامره الإمامية.

مات في بلدة أورنك أباد سنة ١١٢٧ هـ.

محمد ابن معين الدين (٣٨)

ولد سنة ١١١٣ هـ. في مدينة أورنك أباد. كان يعرف في الهند، وبلاد فارس «بالأمير المشرَّف»، وبالنسبة لقلاع الدعوة في بلاد الشام وإسماعيليتها فإنهم انقطعوا عن الاتصال به حيث اضطرته ظروف استثنائية إلى الاستتار عن العيون، وكانت هناك «فترة» كما يسميها الإسماعيليون وقعت خلالها اضطرابات، وانقسامات في قلاع الدعوة ببلاد الشام أخذت أبعاداً خطيرة.

في آخر أيامه عاد إلى الاتصال من جديد بإسماعيلية بلاد الشام، ورجعت المياه إلى مجاريها.

تذكر المصادر التاريخية:

أن الدعوة ازدهرت في آخر عهده ازدهاراً عظيماً، وانتظمت انتظاماً لم يسبق أن جرى مثله، وخاصة في الشؤون العلمية والأدبية. وقد وضع أحد الدعاة الكبار في ذلك العهد كتاباً باللغة الفارسية سمَّاه «لمعات الطاهرين»، وذكر أنه كتاب فلسفي وفيه تأييد للكثير من الآراء والتعاليم الصوفية العميقة، وكان الإمام المشرَّف قد أملاه على الداعي المذكور.

كان للأمير المشرَّف شقيق اسمه «الأمير لطف الله» وقد هاجر من مقاطعة حيدر آباد في الهند إلى بلدة «جنكلبي»، ثم انتقل إلى «ميسور» ثم إلى «منكرور» ثم إلى«إيرور» وأخيراً إلى «أركات» وتقع هذه البلدان في مقاطعة مدراس جنوبي غربي الهند، وهذا الأمير اتصل به بعض الدعاة الذين سافروا من قلاع الدعوة في بلاد الشام للاتصال بالإمام المشرَّف. ومن جهة ثانية كان له ولد آخر يسمَّى «الأمير علي» وهو غير ولي العهد «حيدر».

مات الأمير المشرَّف سنة ١١٧٨ هـ. في أورنك أباد ودفن فيها.

حيدر ابن محمد (٣٩)

ولد سنة ١١٥٨ هـ. في مدينة أورنك أباد. وجَّه اهتمامه للشؤون السياسية الهندية العامة، وأسندت إليه وظيفة عليا في السلك الدبلوماسي في مملكة دكن.

بالرغم من كل هذا فإن اهتماماته بالشؤون السياسية، لم تقف بوجه تفرغه في أوقات خاصة لشؤون أتباعه في كافة الجهات.

ازدهرت الدعوة في عهده ازدهاراً قوياً، وأقبل الناس من كافة الجهات على الانتساب إليها، وخاصة في بلاد أفغانستان وبامير وإيران.

أنجب الإمام حيدر ثلاثة أولاد هم «محمد» وهو أكبرهم وصاحب النص الإمامي بولاية العهد، ثم «المظفَّر» و «حسام الدين».

لم ينقطع عن الاتصال بأتباعه في قلاع الدعوة ببلاد الشام، وكانت الوفود تقوم من هذه القلاع بزيارة الهند للتشرف بلقائه من حين لآخر.

ذكر أنه وضع عدداً من الكتب الأدبية، إذ أن اهتماماته كانت متجهة نحو الأدب.

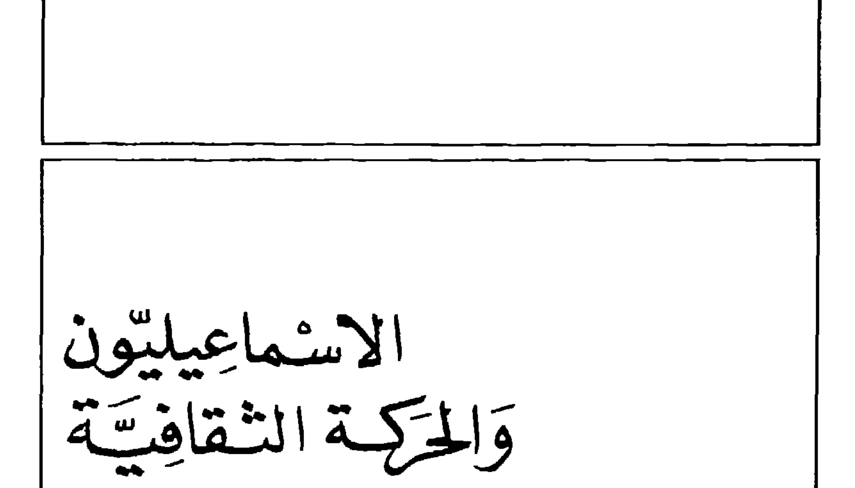
توفي سنة ١٢٠١ هـ. في مدينة أورنك أباد.. ثم نقل جثمانه إلى مدينة «أحمد نكر» بناءً على وصيته.

محمد بن حيدر أو الأمير محمد الباقر (٤٠)

ولد في أورنك أباد سنة ١١٧٩ هـ.. عرف في قلاع الدعوة الإسماعيلية بديار الشام «بالأمير محمد الباقر».

هو آخر إمام من أسرة مؤمن شاه عرفه إسماعيليو بلاد الشام، هذا وبينما رفض بعض اسماعيليي مصياف والقدموس وقسم من سلمية وتوابعها الاعتراف. أو مبايعة أي إمام بعده لا يكون متحدراً من شجرة مؤمن شاه..

فإن الأكثرية الساحقة من الإسماعيليين في سوريا يؤمنون بالقاسم شاهيه ويدينون بالولاء إلى الآغا خان الحالي الأمير كريم آغا خان ويعتبرونه الوريث الرسمي لإمامة جده سلطان محمد شاه الذي توفي في ١١ تموز ١٩٥٧.


الاسماعيليّون
والحركة الثقافيّة

الأدب الاسماعيلي عبر العصور

غير خافٍ على كل مؤرخ وباحث ومتتبع للتاريخ وللآداب الإسماعيلية، أن هذا النظام الفكري النشيط الذي لعب دوراً مهمّاً في تاريخ الشرق الأوسط، وفي حياة الأمة الإسلامية السياسية والفكرية والدينية، قد بدأنشاطه، وانطلق من بلاد الشام ليغزو الأفكار.. فكانت بلدة «سلمية» القاعدة التي انبثق منها الشعاع الأول، ثم برز في المجال حاملاً معه نفحات المعرفة، ومهمة تنوير العقول، وإخراجها من عالم الجمود إلى التحرر، والانطلاق، والحرية،بالقول والعمل، أيضاً انتقل النشاط الفكري الآنف الذكر إلى بلدان المشرق والمغرب، وقد قام بنقله، وتولّى التعبير عنه ورعايته علماء أفذاذ كان لهم الأثر البارز في عالم الفكر، بما خلفوه من مؤلفات قيمة تمثل الفلسفة، والأدب، والعلوم أصدق تمثيل، وهكذا بالنسبة لليمن والمغرب، فإن النشاط المذكور وصل إليهما، وفي فترة وجيزة تمكن من تحقيق أهم الانتصارات.

كانت الحياة السياسية في العالم الإسلامي وخاصة في القرن الرابع للهجرة مضطربة أشد الاضطراب، وبعيدة عن كل ما يسمًى هدوءاً، واستقراراً، واطمئناناً. فالخلافة الإسلامية كما هو واضح كانت موضع أخذ ورد تتنازعها دولتان كبيرتان هما الدولة «العباسيَّة» في بغداد والدولة «الفاطمية» في القاهرة.

ومن الثابت أن كلتا الدولتين كانتا تحشدان القوى وتعدان العدة الواحدة ضد الأخرى لاستلام الخلافة... ولم يحل هذا النزاع دون قيام دول إسلامية أخرى أو «دويلات» صغيرة متفرقة الأهداف والغايات كانت

من جهتها أيضاً تتنازع على الحكم والجاه والنفوذ... فتارة تميل إلى المشرق، وأخرى تتحول إلى المغرب، والهدف الأول من كل هذا هو كسب التأييد والرغبة بالبقاء، والاستمرار بالحكم.

وقد كان مركز الخليفة العباسي في بغداد في تلك الفترة حرجاً وخاصةً بعد أن أصبح هذا الخليفة يلتمس من صغار الملوك حمايته، ورد الأذى عنه، وتثبيته في خلافته «كالبويهيين» أو «السلجوقيين» أو غيرهم... وإننا نرى أن الدولة «الصَّفارية» كانت تخطط للاعتداء عليه، بينما تبادر الدولة «السامانية» لحمايته.

وتأتي الدولة الفاطمية فتبعث دعاتها إلى «السامانيين» و «الغزنويين» و «البويهيين». وتدل الوقائع أن دعاة الفاطميين أثروا في قلب الدولة العباسية تأثيراً بالغاً. وحققوا انتصارات عظيمة، بينما عجز العباسيون عن تحقيق أي انتصار، والتاريخ ينوه بالانتصارات الفاطمية حينما انضمَّ إليها أمير الري «أحمد بن علي» و «حسين بن علي المروزي» الذي رغب إلى الداعي «النسفي أو النخشبي» أن يسافر إلى ما وراء النهر للعمل على استمالة «نصر بن أحمد الساماني». وبالفعل فقد نفَّذ النخشبي الطلب، وتمكن من استقطاب نصر وإدخاله في الدعوة الإسماعيلية، وعندئذٍ بادر إلى دفع دية أحد الدعاة الإسماعيليين للإمام «القائم بأمر الله» الذي كان يجلس على كرسي الخلافة والإمامة الفاطمية في شمال أفريقيا، وكان نصر قد قتله قبل أن يستجيب للدعوة الإسماعيلية، وقدر المبلغ بمئة وخمسين ألف دينار.

فهناك الانقسام الخطير في الدولة العباسية بين الخليفة العباسي السادس والعشرين، والقائد العام للجيوش العباسية «أبو الحارث ارسلان البساسيري» الملقب «بالمظفَّر» والذي عاش في كنف أمراء «بني بويه» الزيديين الشيعة، ممَّا اضطرَّ الخليفة المذكور إلى الاستنجاد بالقائد السلجوقي التركي الأصل «طغرل بك»، وفي هذه الأثناء يفد داعي الدعاة للدولة الفاطمية «المؤيد في الدين ـ هبة الله الشيرازي» إلى العراق فيتصل بالبساسيري، ويشجعه على الثورة، وبالفعل فقد وضع تحت تصرفه كافة الإمكانيات المادية والمعنوية التي مكنته من الانتصار ودخول بغداد، وتسلّم الملك، ولم ينسَ

المؤيد إغراء القبائل العربية المجاورة وتشجيعها على شق عصا الطاعة، والثورة على نظام الحكم العباسي القائم، والانضمام، إلى جيوش البساسيري التي دخلت بغداد والموصل، والكوفة، وأعلنت الخطبة باسم الإمام الفاطمي الخليفة المستنصر بالله، ولقد ذهب خليفة بغداد إلى مكان ما، بعد أن وقع صك التنازل، وانتزعت عمامته وشرفة من قصره «وكرسي الخلافة والإمامة» وبردة النبي محمد (ص) التي كان يحتفظ بها، وأرسلت جميعها إلى القاهرة إشعاراً بتحقيق الانتصار.

وفي هذه الفترة يستولي «ثمال بن صالح بن مرداس» تاج الأمراء على حلب ويباشر حرباً شعواء مع «منيع بن شبيب النميري» صاحب «حرَّان» وذلك بشأن «الرقة». أمَّا البيزنطيون والسلجوقيون فقد وقعوا معاهدة صداقة وتحالف تقضي بغزو أملاك الدولة الفاطمية في الشام وأعالي الجزيرة. ثم ما لبث أن دب الإنقسام في جيوش البساسيري فانقسمت إلى شيع وأحزاب وأخذت الأحقاد الطائفية والعنصرية تذر قرنها معلنة بدء الفتنة العمياء، ممَّا مهَّد «لطغرل بك» الانتصار على «البساسيري» وإجباره على الهرب والاعتصام في الكوفة حيث قتل.

بينما هذا يجري في بغداد، وبلاد الشام، كان الاضطراب، والفوضى والفساد ينذر القاهرة مهدداً إياها بأوخم العواقب، فتضطرب شؤون الوزارة، ويتعاقب الوزراء واحداً بعد واحد، فمنهم من يمكث شهوراً، ومنهم من كانت مدة وزراته أياماً، ومنهم من يمكث يوماً واحداً، إلى أن استدعى الخليفة الفاطمي «المستنصر بالله» «بدراً الجمالي» وكان حاكماً عسكرياً في «عكا» ففوَّض إليه جميع الأمور، وفي الوقت نفسه كانت أمصار الفاطميين في أفريقيا تمتنع عن تأدية ما عليها من ضرائب، وتعلن استقلالها لتعود إلى طاعة العباسيين، وتحركت قبائل «بني هلال وسليم» العربية النجدية الأصل من مصر العليا نحو المغرب لتعيث فساداً في طرابلس مدة طويلة، ويغشى (النورماندیون) «صقلية» وكانت من أملاك الفاطميين.

كانت الأوضاع العامة في الشام في شبه فوضى، والولاة والوزراء لا يكاد أحدهم يستقر فيها حتى يخرج معزولاً أو مذعوراً، والأمور

تزداد سوءاً، وأهل البلاد أحزاب يثورون بالقواد والولاة، وفي هذه الفترة أيضاً تم استيلاء «معلّى ين حيدرة الكتامي» على دمشق، فاضطر للهرب بعد أيام من دخوله بسبب الفتنة التي وقعت بين عسكر المدينة وبنيه، ثم انقطعت خطبة الفاطميين نهائياً من الشام كما تم فتح القدس من قبل «أتسذ بن أوق الخوارزمي» وهو أحد أمراء السلجوقيين، وبدأ الصليبيون زحفهم باتجاه القدس، وتمكنوا من فتح معرة النعمان وأنطاكية.

في خضم هذه الأحداث، الزاخرة بالقلق الفكري نشأ الشاعر الكبير والرحالة العبقري والداعي الكبير «ناصر خسرو» ومن هذه الأحداث الخطيرة استمد خطوط حياته، وقام برحلته الكبرى المشهورة التي تحدثت بها الركبان، واستقرّ ثلاث سنوات على مقربة من «الإمام الفاطمي» وهذه كانت أمنيته الغالية التي طالما منّى نفسه بها.

وبمناسبة الكلام على الرحلات العربية والرحّالين فإن أهمها رحلة «ابن فضلان» رسول الخليفة «المقتدر بالله» العباسي إلى «بلغاريا» القديمة، وهذه الرحلة تمّت في القرن الثالث للهجرة، وقد نقلها «ياقوت الحموي» وجاء على ذكرها في معجم البلدان، ومن الرحلات المشهورة رحلة «ابن جبير» في القرن السادس الهجري، ورحلة «أبي الحسن الهروي الموصلي» في القرن السادس نفسه، ورحلة «البلّوي» المغربي، ورحلة «ابن بطوطة» في القرن الثامن أمّا رحلة «ناصر خسرو» فوقعت بين سنة ٤٣٧ و سنة ٤٤٤ هـ. فهي قبل رحلة ابن جبير بمائة عام، وقد سجلت في «مرو»، وفي «خراسان» ثم «بأذربيجان» و «أرمينيا» و «بلاد الشام» و «فلسطين» و «مصر و «الحجاز» و «نجد» و جنوبي العراق، وخاصة الخليج العربي ومناطق «القرامطة».

ناصر خسرو هو الحكيم «أبو المعين ناصر بن خسرو بن الحارث القباذياني المروزي البلخي البدخشاني»... نشأ في أسرة متوسطة الحال لا هي بالغنية ولا هي بالفقيرة، وتثقّف ثقافة واحدة، ثم التحق بخدمة السلطانين الغزنويين «محمود» ثم ابنه «مسعود»، وبعد أن أفلح السلاجقة بالقضاء على الدويلات الشرقية والإمارات الصغيرة، وأصبح الأمر لهم التحق بخدمة «جغري بك السلجوقي» حاكم

خراسان وتولّى أمر خزانتة في «مرو» وفي تلك الفترة كان يدأب على قراءة «آراء» الفارابي و «ابن سينا» ويشتغل بدرس العلوم النقلية والعلوم العقلية والبحث في الأديان والعقائد والاطلاع على الأدب وشعر الشعراء العرب والفرس، ويأخذ من كل فن طرفاً حتى بلغ درجة عليا في العلم والحكمة والمعرفة.

ولد سنة ٣٩٤ هـ. في قباديان، وتوفي صبيحة يوم الجمعة في الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ ببلدة «يمكان» من مواضع «بدخشان» وكان قد نزح إلى هذه البلدة فراراً من أمراء السلاجقة الذين ناهضوه وطلبوه، بعد أن وشى به أعداءه حسداً.

عاش طيلة حياته تحت ستار «التقية» وقد لاقى من التشريد والفرار في الجبال ما لا يمكن وصفه. ومن المشهور أن أخاه أبا سعيد رثاه بالأبيات التالية:

طويت بلاد الله عُلِّمت حكمة	وصيِّرت بين الناس قرماً مُمجَّدا
وقد قفت بيلاغوس بأسوأ حاله	وألزمتَ أفلاطوس لهفاً مسددا
تحليت بالتقوى وما يعترى بها	ورقّيت معراج السلاطين بالندى
وجاهدتَ خمساً وعشرين ليلة	وسافرتَ بالأبطاح كالطير تُعتدى
ملأتَ الدنا بالمدح والذم شاهداً	وصادفت مأمول البرية سرمدا
فأسكنت غور الغار غير مغائر	سوى رحمة الله الكريم وقد بدا
فعاقبة الدنيا خسار وذلةً	وفرقة أحباب إذا ما تأبَّدا
سقاك إلّه الناس سقياً مرويّاً	وألبسك الغفران يا ناصر الهدى

لناصر خسرو من المؤلفات:

الديوان، ويبلغ ثلاثين ألف بيت، ولكنه أصبح الآن اثني عشر ألف بيت، وقد حققه نصر الله التقوي «طهران» سنة ١٩٢٩ م وطبعه على الحجر في تبريز سنة ١٢٨٠ هـ.

«سفرنامه» وهو كتاب رحلاته، وقد ترجمه المستشرق «شيفر» باريس سنة ١٨٨١ م وقد طبع الكتاب أيضاً سنة ١٣٠٤ هـ. وترجمه إلى العربية الدكتور يحيى الخشّاب سنة ١٩٤٥ م.

«وجه الدين» طبع في برلين سنة ١٩٢٤ م. منشورات كافياني.

«زاد المسافرين» حققه بذل الرحمن وطبع في كافياني سنة ١٩٢٢ م.

«خوان الإخوان» حققه الدكتور يحيى الخشّاب وطبع سنة ١٩٤٠ هـ بالقاهرة.

«روشنائي نامه» أو «رسالة الضوء» نشره «اتيه» وترجمه إلى الألمانية وعلّق عليه في مجلة المستشرقين الألمان سنة ١٨٧٩ «شيش فصل» حققه وترجمه إلى الانكليزية «إيڤانوف» ونشرته الجمعية الثقافية الإسماعيلية ـ بومباي ـ الهند سنة ١٩٤٩ م.

«كشايش ورهايش» تحقيق سعيد نفيسى» ليدن سنة ١٩٥٠ م. من منشورات الجمعية الثقافية الإسماعيلية ـ بومباي ـ الهند.

«جامع الحكمتين» حققه «هنري كوربان» و «محمد معين» نشره المعهد الإفرنسي للدراسات الإيرانية في طهران سنة ١٩٥٣ م.

«سعادت نامه» أو كتاب السعادة نشره «فانيان» في الجزء الرابع والثلاثين من مجلة «المستشرقين الألمان».

«بستان العقول»، المفتاح والمصباح، دليل المتحيرين، لسان العالم، اختيار الإمام، واختيار الإيمان، وهي مفقودة. وما أظرفه حين يقول عن نفسه:

ولا تنظر إلى جسدي الضعيف الواهن
وانظر إلى أقوالي ذات الرواء
فلي آثار كثيرة يزيد عددها على نجوم السماء

وكان يقول:

فلم يبق نوع من العلوم
إلّا استفدت منه قليلاً وكثيراً

ومن منتجات شعره:

«العلوي والسفلي»

رأيت في الفلاة رجلاً مزّقت جسده الذئاب
فنهش النسر لحمه، وطعم منه الغراب
وتبرّز النسر، فتبرّز في قنن الجبال والقفار
وتبرّز الغراب، فتبرّز في قاع الينابيع والآبار

«موعظة المزبلة»

خرج ناصر خسرو ليتنزه في يوم من الأيام

مثقــل الــرأس ولكــن بــغــير الكــأس والمــدام
فمــرَّ بمــزبلــةٍ إلى جــوارهـــا جملــة من القبــور
فنــادته المــزبلة وقــالت له: لا تنظــر إليَّ في فتور

وتأمل حال الدنيا، وما اعدَّت من نعم لضحاياها المساكين
فقد اشتمل جوفي على نعمها، واشتملت القبور على الآكلين الجاهلين

«بلِّغني يا ريح...»

يا رياح الصبا... تحملي مني إلى خراسان السلام
إلى أهل الفضل والعقل منها، لا إلى العوام والطغام
كمــا حملــت أخبــاري الصحيحــة إليــهــم
احمـــلي إليَّ ثــانيــة أخبــارهم، وحــدثيني بينهم
وقولي لهم: إن الدنيــا قد أحنت عــودي المستقيم
وحطمتني بمكــرهـــا المعــروف وغــدرهـــا المقيــم
فحذار أن تدع عهودها توقعك في الغــرور والآثام
فإنها لا ترعى لأحدٍ عهداً، ولا تعرف الوفاء والدوام

«كشجرة طيِّبةٍ»

فكـــري شجـــرة مـــورقـــة طيبـــة الثمـــرات
أوراقـهـــا العفـــة وثمـــارهـــا الـعـــلـــم والطيِّبـــات
وإذا شئت أن تعرف حالي على الحقيقة وفي جلاء
فـــانظر إليَّ بعـــين البصيـــرة، كمـــا يفعـــل العقـــلاء
ولا تنظر إلى جسدي الضعيف الواهن، وانظر إلى أقوالي ذات الرواء
فلي آثار كثيرة يزيــد عددهــا على نجــوم السماء
وشكــراً لله.. إنه هــداني إلى طريق العلم والدين
وفتــح لي على مصــاريعه أبــواب الرحمــة واليقين
وجــعلني أشــهــر مــن الشمس في أوج السمـــاء
لأني عرفت بحبي «لآل الرسول» والأئمة الأصفياء

«دليلان»

وأنت أيها الجسد الجاهل... ليس لك عمل إلَّا النوم والطعام
ولكن العقــل لديَّ خــير من الأكــل الطيب وطــول المنــام

وفي رأي العقلاء أن لا عمل للحمير.. إلَّا النوم والغـذاء
ومن العار أن يكون حالي كالحمار مع ما لي من عقل وذكاء
وأنت يا جـسـدي.. سوف لا أقيم معك في هذه الدنيا الفانية
لأن الله يدعوني إلى داره الثانية.
حيث المجد بالأعمال والفضائل.. لا بالنوم والأكل
فليكفك النوم والأكل، وليكفني الفضل والعقـل
وقد ذهب قبلي مـا لا يعد من النـاس والأنام
ومهما طال بقائي فاعتبرني ممن أودت به الأيام
وسأطير بجناح الطاعة ذات يوم، فأخرج من هذه القبة العالية
وكـأنني طائـر يضرب بجنـاحيه في أطبـاق الهواء الخـالية
وجميع الناس يحذرون ضربات القضاء والقدر
ومع ذلك فهما دليلا طريقي في هذا السفـر
و «القضاء» اسمه «العقل» و «القدر» اسمه «الكلام»
وقد أصبح عقلي ونفسي أفصح من يحدثني الآن بأمري
فلِمَ الحذر والخوف من نفسي، وما يجيش به صدري
ويـا من قنعت من القضاء والقـدر بالاسم والكـلام
إذا ظننت نفسـك دابة، فـلا تظن أني من الأنعـام

عمر الخيام لم يكن «عمر الخيَّام» بنظري ذلك الشاعر «الأبيقوري» الذي وهب حياته للذات، وتسكع على أبواب الحانات، وأكثر من ترديد اسم الخمرة والكأس والعود والندمان، كما أنه لم يكن كما وصفوه زنديقاً خارجاً على السنن والشرائع، وملحداً كافراً بـالأديان ورسـالات الأنبياء، بل كان حكيماً من حكماء العالم الإسلامي، وفيلسوفـاً متعمقاً (درس العلوم في مدرسة فكرية كان لها الفضل في تخريج عباقرة العلم وأساطين الفلسفة ممن لا تزال آثارهم تنبىء بفضلهم على الإنسانية)، وأنه لمن المؤسف حقاً أن تغمط تلك العبقرية الفذة التي سبقت عصرها بقرون، وأن تدرس دراسة سطحية عابرة من خلال «رباعيـات» لعبت بها أيـدي النساخ والمتـرجمين فجـاءت مضطربة متباينة يظهر الخيَّام من خلالها وكـأنه مجمـوعة آراء متناقضة لا ارتباط بينها ولا انسجام، وهذا ما أوجد نوعاً من الارتباك ووقف حائلاً أمام تكوين فكرة صحيحة عنه، وقد يكون من

العسير جداً إيراد الشواهد الكثيرة في الصفحات القليلة، بالرغم من أن الرباعيات طبعت وترجمت أكثر من ثمانمائة مرة، حتى أن عدد النسخ المنتشرة منها في كثير من لغات العالم.

تعريفه:هو: «أبو حفص عمر بن إبراهيم الخيَّام»، ولعلّ كلمة الخيَّام تدل على أنه كان في أجداده من يحترف هذه الصناعة الناجحة التي كان أصحابها في ذلك العصر يعتبرون من الأثرياء، ومن أعلى طبقة في المجتمع بحيث كانت ثرواتهم تمهد لهم السبيل لتثقيف أبنائهم وإرسالهم إلى المدارس الكبرى للتخصص بالعلوم العقلية والفلسفة والأدب، والمنطق.

ويعتبر القرن الرابع للهجرة من أزهى العصور بالنسبة للعالم الإسلامي، فقد فتحت فيه صفحات مشرقة بالنشاط الفكري، والتعبير عن الحياة العقلية الإسلامية وذلك بفضل جهود علماء وفلاسفة عالميين لعبوا دوراً مهماً على مسرح الحياة الفكرية، وسجلوا في تاريخ الفكر الإنساني أقدم الروائع والبحوث بحيث لا تزال الأمم الأخرى تستقي منها ما ينير الطريق، ويهدي السبيل حتى يومنا هذا.

وعند ذكر هؤلاء العباقرة يتبادر إلى ذهننا الغزّالي، والكرماني، والسجستاني، والرازيان (أبو بكر) و (أبو حاتم)، والفارابي، وابن سينا، وجميعهم من أصحاب العلم، والفلسفة، والمنطق (الذين نهلوا من ينابيع المدرسة اليونانية الفلسفية، والمشائية، وما خلفه أرسطو، وأفلاطون، وأفلوطين، وفيثاغوريوس، وحكماء الإسكندرية...) واستخدموها في التعبير عن تعاليمهم الدينية والخيَّام الذي رافق نهضة ذلك العصر اعتبر في عداد من ذكرناهم يدلنا على ذلك ما جاء في إحدى رسائله عندما تعرّض لذكر ابن سينا فقال:

«معلمي أفضل المتأخرين الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري أعلى الله درجته».

وهذا البيان يظهر لنا الخيَّام وكأنه تتلمذ على ابن سينا، وأعجب به، واتفق معه بالأفكار، واستمَّد منه الآراء.

للخيَّام مؤلفات عديدة ضاع أكثرها، ولم يعثر له حتى الآن إلاّ على أربعة عشر كتاباً ورسالة في الحكمة والعلوم العقلية والرياضية

والطبيعية، وعندما نعلم أن الخيَّام عمَّر مائة عام ونيف ندخل في حسابنا أن هذا العدد من الكتب قليل بالنسبة لعمره المديد. فأين ضاعت إذن هذه الثروة الفكرية النادرة، وما هو القصد من ضياعها وكيف؟

أمَّا كتبه المعروفة فأهمها:

كتاب «الجبر والمقابلة» وقد شرح فيه طرق حل مسائل من الدرجة الثانية بواسطة الجبر والهندسة والمقابلة، وأوضح فيه ثلاث عشرة مسألة من المعادلات، وله كتاب في العلوم الطبيعية عن الذهب والفضة، وقد عين فيه مقدار الذهب والفضة المتخذان من الجواهر، وله رسالة عن اختلاف الجو في المناطق المختلفة وقد سمَّاها «لوازم الأمكنة»، ورسالة في بيان مصادرات «اقليدس»، ورسالة في الوجود، ورسالة في الكون والتكليف، وأخرى في المسائل الحسابية المشكّكة، وإذا علمنا أنه في سنة ٤٩٩ هـ. اختير مع الفلكيين، المشهورين «أبو مظفَّر الإسفرازي» و «ميمون الواسطي» لإصلاح التقويم المعروف بالجلالي نسبة إلى «جلال الدين ملكشاه السلجوقي» أدركنا تضلعه في علم الفلك بالإضافة إلى العلوم الأخرى.

إنني في هذه الصفحات لا أنفي وجود رباعيات الخيَّام، ولكني أؤكد كما ذكرت بأن أيدي النسَّاخ والمترجمين قد عبثت بها وغيَّرت وبدلت وأضافت وحرّفت فيها ومنها، ممَّا لا يصح معه والحالة على ما ذكر إعطاء فكرة صحيحة عن الخيَّام من خلالها، وما دام الخيَّام نفسه قد اعترف بأنه من تلاميذ ابن سينا، ومن السائرين على نهجه، وتبني أفكاره، فلا ضيرَ عليه.

ويجب أن لا يسهى عن البال بأن من يدرس الرباعيات دراسة موضوعية يرى فيها أفكاراً للخيام تسمو به وتدنيه من مراتب العارفين... وفي هذه المناجاة يتجلَّ ذلك:

إلهي ومجري كل حيّ وميت   ورب السما ذات النجوم الطوالع
لئن كنت ذا سوءٍ فإنك خالقي   وماهو ذنبي إن تكن أنت صانعي؟

وما أروعه حين يكشف عن نفسه، ويشكو عجزه عن جلاء أسرار المبدأ والمعاد، وهو السر الإلهي المغلق أو الغيب الذي لم يطلع عليه أحد:

حلَّ فكري في الكون كل معمى   من حضيض الثرى لأوج النجوم

قد تبينت كل فكرٍ وسّر فيه إلاَّ سرَّ الردى المحتوم

أما خمرة الخيَّام... فإني أجلها عن خمرة الحانات التي تذهب بالعقل والحجى... إنها بنظري الخمرة التي تسكر الروح، وتنير طريق المعرفة، وتوصل إلى السعادة السرمدية، وخاصة حين يتعاطاها مع ندمان صفَت نفوسهم، وتجردوا عن الشهوات... إنهم خلاَّن الوفاء كما يسميهم.

أرى كل خلاَّن الوفاء تفرقوا فبين صريع للردى وقتيل
شربنا شراباً واحداً غير أنهم بنه ثملوا من قبلنا بقليل

قضى الخيَّام قسماً من حياته في «بلخ» ثم انتقل إلى «مرو» حيث عمل في بلاط الملك سنجر السلجوقي، ومنها ذهب إلى «اصبهان» حيث التحق ببلاط الملك ملكشاه أيضاً، وفي هذا الدليل على أنه كان نديماً للملوك وسياسياً بارعاً تتهافت الملوك على التزود من نصائحه وآرائه وفي آخر أيامه عاد إلى مسقط رأسه «نيسابور» حيث ظلَّ فيها إلى أن أدركته الوفاة. وتذكر بعض المصادر التاريخية أن المؤرخ «البيهقي» زاره فيها سنة ٥٠٧ هـ. كما التقى به في «بلخ» المؤلف العالم «نظامي العروضي» وذلك سنة ٥٠٦ هـ.

وأيدت المصادر التاريخية أيضاً أن الغزَّالي قد عقد معه عدة اجتماعات، ولمَّا لم يستطع زعزعته عن عقيدته تركه ومضى في سبيله، هكذا روى المؤرخ «الشهرزوري» في كتابه «نزهة الأرواح». وذكر «القفطي» في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»: بأن فلسفة الخيَّام قد نقلها بعض أقطاب الصوفية، وهم يتحاضرون بها في خلواتهم، وأمَّا المتصوف «نجم الدين الرازي» فقد أشار إليه في كتابه «مرصاد العباد» بأنه فيلسوف دهري طبيعي، وهكذا فإنه نفى عنه نسبة الصوفية التي خلعها عليه البعض.

هذا غيض من فيض عن الخيَّام ورباعياته ومؤلفاته.. ذكرناها في هذه الموسوعة اعترافاً بهذا الشاعر الكبير والفيلسوف العميق.

«جلال الدين الرومي»

ولد جلال الدين الرومي في بلدة «بلخ» الفارسية سنة ٦٠٤ هـ، ويضيف أتباعه والمعجبون بأدبه وفلسفته كلمة «مولانا» إلى اسمه

إجلالاً وتعظيماً. أمَّا كلمة «رومي» فأصبحت مرادفة لاسمه على اعتبار أنه قضى بقية حياته في مدينة «قونية» وهي من بلاد الروم في آسيا الصغرى.

عاش جلال الدين الرومي منذ صغره حياة طافحة بالقلق والآلام والتشرد. فأسرته تعرضت إلى الاضطهاد من قبل «علاء الدين محمد خوارزمشاه» لأسباب قد يكون وراءها معارضتها لهذا الحاكم الجائر وأساليب حكمه، وهذا ما جعل والده يغادر «بلخ» إلى «نيسابور» مصطحباً ابنه جلال الدين، فأقاما فيها مدة ثم انتقلا إلى بغداد، ومنها إلى مكة وملطية حيث أمضيا فيها أربع سنوات، ثم غادراها بعد ذلك إلى بلدة «لارنده» التي تعرف اليوم باسم «قرمان» فأقاما فيها سبع سنوات.
وفي سنة ٦٢٨ هـ. مات والده. فحزن عليه حزناً بالغاً، وقرَّر الهجرة إلى حلب، ومنها ذهب إلى دمشق طلباً للعلم، وسعياً وراء التزود منه، وبعد إقامة طويلة في دمشق سافر إلى «قونية» متخفّياً، لأن حكام دمشق سعوا في طلبه، وذلك لوشايات مغرضة قدمها بحقه بعض الحسَّاد، وهناك التقى «شمس تبريزي» الذي كان يعيش في قونية بسرية تامة بعد فقدان أهله ودمار دولته «ألموت» الإسماعيلية، وبعد أن نفَّذ هولاكو التتري قراره بالقضاء على الأسرة الحاكمة للإسماعيلية، ومن المعلوم أن هذه الشخصية الفذة لعبت دوراً مهماً في حياة جلال الدين الرومي وأثرت في تفكيره، ونقلته إلى عالم جديد من الحب والشعر والفلسفة، وقد ظلَّ جلال الدين ملازماً هذا المعلم الغريب إلى أن أدركته الوفاة سنة ٦٧٢ هـ.

شغل جلال الدين الرومي بالرياضة الروحية، ومحاربة الشهوات، وإماتة الجسد، وعمل على إيقاظ الفضائل العقلية، فشغف بالاستماع إلى الموسيقى والغناء ونظم الشعر والاستغراق والإنشاد والانقطاع إلى الذكر، والتأمل، وحرمان النفس من الملذات الفانية، ويعتبر الرومي من أشهر شيوخ التصوف والشعراء الذين انتجبتهم فارس، بل أكثرهم إنتاجاً، وأغزرهم مادة، وأعمقهم تفكيراً. فديوانه «المثنوى» وديوانه المسمَّى «كليات شمس تبريزي» اعتبرهما النقاد والأدباء من الملاحم النادرة، ويكفي أن يكون ديوانه قد جاء في ستة أجزاء وخمسة وعشرين ألفاً وسبعمائة

بيت من الشعر. وقد ظهر جلال الدين فيه قوي البيان، فياض الخيال، عميق التفكير، بارع التصوير، بعيد النظر، يوضح المعنى الواحد، ويصوره صوراً مختلفة، ويسوق المثل تلوَ المثل، وتأتيه المعاني إرسالاً، وتوآتيه الألفاظ إتياناً، ويطاوعه الشعر مزهواً مسترسلاً، وبين هذا وذاك يظل قلبه يطفح بالحب والشوق والاستغراق الطويل. فكل شيء يذكر فيه، وكل فكر يفيض إليه مرتكزاً على الفلسفة السامية، والغناء الإلّهي، والعشق الروحي، وتتجلّى قوة الرومي في المناداة بالاختيار، وحفز الناس على العمل، والسير قدماً، بل هو يرى الحياة جهاداً مستمراً ينبغي أن لا يكل المجاهد فيها ساعة. فالألم عنده وسيلة للذة، والبكاء سبباً للضحك وقد رأيناه يتساءل.. كيف يضحك المرج إذا لم يبك الربيع، وكيف ينال الطفل اللبن بغير البكاء... فالعناء أحرى، والكد أنفع.

غنّي لي يا مُنيتي لحن النشور	إبركي يا ناقتي تم السرور
إبلعي يا أرض دمعي قد كفى	إشربي يا نفس وردا قد صفا
عدتَ يا عيدي إلينا مرحبا	نعم ما روّحتِ يا ريح الصبا
صرت، إذا متّ جماداً نامياً	متّ نبتاً صرت حياً ساعيا
متّ حيوانَ إذا بي بشر	كيف أخشى الموت ماذا أحذر

هنا... يتوغل الرومي في صحارى الفلسفة الواسعة حيث يعزف في أرجائها لحن النشور، وحيث ينعم بالسرور الدائم... ونراه بعد هذا يطلب من ناقته أن تبرك بعد عثوره على أمانيه، وبعد أن قضى أياماً طويلة بالتفتيش عليها. ثم ينتقل ليخاطب الأرض، طالباً منها أن تبلع دموعه، ثم ليطلب إلى النفس أن تشرب عصير الورد... وينتهي أخيراً إلى الحديث عن مفارقة الروح للبدن، وعن انتقال الروح في القوى الأربع لتتهذب وتُصقل، ثم تعود إلى الصعود حيث بدايتها ووجودها، وحيث الراحة الأبدية، والديمومة السرمدية. وينتقل ليتحدث عن جمال الخلقة وتكوين البنية، فيضرب مثلاً الطفل الرضيع الذي يبقى مدة دون طعام، ودون أن يتمكن من النطق، لكنه يسمع النطق فيؤثر في جنانه ويقول:

لو أنه لم يؤتِ سمعاً لظلّ طوال العمر أبكم، لأن السمع دليل النطق، وعلى المتيقن أن يأتي البيوت من أبوابها، ويطلب الأغراض في أسبابها... أي على الإنسان أن يسمع ليتمكن من تمييز الأشياء والموجودات.

أنظـر الطفل رضيعـاً لم يُبِن كلُّـه في ذلـك الحـين أذُنْ
ثـم يبقـى مـدة لا ينطـقُ منصتـاً كيمـا يُـواتى المنطقُ
وإذا لم يُـرْعِ سمعـاً تمتمـا وثـوى في الناس دهـراً أبكما
والـذي قـد صمّ في خلقتـه كيف يلقَى النطق من حيلتِـه
ليس إلا السمـعَ للنطق دليـلْ فاطلب المنطق من هذا السبيلْ
وادخلـوا الأبيات من أبـوابها واطلبوا الأغراض في أسـبابها

لقد عرف جلال الدين الرومي بالرقة والسلاسة يسكبهما في شعره، وعرف بأفكاره الفلسفية، ونزعته الصوفية «المعتدلة» يضمنها الملاحم الطويلة الرائعة، وتفوق على أقرانه بـابتكاراتـه الشعريـة وصوره الجديدة ممّااعتبر فتحاً جديداً في عالم الفكر في ذلك العصر المضطرب البعيد، وعندما نذكر شعراء فارس وفلاسفتها وروّاد الأدب فيها، فيتبادر إلى الأذهان جلال الدين الرومي صاحب الغزل الروحي العميق والمناجاة الإلّهية البديعة.

يا ندامى دُميةٍ في مَرَحِ إنني أسقى دمي في القدح
اشربَنْ كأساً على ذكرى الكسير إن تردْ انصاف ذا المضنى الأسير
أو بذكرى مدنَفٍ جِلف عذاب فاسكبَنْ لي جرعة فوق التراب
أين هذا العهد أين القسم؟ ووعود من شفاهٍ تبسمُ
إنْ يكن عبدك بالبُعدِ أساء فهل الفضل قصاص وجـزاء؟

هذه المناجاة الطافحة بالرقة والعذوبة، وهذا الوصف يرسله الرومي على سجيته من قلب النشوة والطرب، يحملنا إلى عالم تمور فيه القدسية والسحر والجلال والجمال.

أنها أفكار عاطفية نابعة من فلسفة صوفية أصيلة رسم الرومي خطوطها بعناية، وضمنها الألحان الموسيقية المؤثـرة، والأناشيـد العذبة تنزل في الأعماق وتحرك المشاعر.

قَفَصٌ للـروح هـذا البـدنُ بـين غِشّ ظـاهـر أو يَبطـنُ
مِن مُنـاد: أنا خـلّ أصطفيك ومنـاد: بل أنـا نِعم الشريـكْ
ومنـاد: أنت فرد في الـوجـودْ بـين إفضال وإحسـان وَجـودْ
ومنـادٍ: لـك مـا في العـالمـين أعبُدُ أرواحنا من غـير مَـين
ذاك يـدعوه لأوقـات السـرور ذاك يـدعـوه لـعيش وحبـور

هذه الأبيات تخفي وراءها معاني عميقة ورموزاً يكمن وراءها اعتقاد

جلال الدين الرومي القائل بخلود النفس وفناء الجسد، فالجسد هو سجن الروح أو قفصها كما يصفه، وفي هذا يعطي الرومي الدليل على أنه نهل من الفلسفة التي كانت سائدة وقائمة في أوساط الفكر الإسلامي ما طاب له، ثم صاغ هذه الفلسفة بقالب شعري ينبض بالموسيقى، والغناء، والحياة الرغيدة، ويفيض بالنشوة الروحية التي لا تلبث أن تسيطر على المشاعر، وتحدث فيها عاطفة وشعوراً.

كُلَّ حين سائراتٌ من عدم	لـوجـود، أمـمُ إثـر أمـم
هـذه الأوراقُ إبـانَ الخـريف	تختفي في لجّـة الموت المُطيفْ
تنـدب الغربـان فيها صائحه	في الثياب السود مثل النائحه
فكرن يا صاح في هذا الصنيع:	دائـم فيـك خـريـف وربيـع
أنـظرن في القلب روضاً ناضرا	من ريـاحـينَ وسـرو، زاهـرا
حجَب الأغصـانَ فيضُ الورق	واختفى المـرج بـوَرْدٍ مُـونقِ
فيض عقـل الكـل هـذا الكلِمُ	ريحُ هذا الروض. هل من يفهم؟
ريـحُ وردٍ حيث لا وردَ يُـرى	فـورة الخمـر ولا خمـر تُـرى

في هذه المقاطع يقدم الرومي آراء فلسفية مدروسة ومعروفة، وقد سبقه إليها العديد من الفلاسفة الإسلاميين، ولكنهم لم يصوغوها هذه الصياغة، إلَّا أن يرخي عليه أكاليل الجمال والأغاريد العذبة التي تبشر بالعزلة والتأمل والتجرد.

إنه يستفسر ويتساءل... كيف تعبر الأمم هذا العدم بعضها وراء بعض تارةً في ظلام دامس، وتارة في ضياء... ويضيف إلى قوله:

إن الإنسان في هذه الحياة كالزهرة يمرُّ من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة وأخيراً ينتهي إلى الموت، كما تنتهي أوراق الشجر في الخريف، فعلينا أن نستمر بإدامة النظر في هذا الكون، والتمعن بأسراره، وكيفية تنقله من حال الربيع إلى حال الخريف.

الاسماعيلية والتصوف

لا بد من بعض التفسيرات بادىء ذي بدء لمعنى كلمة «صوفية» فهذه الكلمة مشتقة من الصوف... إشارة إلى التزام الصوفيين بارتداء الألبسة الصوفية البيضاء ـ التي كانت تميز مجموعة النسّاك الذين يشتغلون بالرياضيات وبالعبادات الانقطاعية الخيالية، وبالزهد في كل ما في الحياة من مباهج ومسرات.

لقد ظهرت الحركة الصوفية في العالم الإسلامي ظهوراً تميّز بالسرية المطلقة أحياناً، وبالعلنية تارة، فهذا الظهور كان يخضع في كافة المراحل إلى تقلبات السياسة، وإلى التيارات التي كانت تعصف في المشرق الإسلامي حيناً بعد حين حاملة معها أدوات التغيير، والتبديل، والتمهيد لأوضاع أخرى تقوم على أنقاضها.

ففي المشرق، وخاصة في فارس... نشأت هذه الحركة، ونَمت وترعرعت، وتخرج من مدرستها أعلام كان لهم أكبر الأثر في مجال الفكر، وفي إدخال فكرة «الفناء».

وهنا يجب علينا أن نشير بأن للصوفية مدارس، تختلف عن بعضها في المنهج والسلوك والآراء، وربما وصل اختلافها إلى حد الدخول في جدل ونقاش أديا في كثير من الأوقات إلى تكفير بعضهم البعض، والدخول في معارك فكرية لما تنتهي حتى اليوم، ولم تستطع الفرق الإسلامية الأخرى التي سارت على خطى الإسلام الصحيح كبح جماح المتحمسين من أصحاب «الشطحات» الصوفية الغريبة التي تخرج عن دائرة العقل.

لقد نشطت هذه الحركة نشاطاً منقطع النظير في أواخر العهد الفاطمي خاصة، ثم ازداد نفوذها عند زوال الدولة الفاطمية، وفي بداية عهد «الأيوبيين». ويحدث المقريزي:

أن الخليفة الفاطمي العاشر «الآمر بأحكام الله» أقام في القاهرة

مصطبة للصوفيين تحت قصره في القرافة- فكان يجلس في الطابق الأعلى المطل على المصطبة ليشاهد كيف يرقص أهل الطريقة الصوفية - والمجامر في أيديهم - والشموع الكثيرة من حولهم. وقد مدّت لهم البسط فوق الحصر، ووضع عليها الأسمطة ذات الألـوان الشهيّة من الحلويات، والفاكهة والأطعمة.

ممّا لا جدال فيه أن بعض العلماء المصريين ورجال الفكر كانوا طوال العصر الفاطمي ملتزمين بالأفكار والمبادئ الإسماعيلية وحدها، لأن الخلفاء الفاطميين كانوا يعتنقونها ويدعون إليها، ويشجعون الدولة لنشرها وتعميمها - ويرسلون الدعاة إلى الأقطار الإسلامية للتبشير بها ولمكاسرة أصحاب المذاهب والفرق الأخرى، وهؤلاء الدعاة كما عرف عنهم كانوا على جانب كبير من المعرفة والذكاء والتضلع بأنواع العلوم، يظهرون الورع والزهد والتقوى - ويقلدون الصوفيين ببعض المظاهر والتصرفات دون الاختلاف عنهم إلا بالتمسك في العبادة «العملية» التي تعرف عندهم بعلم الظاهر. أما الخاصة فكانوا يخصونهم بالعبادة «العلمية» المعروفة بعلم «الباطن» أو «التأويل» ... وهنا يلتقون على صعيد واحد في الآراء مع الصوفية بغاية استقطابهم إلى دعوتهم، والسيطرة على أفكارهم.

إننا حين نقرأ كتاب «راحة العقل» للفيلسوف الإسماعيلي «الكرماني» نرى فيه بعض الآراء التي هي من صميم التصوف كقوله:

«النفس شرفها في نيل كمـالها الثاني، الذي هو السعادة الأبدية، والفوز بالبقاء في جوار الباري عز وجل، ونيلها الكمال الثاني في شيئين:

أحدهما التهذيب من إمارات الطبيعة وظلمتها التي هي الغضب والظلم والطمع وقلة الرحمة، وغير ذلك مما هو طبيعي لها من الرذائل لتصير بخلوها من هذه الدنايا مطابقة لما يرد عليها من ذاتها عند التصور- بالصورة الإلّهية فـينجع فيها وفاء لها... وثـانيهما... الـتصور في المعالم الإلّهية التي هي الإحاطة بما سبق عليها في الوجود من أعيان: العقول الإبداعية، والانبعاثية، والأجسام العالية،

والسفلية لتصير في ذلك الحد الذي تقوم بما تصورته عقلاً كعين المتصوف لافرق بينهما من تلك الجهة... ويقول الكرماني:

وإن من يقرأ رسالتنا «الوحيدة في المعاد» ... فإنها تصور له أموراً في التقديس. فيقدس الله تعالى في خلواته، فإن اتفق له رفيق موافق وأنيس مصادق فهي النعمة الكبرى ويواظب على ما يلزمه من العبادتين العملية والعلمية أي «الباطن والظاهر»، وهكذا فإن هذه الآراء الإسماعيلية تعكس آراء الصوفية، وقد تكون تسربت إلى حرم دعوتهم حين كانت تعاني ضغوطاً سياسية كثيراً ما كانت تضطر أصحابها إلى الركون إلى «التقيّة» واعتماد المظاهر التي يتطلبها الوضع الراهن، فلا غرابة بعد ذلك إذا ما رأينا أحد كبار المستشرقين وهو «ماسينيون» يذهب إلى القول بعلاقة «الحلّاج» المتصوف «بالقرامطة» الإسماعيليين.

فلما تمَ لصلاح الدين الأيوبي الاستيلاء على مصر، واستئصال شأفة الدولة الفاطمية اهتم بالصوفيين، فأقام لهم الحمامات، والخوانق، وبنى لهم الزوايا، كما عيّن لهم الموائد اليومية، وأجرى على رؤسائهم الأرزاق والمعاشات.

من الواضح أن النصوص الإسماعيلية اعتمدت العقل أساساً لحركتها ونظامها، فالعقل عندهم هو الدليل الذي يقود إلى المعرفة، وإلى الله وهذا بعكس الصوفية التي تعتمد الرياضة الروحية... فالمتوسطة يرون:

أن الفناء وحده هو الكفيل بانتقال القدرة الإلّهية كليةً في كيانهم الذائبة في الذات الأولى، وكأني بالأيوبيين قد رأوا في فكرة الرياضة الروحية خير قاعدة للانطلاق إلى تحطيم الآثار الإسماعيلية وإلهاء الشعب المصري باعتقادات قد تكون أقرب إلى واقعه ومزاجه، وساعد على ذلك ظهور عدد من أعلام الصوفية على مسرح الفكر، وكان أبعدهم ذكراً، وأشدهم أثراً «محي الدين بن عربي» الذي دافع عن آرائه بجرأة نادرة وخاصة «وحدة الوجود» ففي كتاب «فصوص الحكم» يعطي التعبير الأسمى للعقائد الصوفية في صورتها النهائية،ويضع مصطلحاً صوفياً كاملاً استمده من القرآن الكريم والحديث، وعلم الكلام، والفلسفة المشائية، والافلاطونية ، والرواقية... ومن الجدير بالذكر أنه انتفع بمصطلحات فلسفية

إسماعيلية وردت في رسائل «إخوان الصفاء» فجاءت فلسفته مزيجاً من عدد من الآراء والفلسفات التي عرفها الفكر الإنساني قبله، وفي هذا يتفق مع الإسماعيليين وأفكارهم التي جعلوها مقبولة، ومرغوبة في مجتمعهم، وهكذا فإن «ابن عربي» أخضع آراء الذين سبقوه لمذهبه في التصوف... فهو يقول في كتابه «الفتوحات المكيّة» منادياً بوحدة الوجود: سبحان من خلق الأشياء وهو عينها... وقال:

فإن للحق في كل خلق ظهوراً... فهو الظاهر في كل مفهوم، وهو الباطن عن كل فهم إلا عن فهم من قال إن العالم صورته وهويته... وقال:

أحدية كل شيء معقولة بحيث لا يمتري فيها من له مسكة عقل، ونظر صحيح... وأنت إذا نظرت إلى هذا الوجود فلا بد أن تحكم عليه بأن له رتبة يكون عليها في الوجود، فإما أن يكون مؤثراً أو مؤثراً فيه، وإما أن لا يكون واحداً منهما، وإما أن يكون المجموع، فالمؤثر هو الفاعل والمؤثر فيه محل الانفعال، وما في الوجود إلا المجموع.

والإسماعيلية يذهبون في توحيدهم مذهباً مخالفاً لما يقوله ابن عربي... يقولون:

إن الله ليس كمثله شيء... فلا يمكن أنه «أيساً» وباطل أن يكون «ليساً» أي لا نفي ولا إثبات، فهو ليس من جنس العقول حتى تدركه العقول، ولا يمكن أن يوصف بصفة توصف به مخلوقاته. فالله عند الإسماعيلية هو «مبدع الوجود» ولكنه عند أصحاب وحدة الوجود هو عينها، والعين واحدة.

ويظهر الخلاف على أشده بين الصوفية والإسماعيلية، عندما يهمل ابن عربي منهج العقل الذي هو منهج التحليل والتركيب، ويأخذ بمنهج التصوير العاطفي والرمز والإشارة والاعتماد على أساليب الخيال في التعبير ما لا يتفق مع آراء الإسماعيلية التي تدعو إلى إعمال العقل والتفكير.

وفي نظام المراتب لدعاة الإسماعيلية جاء:

إن حجج الجزائر عندهم: إثنا عشر حجة، ولكل حجة جزيرة أربعة وعشرون داعياً مأذوناً ـ ويدخل في عدادهم الدعاة المطلقون والأجنحة ويرأسهم «داعي الدعاة» الذي يقيم مع الإمام أو على مقربة منه، إضافة إلى باب الدعوة، وهذه المرتبة الكبرى تكون عادة مستورة.

أما الصوفية فيقولون:

إنهم يعومون في عشرة أبحر هي: محمد، ابوبكر- عمر-عثمان ـ علي، جبرائيل ـ ميكائيل ـ إسرافيل ـ عزرائيل ـ والروح الأكبر، ويقسمون هذه الحدود إلى علوية وجسدانية، ويظهر اختلاف آخر بين الفريقين، وهو من الأهمية بمكان، وخاصة في ترتيب الحدود العلوية والسفلية.
فالإسماعيلية يقولون:

إن الرسول الكريم محمد (ص) أخذ عن خمسة حدود علوية، وهذه الحدود وضعت لها مصطلحاً هو: الجد ـ والفتح ـ والخيال ـ والسابق ـ والتالي، وإن الرسول عدَّ خمسة حدود هي: الأساس، الإمام، الباب، الحجة ثم الداعي.

أما الصوفية فيأخذون بمبدأ «القطب» الذي يصل إلى هذه المرتبة عبر الاجتهاد والفناء... وهذه الفكرة تناقض فكرة الإمام عند الإسماعيلية. فالإمام عندهم مثل كامل، والولي هو الحاكم بكل ما في الكلمتين من معنى، بينما القطب عند الصوفية هو المربي الذي يأخذ بيد السالك خطوة خطوة في الطريق الوعر المحدقة به الأخطار والانحرافات، وذلك لكي يوصله إلى مرتبة الكمالات الإنسانية.

وتتفق الصوفية مع الإسماعيلية بالقول «بالبنوة الروحية» فالابن الروحي أعظم منزلة من ابن الجسد عند الصوفية، ويدعم هذا الرأي إخوان الصفاء عندما يقولون:

«إن النسبة الجسدانية تنقطع إذا اضمحلَّت الأجسام ـ وتبقى النسبة النفسانية ـ لأن جواهر النفوس باقية بعد فراق الأجساد- وإن كان يظن أن الابن الجسداني يحي ذكر أبيه بعد موته، فالابن الروحاني أيضاً يحي ذكر أبيه في مجالس العلماء، كما نذكر نحن معلمينا أكثر مما نذكر آباءنا».
ومن الآراء التي تتفق فيها الإسماعيلية والصوفية «الأدوار والفترات» فالإسماعيليون يقولون:

إن الله تعالى يرسل رسولاً ليدعو الناس إلى الصراط المستقيم. ولكن تأتي بعد الرسول فترات تكثر فيها البدع والأهواء ـ فيرسل الله رسولاً آخر للهداية ـ والنبي محمد (ص) هو خاتم الرسل، ولكن الأئمة من بعده هم الذين يقومون مقامه، وهم حجج الله على عباده،

إلى أن ينقضي الدور الأكبر بظهور قائم القيامة... وحول هذا يقول محمد بن أبي جمرة، وهو من أعلام الصوفية:

لما كان العلماء والأولياء هم ورثة الرسل والأنبياء، فلا بد من حصول فترات تقع بين العالم والعالم والولي والولي، فإن اندثرت طريقة الداعي اتى بعد زمان من يجددها، ولما كان يحصل في فترات الأنبياء عبادة الأصنام من دون الله، كذلك تقع في فترات الأولياء عبادة البدع والأهواء وتبديل الأفعال بالأقوال.

وما دمنا في صدد التحدث عن الإسماعيلية والصوفيه، فلا بد من التطلع إلى ما قاله ابن خلدون في مقدمته حول هذا الموضوع:

«ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف، وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة، وملأوا صفحات الكتب.

وتبقى «السياسة» وهي أهم من كل ما ذكرناه... فالإسماعيلية عرفوا في مراحل حياتهم بأنهم كانوا يمثلون نظاماً فكرياً أممياً، أو حركة ثورية من مبادئها إقامة دولة كبرى تحقق الخير والحياة الفضلى للإنسانية، وقد عرفها «إخوان الصفاء» ووضعوا دستورها، وبشروا بها وسموها «دولة أهل الخير» ومن مبادئها أيضاً قلب الأنظمة الفاسدة السائدة، وإصلاح المجتمع وتعميم الأمن والرخاء والعدالة، بينما الصوفية لم تخرج عن كونها حركة رياضية تقوم على الزهد، والعبادة والانقطاع، والابتعاد عن كل ما يسمى سياسة أو دولة... فهذه عملت للتفريق بين العلم والدين، في حين دعت الإسماعيلية إلى التوفيق بين العلم والدين.

إن المدارس الفكرية التي كانت قائمة في بعض الجهات من العالم الإسلامي كانت تعترضها مدارس صوفية تنافسها لاستقطاب الأنصار والمؤيدين، وقد يحتدم الجدل، وتبرز المناقشات الكلامية، وتتطور فيتدخل الحكام والأمراء... وهنا تكون الغلبة للفريق الذي تؤيده السلطة الحاكمة، وفي هذا الحال يضطر الفريق الثاني إلى السكوت والاستتار.

من هنا... نستطيع أن نستخلص أموراً كثيرة أبرزها... إن افكاراً صوفية عدة، وعبارات أخرى إلى جانبها استعملها الإسماعيليون في

كتبهم ومؤلفاتهم تحت وطأة الظروف السياسية القاسية التي كانت تلزمهم بذلك، وهكذا بالنسبة للمتصوفين، وهذا يحتاج إلى درس وتدقيق ومعرفة وتمييز بين الثابت والدخيل.

الأفكار الاسماعيلية

هذه الدعوة التي شغلت الناس في العصور الغابرة... لا نكاد نعرف دعوة من الدعوات كان لها هذه الأهمية والاعتبار في عالم الفكر أو الاجتماع أو السياسة. عندما نقرأ تاريخها بإمعان وتجرد نلمح إشارات كثيرة، وظواهر وبيانات ونحن نعطي الدليل على بعد النظر والعبقرية والتنظيم وتحدد المراحل التي مرَت بها، والأدوار التي لعبتها على مسرح الشرق والغرب، وكان هذا مدعاة إعجاب وتقدير وثناء حتى من أعدائها.

... إن أهم ما يمكن ملاحظته عندما نكون في صدد دراسة تاريخها... ذلك الهجوم الذي تعرضت له من قبل أعدائها الكثيرين الذين تطوعوا وتجندوا لمحاربتها وللحد من نشاطها وتشويه سمعتها وتعاليمها وأفكارها.... ونحن كباحثين حياديين لا بد لنا من القول: «إن الناس أعداء ما جهلوا»

فهذه الدعوة التي قامت على دعائم فكرية حملها دعاة ضربوا بسهم وافر في عالم الفكر... كان من العسير على الحكام والدول الأخرى التسليم لها... لأنهم كانوا يعلمون بأنها ما جاءت إلا لكي تزيحهم عن عروشهم لتقيم على أنقاضها دولة فاضلة يتحقق فيها كل ما يسمّى عدالة وإخاء وحرية ومساواة... ومن جهة أخرى فإن الوصول إلى أعماق هذه التعاليم لم يكن بالأمر السهل، بل على العكس كان يحتاج إلى المزيد من الوقت يصرفه المستجيب في سبيل ذلك. من هنا بدأت الدعوة ضدها، وقامت الحروب في سبيل إزالتها، ولكنها ظلت قائمة وسائرة في طريقها دون أن تتراجع.

لا شك أن الدعوة الإسماعيلية مرَّت بمراحل عديدة، وطرأت عليها أحداث جعلتها في بعض الأوقات مطابقة للظروف السياسية المتقلبة، فمنذ عهد الستر إلى عهد الظهور، ومن بلاد عربية إلى بلاد بربرية، ثم إلى بلاد فارسية ويمنية وهندية.. فهل نستطيع بعد كل هذا أن نوحد بين التطلعات والأفكار، وأن نقول إنها ما زالت واحدة دون تأثير وإنها لا تختلف عن بعضها البعض.

لقد سبق لي أن قلت في الصفحات السابقة من هذا الكتاب ... بأن إحدى مراحل الدعوة الإسماعيلية ولدت في بلدة «سلمية- سورية» ويسمَّى عهدها الأول «عهد الستر» وفي تلك الفترة البعيدة كان عدد دعاتها ومفكريها لا يحصى ولكن الحروب والثورات والأحداث العنيفة التهمت كل تراثها، فلم يبق منه سوى رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، وبعد انقضاء هذا الدور ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر وظهرت كتب ومؤلفات عديدة وضعها دعاة كان أبرزهم القاضي النعمان بن حيّون وجعفر بن منصور اليمن وغيرهما... فهل نستطيع أن نقارن بين هذه الكتب المختلفة؟... وعند المقارنة هل بالإمكان القول إنها لا تختلف في معناها ومضمونها عن سابقاتها أي الكتب التي وضعت في عهد الستر؟

نصير الدين الطوسي بين الاسماعيلية والمغول

هو: محمد بن محمد بن الحسن.. ويكنّى بأبي جعفر، وينسب إلى طوس، وبعضهم ينسبه إلى «جهرود» وهي من أعمال طوس. ألقابه: المولى، والخواجه، وهي ألقاب كانت شائعة في بلاد فارس وتطلق عادة على كبار العلماء. أمَّا لقبه الحقيقي فهو: فخر الحكماء، ومؤيد الفضلاء، وهناك من كان يطلق عليه لقب الفيلسوف، وسلطان المحققين، وأستاذ الحكماء والمتكلمين، وأفضل المتأخرين.... بينما أطلق عليه الإسماعيليون لقب الداعي الأكبر، وحجة الإمام.

عرف الأوروبيون «نصير الدين الطوسي» كما عرفوا قبلاً ابن سينا، وقد حظي بتقدير العلماء وكبار المستشرقين وخاصة: هورتن، وروسكا، ومينورسكي، وبروكلمان، وسارتون، وشتروطمان، وإيڤانوف، وبراون، وروزنتشال... وغيرهم.

قال عنه جورج سارتون:

إنه أعظم علماء الإسلام، ومن أكبر رياضييهم

وقال عنه بروكلمان:

إن نصير الدين الطوسي أشهر علماء القرن السابع، وأشهر مؤلفيه على الإطلاق.

وقال عنه إيڤانوف:

إن نصير الدين الطوسي ولد إسماعيلياً، وظلَّ حتى آخر حياته مواظباً وعاملاً لها... ولا شك بأن الفضل في تثقيفه وتربيته كان لوالده الذي كان من كبار دعاة الإسماعيلية.

ولد يوم السبت في الحادي عشر من جمادى الأولى، وقت طلوع الشمس سنة ٥٩٧ هـ،، وهناك مصدر آخر يذكر أنه ولد سنة ٦٠٧ هـ. وقد يكون التاريخ الأول هو الأصح.

درس على والده وخاله، وكان والده ذا اعتبار خاص بين العلماء، وهكذا خاله الحكيم «فاضل بابا أفضل الكاشي» الذي وصف بأنه كان فيلسوفاً كبيراً أيضاً، ويبدو أن دروسهما وتوجيهاتهما انطبعت في نفس نصير الدين، فجعلته ملازماً ومنكباً على العلم منذ الصغر، وعاملاً ومجاهداً في سبيله في الكبر... ولكن وبعد هذه الفترة من حياته يبدأ الغموض. فالمصادر لم تذكر عنه سوى القليل القليل... وكل ما ذكر: هو أنه عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ظهرت عليه الرغبة بمتابعة تحصيل العلوم والمعارف، فانتقل إلى «نيسابور» حيث انتسب إلى مدرستها الشهيرة التي كان لها الفضل في تخريج عدد من الفلاسفة والرياضيين والفلكيين أمثال: الحسن بن الصبَّاح، وعمر الخيَّام. وغيرهما...
وهناك، قضى مدة ستة أعوام في نهايتها تمَّ اجتياح المغول الأقطار الإسلامية، كخوارزم وسمرقند، وبخاري، ثم نيسابور... ويذكر: أن نصير الدين كان واحداً من الأربعمائة شخص الذين كتبت لهم النجاة من الاجتياح المغولي الذي وقع سنة ٦١٩ هـ. ولا ندري بعد هذا عنه إلَّا ما ذكرته المصادر التاريخية من أنه لجأ إلى طوس حيث عكف على الدرس والتأليف. وتفيدنا المصادر: أنه لازم «معين الدين المصري» طيلة تلك الفترة، فدرس عليه الحكمة، والفقه، والرياضيات، وعلم الفلك. فمن هو هذا المعين؟ وإلى أية مدرسة فكرية ينتسب؟... هذا ما يجب علينا معرفته.
من الواضح... أن شهرة نصير الدين قد ذاعت في أنحاء طوس في تلك الفترة، فأخذ الناس يتحدثون ويشيدون بعلمه وتفوقه في مختلف العلوم، وأقبل الناس عليه من كل حدب وصوب ينهلون من علمه، ويعبون من معينه، ولم تلبث شهرته أن وصلت إلى أسماع الداعي

الإسماعيلي: «ناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور» حاكم قوهستان من قبل الإمام النزاري، علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن، فوجه إليه الدعوة لزيارته في قوهستان، وهي قصبة من خراسان، فلبّى الطلب، ونزل عليه سنة ٦٢٥ هـ، ويبدو أنه أعجب به وبعلمه. فأقنعه بالإقامة عنده، وأمده بإمكانات ساعدته في مجال التأليف والتحصيل، وهنا لا بد من التساؤل... لماذا استقدم ناصر الدين القهستاني نصير الدين، وشجعه، ومهَّد له أسباب الإقامة بين ظهرانيه، إلَّا أنَّه كان إسماعيليّاً، أم لأسباب أخرى في حين تؤكد المصادر أن النصير كان وقتذاك ضليعاً في العلوم الإسماعيلية حافظاً لها، وقادراً على الكتابة والتعبير عنها. ومن الثابت أن ناصر الدين لم يقدم لنصير الدين كل هذه المساعدات إلَّا بعد أن وثق بقدرته على تقديم الخدمات للدولة، وللدعوة الإسماعيلية، وإعطاء البيانات الصحيحة، والصور الواضحة في الكتب والمعاهد وفي مجال المناقشة والدعاية... يدلنا على ذلك كتابه الأول «أخلاق ناصري» الذي كتبه باللغة الفارسية ثم ترجم بعد ذلك إلى العربية فهذا الكتاب يمثل الأفكار الإسماعيلية أصدق تمثيل، ويعطي الدليل على أن نصير الدين كان عريقاً وبالغاً في فهمها والتعبير عنها. أمَّا القول: بأن نصير الدين قد عدَّل بعض فصول ومقدمة هذا الكتاب، وأزال كل ما يدل على إسماعيليته قبل وفاته ببضعة أعوام. فهذا القول مرفوض، ولا يقبله العقل، ولا يوجد ما يدل عليه أو يبرره. فنصير الدين الطوسي الذي بلغ ما بلغ من علو المنزلة سياسيّاً، واجتماعياً، وعلميّاً، ووصل إلى الذروة في مجال الأدب والعرفان لم يكن مغفلاً ولا مجنوناً حتى ينقض اليوم ما كتبه بالأمس، دون أن يكون هناك سبب يوجب ذلك.

... وجدير بهذه الأسطورة أن تضاف إلى الأساطير الكثيرة التي حاكها بعض الناس عنه كقولهم: إن الإسماعيليين قد خطفوه من أحد البساتين، وجاءوا به إلى ألَموت حيث ظلَّ مدة ثلاثين عاماً سجيناً. ولا أدري بعد ذلك كيف استطاع هذا الفيلسوف كتابة كتبه وهو في مثل هذه الحالة القلقة، ثم لماذا لم يطالب أهله وعشيرته بالإفراج عنه طيلة هذه المدة؟ ولست أدري أيضاً لماذا يلجأ الإسماعيليون لمثل هذه الأساليب، وهل كان ينقص دولتهم العلماء والفلاسفة والشعراء وعلماء الفلك؟

ونعود إلى سيرة نصير الدين. فالمصادر التاريخية تذكر:

أن ناصر الدين أرسله فيما بعد إلى ألَموت بناءً على طلب صاحب ألَموت الإمام النزاري علاء الدين محمد، وبعد فترة عهد إليه بوظيفة استشارية وهي لا تقل عن الوزارة... وهنا تبدأ حياته الجديدة في ظل الدولة الإسماعيلية النزارية، وذكر أيضاً أنه بعد مقتل الإمام علاء الدين محمد، اتخذه ولده الإمام ركن الدين خيرشاه وزيراً ثم أناط به مهمة داعي الدعاة وهي أعلى وظيفة في الدعوة، وكان ذلك سنة ٦٥٠ هـ. ومن الواضح أنه ظلَّ قائماً بمهمته بنجاح حتى حين اجتياح هولاكو للقلاع الإسماعيلية.. وبعد أن تمَّ للمغول القضاء على الدولة النزارية الإسماعيلية التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو واتخذه مستشاراً خاصاً، ومنحه الصلاحيات الواسعة.

وفي سنة ٦٥٥ هـ. بدأ فتح المغول لبغداد، وكان نصير الدين الطوسي مع هولاكو، وقد شهد اجتياح بغداد واستباحتها سنة ٦٥٦ هـ. كما شهد أيضاً مقتل الخليفة العباسي المستعصم، وبعد موت هولاكو أصبح نصير الدين وزيراً لولده أبا قاخان، وقد ظلَّ قائماً بمنصبه هذا مدة تسعة أعوام وأخيراً:

مات نصير الدين الطوسي في بغداد سنة ٦٧٢ هـ، ودفن فيها، وكان له من العمر خمسة وسبعون عاماً.

ردود ومناقشات

هذا الفصل خصصناه لمناقشة بعض الآراء ـ وللرد على المزاعم والأقوال التي دونت عن نصير الدين الطوسي.. وحينما نقرر ذلك... نضع أمامنا مبدأ تجاوز ذكر الأسماء والتخصيص. فغايتنا الابتعاد عن المهاترات، ووضع النقاط على الحروف، والاستعانة بالعقل والمنطق، وهما الاداة الفعَّالة للوصول إلى الحقيقة.

قيل أن نصير الدين الطوسي كان يقوم بالدراسة في نيسابور عندما اقتحمتها جحافل المغول بقيادة «جنكيزخان»، وإنه تمكن من الفرار، والوصول إلى موطنه الأول طوس.

هذا صحيح... ويبدو أن هذه العملية العدوانية أعطت نصير الدين درساً مفيداً وقربت إلى ذهنه ما يقترفه الأقوياء ضد الضعفاء، وكيف تذهب الشعوب الضعيفة طعماً للفناء، وتدوسها سنابك خيول الغزاة؟ وجاءت المصادر التاريخية لتؤكد: أنه اعتزل الناس في طوس، وفاء

إلى ظلال الدرس والتأليف وعكف على مؤلفات ابن سينا، وإخوان الصفاء يعبُّ من معينها، ويرشف من رحيقها، ويبني خطوط فلسفته وعلومه وحكمته على أسس عقلانية فلسفية قيمة، وقد ظلَّ على هذا الحال حتى عمَّت شهرته الآفاق، وتجاوزت الحدود، ولكن هل كان نصير الدين راضياً عن أوضاعه وحياته تلك، وهل رأى في هذه الحياة المحدودة، ما يرضي طموحه وتطلعاته، وما كان ينتظر مستقبله ومصيره؟

إنني على يقين بأن نصير الدين لم يكن راضياً عن أوضاعه، ولا قانعاً بما كان يشاهده على الساحة العامة للدول الإسلامية التي كانت تسقط الواحدة إثر الأخرى أمام ضربات المغول دون أن يتحرك في داخل العالم الإسلامي الضمير والوجدان فتهب للاتحاد، والوقوف بوجه الخطر الداهم.

وأنتقل إلى موضوع آخر متسائلاً عن الأسباب التي كانت تلزم نصير الدين الطوسي باتباع نهج ابن سينا الفلسفي، على الرغم من بعد المسافة الزمنية بينهما، ولماذا اختاره كمعلم وراح يسير على دربه، ويتمثل به، ويقلده في أفكاره، ودراساته، وأعماله، وكلنا يعلم أن ابن سينا لم يكن سوى تلميذ مجدد في مدرسة «إخوان الصفاء».

إننا نعتقد بوجود رابطة روحية بين أتباع هذا النظام الفكري الذي كان يغزو العقول في تلك العصور البعيدة، وهذه الرابطة ألزمت ابن سينا بتقليد إخوان الصفاء، والسير على دربهم... فكان موسوعياً مثلهم، وجاء نصير الدين ليكمل المسيرة.

ولو أن نصير الدين الطوسي كان ينحدر من أسرة سنيَّة لذهب إلى بغداد وأقام فيها في ظل خلفاء بني العباس، بعد اجتياح المغول لنيسابور، ولو كان شيعياً اثني عشريّاً لما تردد في الذهاب إلى الحلّة أو النجف الأشرف، أو الكوفة حيث الأئمة والأسياد والمجتهدون من هذه الجماعة، ولكن نصير الدين لجأ إلى الإسماعيلية، لأن هذا اللجوء يحقق رغباته وأمانيه، ويقربه إلى خدمة العقيدة التي رضع لبانها صغيراً، ورعاها كبيراً.

أجل... لم تطب له الإقامة في طوس بل ظل قلقاً تصطرع في رأسه الأفكار ويشكو من العزلة والفرقة، وهذا ما جعله يهرع إلى قهستان حيث تطيب له الإقامة في ربوع العقيدة التي اعتنقها ونهل منها.

ولا بد من التساؤل أخيراً كيف أن حاكم قهستان طلبه، ورحَّب به، وأكرمه دون سابق معرفة، وكيف بادر إلى ذلك، ما دام يعلم أن الزائر الكريم يختلف عنه في المذهب، ولا يمكن الاستفادة من علمه ونشاطاته الأدبية، ثم لماذا خصَّه ناصر الدين دون سائر العلماء في ذلك العصر بهذا التقدير، طالما أنه بعيد عنه في أفكاره وعقيدته... ففي مثل هذه الحالة لا يمكن للدعوة الإسماعيلية جني أية مكاسب منه.

إننا لا ندري كيف نفسِّر هذه الرموز!؟ كما إننا نقف عاجزين عن إعطاء أي تفسير لعملية الخطف التي أقدم عليها اللصوص الإسماعيليون عندما أقدموا على خطفه من أحد البساتين، وجاءوا به إلى حاكم قهستان؟ ولماذا خصوا نصير الدين الطوسي بهذا الخطف، ولم يفكروا بخطف غيره من العلماء العباقرة، وهم أكثر من واحد، وهل تمَّت هذه العملية بناءً على حاجتهم إلى رجال فكر يتولون التدريس في مدارسهم، أو تأليف الكتب عن عقيدتهم وفلسفتهم، وهل حققوا بهذه القرصنة انتصارات وفتوحات كانوا يحلمون بها؟ فنحن لم نسمع ولم نقرأ عنهم أنهم كانوا يخطفون العلماء، ويقودونهم إلى السجون، أو كانوا يجبرونهم على اعتناق مذهبهم، أو الكتابة عن عقيدتهم.

إن النظام الفكري الإسماعيلي قام على العقل، والمنطق، وحرية الفكر، وقد مرَّ معنا أن انتصاراتهم الفكرية التي حققوها في الأقطار الإسلامية لم تكن تتم إلَّا عن طريق استيعابهم للعلوم السائدة في عصرهم، ولتفوقهم على أقرانهم، أو بناءً على مبدأ الإيمان والإقناع. إذن فمثل هذه المزاعم لا تستحق التوقف عندها، أو إعارتها أي اهتمام، لأنها ليست سوى خرافة نضعها على بساط البحث لكي ندلل ونشير إلى هذا التردي الفكري الذي وصلنا إليه، ومن الواضح أن كتاب نصير الدين الطوسي القيم «أخلاق ناصري» الذي كتبه باللغة الفارسية، ثم ترجم فيما بعد إلى العربية يفسِّر لنا أموراً كثيرة. فهذا الكتاب الفلسفي كتبه نصير الدين عندما أراد أن يلبي طلب حاكمها الإسماعيلي «ناصر الدين»، ومن المؤكد أن نصير الدين سجل فيه آراء إسماعيلية أصيلة، ولكن النسخة الأصلية لهذا الكتاب لم يعثر عليها حتى الآن ولو أنها وصلت إلينا لعرفنا الكثير الكثير عن نصير الدين،

وكنا وقفنا على مدى اطلاع هذا الفيلسوف على العقائد الإسماعيلية، وهو في هذه السن المبكرة.

ومن الغريب جداً أن لا يظهر من هذا الكتاب إلَّا النسخة المحرَّفة التي ذكروا أن نصير الدين قد غير مقدمتها وفصولها، بعد أن هجر الإسماعيلية، والتزم بمبدأ الاثني عشرية الشيعة، وهذا يدفعنا ثانية إلى رفض مثل هذه القصة، ونحن نجلُّ الفيلسوف نصير الدين الطوسي عن الانحدار إلى مثل هذه المواقف المذهلة، وهو الوزير والمستشار لأكبر قادة دول العالم في تلك الفترة.. أو أن يجعل من فلسفته وعلمه سلعة تباع وتشرى في أسواق المزاد، أو مادة تتغير وتتبدل بطرفة عين حسب رغبة العلماء وأهواء رجال الدين.

إن بعض المصادر التاريخية تذكر:

أن نصير الدين وضع في كتابه «أخلاق ناصري» زبدة الآراء الإسماعيلية الفلسفية، وذلك وفاءً لسيده، والمنعم عليه «ناصر الدين»... وهذا ما يحملنا على القول مرة ثانية بأن استيعابه لهذه العلوم وهو في هذه السن يعني أن دراسة الإسماعيلية قد تيسرت له وهو في سن الفتوة. فمن هو المعلم الذي لقنه أصول هذه الفلسفة وفروعها ومبادئها؟ إننا أمام احتمالات ثلاث. فإمَّا أن يكون والده «وهذا ما نرجحه» أو خاله، أو استاذه الثالث «معين الدين المصري».

إن دراسة التعاليم الإسماعيلية، أو الكتابة عنها ليست مهمة سهلة، ولا تتم بطرفة عين. فلا بد لكل راغب في تعلمها، من اللجوء إلى أحد الأساتذة الضالعين بشرح النصوص، وتأويل الآيات، ودراسة الفروع والأصول للعلوم الطبيعية، ولما يعرف بالماورائيات، وغير ذلك. من هنا كان على الباحثين المعاصرين أن يعطوا هذه الناحية ما تستحقه من اهتمام... إذ أن في الوصول إلى معرفتها جلاء الواقع، وإظهار حقيقة هذا الفيلسوف الكبير، ومذهبه وانتمائه.

إنني لا أدري... كيف أن النسخة الأصلية لكتاب «أخلاق ناصري» قد فقدت، وكيف أن الأيدي لم تبق لنا إلَّا النسخة المحرَّفة التي زعموا أن نصير الدين قد عدلها، وأزال منها كل ما يمت إلى الإسماعيلية بصلة.

فيا لها من كارثة كبرى أصابت الفكر العربي والإسلامي في

الصميم... بل يا لها من مصيبة طغت على العقول فحرمتها لذة التطلع إلى الخير والحياة والجمال، وقادتها في المنعطفات الوعرة المليئة بالحقد، والجهل، والتعصب. إننا نشعر بأننا في وضع أقل ما يقال فيه أنه متجرد عن كل ما يسمًى فضيلة، أو محبة، أو سلام.

فعلى رسلكم أيها الناس... قليلاً من المنطق والعقل. فنحن في عصر الحضارات والاكتشافات وحري بنا أن نرجع إلى ضمائرنا ونناشدها العمل للتآلف والمحبة، والوئام، وقد يكون آن الأوان للخروج من مستنقع الرواسب العقلية القديمة، والقرون السالفة التي خلفتها الأيدي الغريبة لتجعل منًا أمة متنابذة متناحرة.. تخوض المعارك، وتفتعل الوقائع، وتضع الخطأ مكان الصواب، والتحـريف مكان الصدق في سبيل قضايا تافهة، وكأننا لا نعلم بأن عملنا هذا يسيء إلى أعلامنا ومفكرينا في قبورهم، وخاصة عندما نحرِّف أقوالهم، ونخترع المزاعم والأساطير عنهم، مبتعدين عن القضية الإنسانية الكبرى التي ندعي زوراً وبهتاناً بأننا من دعاتها وبناتها.

إن علماء الإسماعيلية لم يكونوا يوماً من الأيام دعاة هدم وتخريب وهذا هو التاريخ يشهد بأن هذه المجموعة لم تكن سوى فئة صالحة مجتهدة وضعت نصب أعينها إصلاح المجتمع وإخراجه إلى حيز النور على أسس نبيلة وخيرة لا تسيء إلى تعاليم الإسلام، ولا تخرج عن نطاق قواعده وأصوله، فلماذا هذا الجحود والنكران؟، ولماذا اعتبار هؤلاء العباقرة من اللصوص الدائبين على أعمال خطف العلماء والإتيان بهم إلى السجون لإجبارهم على اعتناق مذهبها والكتابة عنها.

فالمؤرخون الذين كتبوا عن نصير الدين ذكروا:

إنه خلال إقامته في «ألمَوت» وضع أقوم الكتب الفلسفيّة، والعلمية، والفلكية، أو بالأحرى موسوعته الفكرية التي جاء تصنيفها وترتيبها موافقاً لموسوعة «ابن سينا» فهل قابلنا، أو كلفنا أنفسنا مقارنة موسوعة نصير الدين بموسوعة ابن سينا، وهل رجعنا بعد هذا إلى موسوعة «إخوان الصفاء» ودرسنا ما تحتويه من علوم، وفلسفة وفنون؟ إن شيئاً من هذا لم يخطر ببال أحد منًا، ولا أدري متى تكون هذه الموضوعات موضع تفكيرنا واهتمامنا.

أجل... لقد عاش نصير الدين الطوسي مدة تقارب الثلاثين عاماً في ألَموت عاصمة الدولة الإسماعيلية النزارية في بلاد فارس، فرافق نهضتها الفكرية، وساهم في بناء هذه النهضة العلمية التي عمَّت الآفاق. أمَّا بالنسبة للسياسة. فإن نصير الدين عايشها إبان قوتها، وامتدادها وعلو مكانتها، وهيبتها أي يوم كانت شوكة في عين الدولة العباسيَّة، والسلجوقية وغيرهما من الإمارات والدول الكبرى، ومن الواضح أن هذه الدولة لم تتخذ أي موقف معادٍ لأحد، ولا خطر في بال قادتها في يوم من الأيام الاعتداء على أية دولة إسلامية، أو التدخل في شؤونها.. ولكنها اكتفت برد الهجمات، والدفاع عن وجودها... إنها فترة شباب تلك الدولة الفتيَّة ذات المكتبة التي ضمَّت مليوناً ونصف مليون مجلداً في مختلف العلوم والفنون، هذا فضلاً عن المراصد، والاسطرلابات الفلكيَّة والتقاويم.

لقد شهد نصير الدين الطوسي سقوط هذه الدولة على أيدي المغول... شهد مؤامرة العباسيين، وتشجيعهم للمغول، ووضع الإمكانات المادية والمعنوية بتصرفهم للقضاء على دولة اعتبرتها أخطر من المغول. وشهد أيضاً مقتل «إمام» هذه الدولة، وقائدها الروحي «ركن الدين خير شاه» وإبادة بعض أفراد أسرته. فماذا ترك هذا المشهد في نفس هذا الفيلسوف العبقري؟ هذا ما سنجيب عنه في الصفحات التالية.

رحماك اللهمّ... فالدنيا تكاد تضيق علينا رغم سعتها نحن أبناء هذه الطبقة من الناس وخاصَّة عندما نذكر هذه المأساة الإنسانية... مأساة ألَموت.. وما تلاها من مآسٍ على مسرح بغداد.

سقوط دولة ألَموت

ليس جديداً، ولا غريباً إقدام الطاغية هولاكو على قتل الإمام ركن الدين وبعض أفراد أسرته. فهذا الظالم المجرم عريق في الغدر، واقتراف الجرائم... ولكن الجديد إقدام العباسيين على تقديم العون للطاغية الذي لم يكن يتجرأ على فعلته الشنعاء إلاَّ بعد أن وثق من تمزق الصف الإسلامي.

إنها مأساة ما زالت تتكرر، ويذهب ضحيتها الأبرياء من هذه الأسرة العريقة التي تنحدر من بيت النبوة الكريم، لا لشيء إلاَّ لأنها عملت وتعمل في سبيل الخير وإصلاح المجتمع، وإخراجه من عالم الظلام إلى حيث النور والحرية والانطلاق.

إن نصير الدين الطوسي الذين شهد مأساة ألَموت، ومقتل إمامه ركن الدين، وسقوط الدولة التي ساهم بخدمتها، وعمل على رفع مستواها... لم يكن بالرجل المغفَّل الجاهل الذي تفوته معرفة الأسباب والدوافع، ومن حرَّض، وشجع، وبارك، وساهم... وهم من غير المغول طبعاً.. إنهم أولئك الذين ساءهم قيام هذه الدولة الفتيَّة في هذه الجبال الشاهقة ذات الحصون، والقلاع المنيفة، وكأني بهم لم يقدموا على ذلك إلاَّ بعد أن عجزوا عن تدمير هذه الدولة، وفاتهم أن هذا السلاح ذو حدين ولا يلبث أن ينحرف ليحز رقابهم.

لقد بذل نصير الدين الطوسي كل ما يمكنه لمنع هبوب العاصفة الهوجاء، وحاول أكثر من مرة تهدأة عواطف المغول الثائرة، وكانت خطته تقضي بعقد هدنة ثم معاهدة سلام، ولكن طموح المغول، وبعض الأخطاء التي وقعت، فرضت الحرب في نهاية المطاف.. وكان ما كان.

فالمغول... كانوا يتطلعون إلى أبعد من ألَموت، لأنهم كانوا يخشون من قوة هذه الدولة المنظمة المحاربة التي كانت تقف في وجههم، وتشكِّل الخط الدفاعي الأول في وجه أي اندفاع نحو بغداد، والبلاد الإسلامية الأخرى، ولم يكشفوا القناع عن وجوههم، أو يتقدموا إلى المجال، إلاَّ بعد أن تأكدوا من ترحيب العباسيين، واستعدادهم للمساهمة وبذل كل ما يملكونه في سبيل إسقاط هذه الدولة الإسماعيلية.

لم تثمر جهود نصير الدين التي بذلها لإنقاذ الوضع، فوقع ما كان يخشاه، وسقطت الدولة التي كان يعيش في كنفها، وقتل الإمام الذي رعاه، وعطف عليه كما قتل الأبرياء من الأطفال، والنساء، والشيوخ، وذهبت المكتبة ذات المليون والنصف مجلد طعماً للنيران. فاتخذ من كل هذا مبدأً عاماً اضطره إلى الاستجابة لطلب هولاكو الذي دعاه إلى التعاون معه. فهولاكو في تلك الفترة كان بحاجة إلى مستشار تكون له الخبرة بالشؤون السياسية ويكون له سعة اطلاع ومعرفة.

وتذكر المصادر أن موافقته جاءت مشروطة، وتقضي بإعادة الإسماعيليين الذين شردوا من قلاعهم وحصونهم، وذهبوا في طول البلاد وعرضها كلاجئين لا يملكون من حطام الدنيا ما يسد رمقهم أو يستر أبدانهم.

إنها صورة استدرَّت دموع هذا الفيلسوف، وحرّكت عواطفه، وجعلته لا يفكر إلَّا بالانتقام لقد كانت صورة حزينة متوهجة بنار العاطفة لا تغيب عنه، ومشهد يعكس الفاجعة التاريخية المؤلمة، وتجعل الإنسان مهما امتلك من روية واتزان وكأنه في عالم من الضياع، وفقدان الإدراك.

ويستجيب نصير الدين بعد فترة من التفكير لطلب هولاكو، واضعاً نصب عينيه بادىء ذي بدء إنقاذ من يمكن إنقاذه من الإسماعيليين الأحياء الذين شردوا من مواطنهم، وقد ذكرت بعض المصادر أنهم تطوعوا في جيش هولاكو الذي اندفع إلى بغداد، حاملين فكرة الثأر والانتقام وهذا لم يتحقق، ونستبعد حصوله.

لقد بالغت بعض المصادر التاريخية باتهام نصير الدين بالخيانة، واعتبرت قبوله منصب الوزارة لهولاكو خيانة كبرى، ونحن نقف من هذا موقفاً مختلفاً ونقول:

إن نصير الدين هدف من وراء وزارته لهولاكو إلى إنقاذ من يمكن إنقاذه من الإسماعيليين أما المشاركة باجتياح بغداد، وتدمير مكتبتها، وقتل الخليفة العباسي «المستعصم» فقد كان خارجاً عن نطاق إرادته.

لقد كان حلم المغول بالإستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية واستباحتها راود جفونهم منذ عهد جنكيزخان، ولكن تحقيق هذا الحلم كان يتطلب إزالة الخط الدفاعي الأول، وهو من قلاع الإسماعيلية التي تؤلف دولة ألموت، وكانت تقف بوجههم، ومنعهم من التقدم، وهذا ما عملوا له، وتفادوه.

إن تفريق الصفوف، وضرب كل دولة على حدة... خطة اعتمدها هولاكو لتحقيق رغباته وبالفعل فقد نجحت الخطة، ووجدت التربة الصالحة لزرع الأفكار، وخاصة لدى العباسيين الذين شجعوهم على مهاجمة القلاع الإسماعيلية، ووضعوا تحت تصرفهم الأسلحة والإمكانات والمدربين والمتطوعين والأموال.... وأنه لمن المؤسف حقاً أن لا يسجل التاريخ على صفحاته هذه الأفعال، بل ومن الظلم والتجني أن تمر هذه الوقائع دون تعليق أو توبيخ أو تنديد.

إن مأساة ألَموت لم يشهد التاريخ مثلها، ولم يعرف أقسى، ولا أعنف منها، سوى مأساة بغداد التي لم تكن لتقع، لو أن العباسيين

اتحدوا مع دولة ألَموت، أو على الأقل لو انهم وقفوا موقف الحياد.

جاءت المصادر الإسماعيلية عن تلك الفترة قليلة ونادرة، وأعتقد أن القارىء الكريم يذكر بأننا أشرنا إلى تدمير المكتبة الإسماعيلية في ألَموت، وهي المرجع الوحيد لكل تاريخ عن تلك الفترة الغامضة.. فهناك مؤلفات نصير الدين، وهناك غيرها من المؤلفات القديمة القيمة، وبالتأكيد لم يسلم من تلك الآثار إلّا النسخ التي كان يمتلكها أفراد يسكنون في مناطق بعيدة، وهذه النسخ شاعت أخيراً، وتداولتها الأيدي، وأصبحت فيما بعد عرضة للنسخ والتحريف والتلاعب، وهكذا ضاعت الحقيقة في طياتها.

هناك مصدر ذكرناه في أحد كتبنا «أربع رسائل إسماعيلية» وقد جاء على لسان الداعي الإسماعيلي «شمس الدين بن أحمد الطيبي» الذي كان معاصراً لنصير الدين، فقد ذكر في رسالته الإسماعيلية «الدستور» بأنه سمع كل ما ورد فيها من أقوال من الداعي الإسماعيلي الكبير «نصير الدين الطوسي» والداعي «شمس الدين الطيبي» وكان شاعراً وتلميذاً لنصير الدين... وهناك كتاب إسماعيلي مخطوط يسمَّى «فصول وأخبار» لمؤلفه «نور الدين أحمد» من القرن السابع للهجرة يذكر فيه ما خلاصته:

««نصير الدين بن محمد... الحكيم الصادق... داعي الدعاة... ثقة الإمام... علم الدين. وفي مكان آخر يذكر هذه الأبيات ويقول: إنها من نظم نصير الدين بن محمد داعي دعاة مولانا علاء الدين... تاج الحكماء.. فخر الأمة... كبير الوزراء... وهذه هي الأبيات كما وردت:

لو أنَّ عبداً أتى بالصالحات غداً ... وودَّ كل نبيٍّ مرسلٍ وولي
وصام ما صام صوَّامٌ بلا مللٍ ... وقام ما قام قوَّامٌ بلا كسل
وطار في الجوّ لا يأوي إلى أحدٍ ... وغاص في البحر لا يخشى من البلل
وعاش في الأرض آلافاً مؤلفة ... معفى من الذنب معصوماً من الزللِ
ما كان في الحشر يوم البعث منتفعاً ... إلّا بحبِّ أمير المؤمنين علي

وجاء في مكان آخر:

«نصير الدين بن محمد»... خدم الدعوة في عهد الإمامين: علاء الدين ـ وركن الدين، وأنقذ علم الإمامة ونورها ووريثها «شمس الدين بن ركن الدين» من نيران «المغل» وذلك كما فعل «الحسن بن الصبَّاح» بإنقاذه

الإمام «علي الهادي»، وشمس الدين هو الذي اختتم عهد الظهور، واستأنف عهد الستر، ومن المعلوم أن نصير الدين كان له خادماً وداعياً وكفيلاً... ينهل من معينه، ويستمد منه القوة، ويهيء له السبيل للاستتار عن العيون والأرصاد والأعداء.

وجاء أيضاً في هذا الكتاب:

قيس بن منصور الداديخي... شاعر، وداعٍ إسماعيلي من قرية «داديخ» القريبة من حلب.. التحق بقلعة «ألَموت» وأنشد الإمام علاء الدين قصيدته المشهورة: [قدر الإمام الفاطمي معظَّمُ]. درس في ألَموت على داعي الدعاة «نصير الدين بن محمد» وعندما اجتاح «المغل» القلاع الإسماعيلية هلك مع من هلك من المحاربين الإسماعيليين. رحمه الله.

أترك التعليق على هذه المصادر التاريخية الإسماعيلية للباحثين وللمنصفين الذين يهمهم الوصول إلى الحقيقة من جهة، وللقراء الكرام، وقد وضعنا أمام أعينهم الصورة الواضحة لحياة نصير الدين... هذه الصورة التي جاء فيها ما يؤكد بأن هذا الفيلسوف لم يتخلّ عن إسماعيليته رغم النكبة الكبرى،بل ظلّ على عهده وولائه للإمام «شمس الدين بن ركن الدين» الذي تذكر المصادر الإسماعيلية أنه أنقذه، وانتشله من براثن المغول، ووفَّر له كل أسباب الحياة، والاستمرار في دعوته السريَّة حتى آخر يوم من حياته. ومن المعلوم أن الإمام شمس الدين استقرَّ في «قونية» وقام بعدة رحلات إلى قلاع الدعوة في بلاد الشام للإشراف على أتباعه الذين ظلُّوا صامدين في ديارهم، وكل هذا كان محاطاً بسياج كثيف من الكتمان والسرية المطلقة.

إنه عهد بعيد وهي فترة تاريخية غامضة، تخللتها حروب واجتياحات وغزوات وانقلابات غيَّرت جغرافية البلدان الإسلامية، وأزالت عروشاً وخلفاء وأمراء... من هنا فإن كل ما كتب ويكتب عن هذه الفترة يجب أن يكون مستنداً إلى الوعيّ والعقل، والضمير، وإلى ما يتطلبه الواقع والحقيقة المنشودة.

إننا لا نستطيع إحصاء كل ما كتب عن نصير الدين الطوسي من مقالات، وبحوث، وكتب، ولا أدري بعد هذا ما إذا كنا ملزمين بإقرار كل ما كتب، أو إننا نطمئن إلى نزاهة القصد، وقد تبدو أمامنا المتناقضات والانحرافات. ومن جهة أخرى.. فإنه من الصعوبة

بمكان مناقشة كل ما كتب عن نصير الدين، كما إنه من العسير جداً أن نصل إلى حقيقة هذا الفيلسوف إلَّا على ضوء المصادر الإسماعيلية، ما دمنا غير متجردين بأفكارنا... وغير ملتزمين بمبدأ الخروج من القيود التي تكبلنا، وتجبرنا على الرجوع إلى عهود الظلام... عهود الرواسب الكامنة في نفوسنا من بقايا الأزمنة البعيدة، وما دام الوضع سيستمر، فنحن سنبقى ندور في الحلقة المفرغة.

ونحن لا يهمنا أن يقول البعض إن نصير الدين الطوسي قد اختطفه الإسماعيليون من أحد البساتين، أو إنهم سجنوه في قلعة «ألموت» وأجبروه على تأليف الكتب الفلسفية التي تنحو نحو الإسماعيلية، وذلك تحت الضغط والإرهاب، وإنه بعد سقوط دولة ألَموت الإسماعيلية التي عاش في ظلها قرابة ثلاثين عاماً، أعلن عن توبته، وفاء إلى رشده، وغيَّر كل ما كتبه، وإنه انحاز إلى عقيدته الأساسية التي هي الشيعة الإثنا عشرية.

أجل... إن كل هذا لا يهمنا، بقدر ما يهمنا اتهام هذا الفيلسوف الكبير بالخيانة والزندقة والانحطاط الخلقي في وقت اعتبره الغرب والشرق من عظماء الفلاسفة، والرياضيين، والفلكيين الموسوعيين العرب بعد ابن سينا. أمَّا محاولة إبعاده عن دائرة العلم، والفلسفة، والسياسة، والقول بإنه من المشائخ المتزمتين، فهذه مسألة فيها نظر، أو هي اسطورة من الأساطير التي نرى كثيراً عنها على صفحات التاريخ.

فكيف نصدق أن هذا الفيلسوف قد عدم رشده، ووصل إلى هذا الحد من الانحطاط، الخلقي والتنكر لأصله، ولعقيدته... وعلى الفرض... أنه وصل إلى هذه المرحلة بعد ذلك العمر الطويل. فأين مؤلفاته ورسائله التي تثبت تنكره للمبدأ الإسماعيلي، وللدولة التي عاش في ظلها هذه المدة الطويلة من حياته.. فنحن حتى الآن لم نعثر على أي نص لنصير الدين في نقد الفلسفة الإسماعيلية أو الرد عليها، وكل ما نراه في أقواله هو الالتزام التام بالمبدأ والنهج والأسلوب الذي تبناه، وقرره، وسار عليه أستاذه الكبير ابن سينا، وهذا المبدأ الفلسفي، والعلمي، والموسوعي هو ما التزم به ومهَّد له إخوان الصفاء الإسماعيليون.

إن «التقيَّة» مبدأ عام طبّقه الإسماعيليون في كافة ظهوراتهم وجولاتهم، وقد سار عليه دعاتهم، أيضاً في جميع مراحل حياتهم وعهودهم، كما أن «الستر» مبدأ اختصَّ به أئمة الإسماعيليين منذ قيام دعوتهم، ونحن نرى نصير الدين الطوسي، يلتزم بهذا المبدأ بعد سقوط دولة ألموت الإسماعيلية.

فهل في هذا التدبير السياسي رجوع عن الدين، وهبوط في الأخلاق، وخروج عن المبادىء؟ أم أنه تدبير اقتضته سياسة هولاكو العليا، ومبدأ المغول الفاتحين الذين طبقوا خطتهم السياسية القائلة: «فرِّق تسد».

وننتقل إلى قصة الوزير العباسي «مؤيد الدين بن أحمد العلقمي» الذي تسلَّم الوزارة بعد عامين من مجيء الخليفة «المستعصم» للخلافة أي سنة ٦٤٢ هـ. والمستعصم كما هو معلوم هو ابن المستنصر بالله العباسي الذي جرى في عهده اندفاع «جنكيزخان» وجيوشه المغولية نحو بلاد فارس... ومن المؤكد أن هذا الفاتح لم يتمكن من تحقيق الأحلام المغولية كلها... فجاء حفيده هولاكو وأكمل كل ما بدأه. ولا بد من مناقشة الأقوال التي تزعم بأن نصير الدين كان على اتصال مباشر بابن العلقمي قبل اجتياح هولاكو للقلاع الإسماعيلية، وأنه في تلك الفترة أرسل قصيدة في مدح الخليفة العباسي المستعصم معلناً فيها رغبته في الذهاب إلى بغداد، والعيش فيها في ظل الدولة العباسية... إن هذا القول مرفوض من أساسه، ولا يمكن تصديقه، ولا يتفق مع مبدأ نصير الدين وعقيدته الإسماعيلية، حتى ولا مع اثني عشريته إن صحت وكانت حقيقة واقعة.

وتظهر القصة في الحالتين وكأنها ترتدي ثياب الخيال والأساطير... قد يكون نصير الدين قد قام باتصال مع العلقمي بعد سقوط الدولة الإسماعيلية في «ألَموت» وقد يكون في هذا الاتصال خلال تلك الفترة مصلحة لهولاكو، وما رافق ذلك من إغراءات، وأموال، ومواعيد، وقد يكون أيضاً للإبقاء عليه في منصبه لقاء تعاونه واستعداده لتقديم الخدمات.

أمَّا مقتل «ابن العلقمي» فلا أجد له تفسيراً، وقد يكون وراءه إخفاء الأسرار ودفن المؤامرة، والوثائق، والرسائل التي حصل عليها من

نصير الدين بالإبقاء عليه في منصبه لدى المغول، وقد يكون وراءه صورة عن عملية مقتل الخليفة العباسي المستعصم التي ذكروها بصور مختلفة. أمَّا القول بأن ابن العلقمي كان إسماعيلياً، أو جاسوساً يعمل لمصلحتهم في البلاط العباسي فهذا لا يوجد ما يؤيده.

ظلَّ نصير الدين بعد اجتياح بغداد سنة ٦٥٦ هـ. وزيراً لهولاكو ـ ولكنه خصص القسم الأكبر من حياته للأعمال العلمّية. فأقام الحلقات الفكرية، وأسَّس المجامع، وسهر على العلماء، وقرّبهم، ومنحهم المساعدات التى تكفل الأستمرار والبقاء، كما عكف على تأسيس المكتبة الكبرى في «مراغة» وزوّدها بالكتب التي سلمت من مكتبة بغداد، وأقام المرصد المعروف باسمه بالإضافة إلى أعمال أخرى مفيدة.

وبعد موت هولاكو تسلَّم ابنه «أباقاجان»، فأبقى نصير الدين قريباً منه، ويروى أن تأثيره عليه كان أكثر من تأثيره على والده هولاكو، وقد أمضى في خدمته تسعة أعوام عمل فيها على الإصلاح، وإعادة الثقة والأمان إلى الناس، وإيجاد جو من الهدوء والاستقرار، ممَّا هيّأ لنصير الدين مناخاً ملائماً مكّنه من العودة إلى أجواء العلم والدرس والتأليف. والإشراف على مكتبة «مراغة» وتزويدها بالكتب الإسلامية، خوفاً من إتلافها وضياعها، وقد ظلَّ قائماً بأعماله، جاداً في طلب العلم حتى أدركته الوفاة في بغداد سنة ٦٧٢ هـ. وكان له من العمر خمسة وسبعون عاماً.

وذكر التاريخ:

أن جثمانه شيع في موكب كبير وسط جلال الناس واحترامهم وتقديرهم فكانت جنازته مظاهرة كبرى دلَّت على ما كان يتمتع به من مكانة، وتقدير، واحترام.

هذا... ويحدثنا القمي نقلاً عن ابن المطهَّر:

أن نصير الدين كان أشرف من شاهدناه في الأخلاق، وقد يكون للدور السياسي الكبير الذي كان يضطلع به بعد فتح المغول لبغداد أكبر الأثر في ترك الآثار للناس عن شخصيته الكبرى، وسلوكه مع أعدائه وأصدقائه.

وذكره مؤيد الدين العرضي في مقدمته لكتابه «شرح آلات مرصد مراغة وأدواته» بقوله:

بإشارة من مولانا المعظم، والإمام الأعظم، العالم، الفاضل، المحقق الكامل، قدوة العلماء، وسيد الحكماء، وأفضل علماء الإسلاميين بل والمتقدمين، وهو من جمع الله سبحانه فيه في كافة أهل زماننا الفضائل والمناقب الحميدة، وحسن السيرة، وغزارة العلم، وجزالة الرأي، وجودة البديهة، والإحاطة بسائر العلوم. فجمع العلماء إليه، وضمَّ شملهم بوافر عطائه، وكان بهم أرأف من الوالد على ولده... فكنّا في ظله آمنين، وبرؤيته فرحين، وهو المولى نصير الملة والدين «محمد بن محمد الطوسي» أدام الله أيامه، فلله أيام جمعتنا في خدمته، وأبهجتنا بفوائده وإن كانت قد أبعدتنا عن الأوطان والعشيرة والولدان. فإن في وجوده عوضاً عن غيره، ومن وجده فما فاته شيء، ومن فاته فقد عدم كل شيء، فلا أخلانا الله منه، وأمتعنا بطول بقائه». وشهادة العرضي هذه ليست وحيدة، وإنمًا جاءت متفقة وشهادات أخرى، ومنها ما ذهب إليه «ابن كثير» الذي وصفه بالعقل والفضل، وكرم الأخلاق، وهكذا فعل «ابن الفوطي»... وممًا يدل على سمو أخلاقه وفضله، وعطفه، أنه بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم أخذ أحد أولاده المسمًى «مبارك» ووضعه في كنفه ثم أخذه فيما بعد إلى «مراغة» حيث أمًن له الحياة، وزوًجه بعد ذلك حتى أنه أنجب ولدين وعاش حياة سعيدة في ظله وتحت وصايته. وهكذا فعل بعد مقتل الإمام الإسماعيلي «ركن الدين» فإنه بادر إلى إنقاذ أحد أولاده «شمس الدين» وهو الوحيد الذي نجا من المذبحة، فسهًل له الذهاب والإقامة في قونية فترة طويلة ثم نقله بعد ذلك إلى «أنجدان» حيث ظلً قائماً بمهمته كإمام للإسماعيليين، وعند اجتياح المغول لبغداد لم يقف مكتوف الأيدي، بل بادر إلى الاستحصال على أمر من هولاكو باستثناء المسيحيين والشيعة، والفئات الغريبة عن الاستباحة، وهكذا بالنسبة للعلماء، ولرجال الفكر والدين، ومن هم في بغداد من الوافدين الأجانب».

وعندما نستعرض أسماء الأساتذة الذين درس عليهم في صغره، وفي كبره يجب أن نضع في مقدمتهم والده الذي ذكر بأنه لم يحتضنه ابناً بل تلميذاً. فدرس عليه المبادىء العامة للفكر الإسلامي، وقد شاركه في هذه المهمة خاله «فاضل بابا المعروف بأفضل الكاشي» الذي أجمعت المصادر على القول بأنه كان من الفلاسفة الكبار الذين ضربوا بسهم وافر في مختلف العلوم في ذلك العصر وخاصة الفلسفة كما ذكرنا ذلك قبلاً.

وقد ذكر: أن من بين أساتذته الذين درس عليهم «سالم بن بدران

المازني المصري» و «محمد بن أبي بكر إبراهيم النيسابور المعروف بالشيخ العطّار» و «أبو السعادات الأصفهاني» و «كمال الدين بن يونس الموصلي» وغيرهم. وذكر أيضاً:

أنه درس الفقه بعد وصوله إلى بغداد على أساتذة آخرين، وكان له من العمر آنذاك سبعون عاماً. وهذا الحديث يحتاج إلى أكثر من برهان ودليل.. لأن نصير الدين الطوسي بعد هذا السن لم يكن بحاجة إلى معلمين، ولا إلى الاستزادة من العلوم. أمَّا أستاذه الذي طبعه بطابعه فهو الشيخ الرئيس ابن سينا، ومن قبله إخوان الصفاء وخلَّان الوفاء، فلهؤلاء الفضل عليه في كل ما اغترفه من علوم ومعارف وفلسفة، وحكمة، وأدب.

ونعود إلى تلاميذه لنقول: بأنهم أكثر من أن يحصيهم عدد، وجميعهم لازموه في «ألَموت» وأخذوا عنه العلوم الإسماعيلية، وقد يكون بعضهم سقطوا شهداء على أرض المعركة إبان اجتياح المغول لدولتهم الإسماعيلية، ويدخل في عدادهم: شمس الدين الطيبي، وقيس الداديخي وغيرهما... أمَّا الذين أخذوا عنه العلوم، ولم تستطع المصادر تحديد انتمائهم... فمنهم: ميثم البحراني، وابن المطهَّر الحليّ، وعبد الكريم بن أحمد بن طاووس، وقطب الدين الشيرازي، ونجم الدين علي «دبيران» وغيرهم... وفي الحقيقة فإن أبرز تلاميذه هم أولاده: صدر الدين، وأصيل الدين، وفخر الدين، وقد ذكر أنه أدبهم واستخلفهم فيما بعد على أوقاف العراق.

إننا لا نذهب بعيداً عندما نقول: بأن خدمات نصير الدين الطوسي للفكر تجلَّت في إقدامه على إنشاء مكتبة «مراغة» وقد كان هدفه من ذلك حفظ التراث العربي والإسلامي خاصةً بعد تدمير مكتبتي «ألَموت» وبغداد، وقد ذكر أنه استحصل لها على العديد من الكتب والمجلدات من بلاد الشام وفارس، وقد كان قد أوكل «ابن الفوطي» بالإشراف عليها وتنظيمها. أمَّا المجمع العلمي الذي أقامه، وضمَّ إليه أساطين العلماء والفلاسفة في ذلك العصر، فقد كان أول مجمع يقام في البلاد الإسلامية في ذلك العصر، وعندما نعدّد أعضاءه ونستعرضهم يتجلّى لنا أهمية هذا المجمع.... وهم:

شمس الدين بن محي الدين «ابن عربي»، وكمال الدين (ابن

الفوطي)، وركن الدين (الاسترباذي)، ونجم الدين (الأسطرلابي)، وكمال الدين (الايجي)، ونجم الـدين (البغدادي)، وفخـر الدين (الخلاطي)، وحسام الدين (الشامي)، وشمس الدين (الشيرواني)، وأصيل الدين بن نصير الدين (الطوسي)، وشقيقه صدر الدين، ومؤيد الدين (العرضـي)، ونجم الدين (القزويني)، وفخـر الدين (المراغي)، ومحي الدين (المغربي).

إن انحياز نصير الدين الطوسي إلى هولاكو، وقبوله وظيفة الوزارة بعد تدمير دولة ألَموت النزارية الإسماعيلية كانت خطة يخفي وراءها أخذ الثأر من العباسيين، وتحقيق إنجازات كبيرة، وخدمات جلًى للفكر وللإنسانية، ومن المهمات التي صمَّم على تنفيذها، وتتلخص بإنقاذ من يمكن إنقاذه من فلول الإسماعيلية يضاف إلى ذلك الحفاظ على رجال الفكر في بغداد من خطر المغول.

سنان راشد الدين

ولد سنان راشد الدين في البصرة، وهناك من يقول إنه ولد في قلعة لامستر في بلاد فارس ودرس في «ألَموت» بمدرسة الدعوة على الحسن ابن الصبّاح وتوفي في قلعة الكهف الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي من بلدة القدموس ثم نقل جثمانه إلى «مصياف» بناء على وصيته حيث دفن في جبل «مشهد» الواقع على بعد خمسة أميال غربي مدينة مصياف.

وصفه الصاحب كمال الدين فقال:

«كان رجلاً عظيماً... بعيد الهمة... له القدرة والتأثـير على النـاس، والسيطرة على القلوب وكتمان السر واتقاء الأعداء واستخدام كل ما يملكه في سبيل أغراضه، وكان بارعاً ومتفوقاً في الفلسفة والمنطق والتأويل، وعلم الكلام، والفلك، والأدب، فضلاً عن علم الجبر والحسـاب والهندسـة والهيئة.

أمّا رجولته وإقدامه وعزة نفسه فكانت حديث الناس في عصره، وهكذا كانت فصاحته فإنه كان أخطب الناس في ذلك العصر، وأكثرهم تأثيراً في السامعين».

وذكر أنه كان من العاكفين على دراسة رسائل إخوان الصفاء، وكتب ابـن سينا الفلسفية، والكرماني. وإضافة إلى ما ذكرناه فإنه كان شاعراً رقيقاً،

ولكن مع كل أسف لم يعثر إلّا على بعض أبيات ومقاطع من شعره، وهكذا بالنسبة لمؤلفاته العديدة:

ومن أشعاره:

ما أكثر الناس وما أقلُّهم ... وما أقل في القليل النجبا
ليتهم إذ لم يكونوا خلقوا ... مهذبين صحبوا مهذَّبا

وله أيضاً:

ألجأني الدهر إلى معشر ... ما فيهمُ للخير مستمتع
إن حَدَّثوا لم يصدقوا سامعاً ... أو حُدثوا مجوا ولم يسمعوا
تَقَدُّمي أخرني فيهم ... من ذَنبه الإحسان ما يصنع؟

وله أيضاً:

لو كنت تعلم كل ما علم الورى ... طراً لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب أنَّ ... من يهوى خلاف هواك ليس بعالم
فاستحيِ إن الحقَّ أصبح ظاهراً ... عمَّا تقول وأنت شبه النايم

وكتب إلى صلاح الدين الأيوبي:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت ... بيوتك فيها واشمخرَّ عمودها
فأصبحتَ ترمينا بنبلٍ بنا استوى ... مغارسها فينا وفينا حديدها

يعتبر سنان راشد الدين من القوّاد المؤسسين للدول. وقد لعب دوراً بارزاً في التاريخ، وكان له أثر بالغ في السياستين السورية والمصرية وخاصة في الحروب الصليبية، وكان يحمل مسؤولية شعبه الكبير، ويحميه بنجاح من المؤآمرات، ومن غارات الصليبيين والأيوبيين... فقيادته الحكيمة، وعبقريته الفريدة وشجاعته الهادئة، وبعد نظره، وعفته وإباؤه كانت مضرب المثل في عصره. وجاء أيضاً في كتاب «فصول وأخبار» عنه أنه:

«كان جميل الصورة، معتدل القامة، ذا عينين واسعتين سوداوين... أبيض البشرة مع ميل إلى السمرة، وحاد البصر، وسريع البديهة... وكان يقضي أيام الأسبوع متنقلاً ومتفقداً شوؤن أتباعه في القلاع وفي المدن، ثم يذهب بعد ذلك إلى «صومعته» في جبل «مشهد» حيث

ينقطع للتأليف ورصد النجوم، وكان يسير نحو القلاع والحصون في طرق سرية، ومعابر خاصة مشياً على الأقدام حتى لا يعرفه أحد. أمَّا ذهابه إلى مدن حلب ودمشق وحمص وحماه فكان يتم وفق سرية تامة وبعد إخفاء الشخصية.

«الشاعر الأمير مزيد الحلي الأسدي»

يتميّز شعر الأمير مزيد الحلّي الأسدي بالرقة والعذوبة والوجدانية. أصله من «الحِلّـة» العراقيـة، واسمها في التـاريخ القـديم «بـابَـل» و «الجامعين». أمَّا نسبه فيتصل بأمراء «بني مزيَـد الأسديـين» المعروفين بتشيعهم وانحيازهم للفاطميين، يؤيد ذلك المواقف العديدة التي وقفتها هذه القبيلة الكبيرة مع الفاطميين، بالرغم من أنهم كانوا يعيشون في ظل الدولة العباسية، وقد كانت مواطنهم ومخيماتهم قائمة على ضفاف نهر الفرات.

عرف سنان هذا الشاعر عندما خرج من بلاد فارس، واتجه إلى بلاد الشـام للالتحـاق بقلاع الـدعوة الإسماعيلية، وتـذكر المصـادر الإسماعيلية التاريخية أنه عندما وصل إلى «الحِلّـة» التقى فجأة بالشاعر الأمير مزيد، ويبدو أنهما تذاكرا بالشعر والأدب وأعجبا ببعضهما، فدعاه مزيد إلى النزول في ضيافته، فاستجاب لطلبه، وبعد أن أمضى سنان فترة استراحة لديه غادر الحِلّة دون أن يكشف له عن شخصيته الكاملة، وكل ما عرفه مزيد عنه أنه شاعر من بلاد الشام وأن اسمه «محمد بن علي الحلبي» وأنه كان في رحلة إلى قلعة ألَموت لمقابلة إمام الإسماعيليين النزاريين. وكان مزيد من الإسماعيليين النزاريين فلهذا أكرم وفادته غاية الإكرام، وزوّده بكل ما يحتاج إليه في رحلته.

ومضت أيام وشهور وتبعتها أعوام، ومزيد لم يسمع عن صاحبه أيٍ خبر، وفي أحد الأيام طرق باب منزله في الحلة رسول سنان حاملاً رسالة تتضمن تعريفاً بصديقه الشاعر الذي حلَّ بالأمس ضيفاً عليه، مع دعوة له للحضور إلى «مصياف». فردَّ مزيد بالإيجاب، ولم يلبث أن توجه إلى مصياف، فأقام فيها ضيفاً على سنان لمدة قصيرة، ثم اعتذر للمغادرة وعاد إلى العراق رغم إلحاح سنان عليه بالبقاء

فترة أطول، ولكنه مع كل أسف لم يكد يصل إلى موطنه الحلة حتى وجد نفسه أمام مأساة كبرى، وتضيف المصادر الإسماعيلية نفسها بأن زوجته وبناته وأولاده ماتوا جميعاً تحت ركام منزلهم الذي انهار في إحدى الليالي، وهذا ما جعله يهجر العراق ويعود إلى مصياف ثانية ليقيم فيها، وهناك تزوج وأنجب أولاداً وظلَّ قريباً من سنان حتى وقت وفاته، وممَّا يجدر ذكره أن له قصيدة اسمها «الرحلة» يصف فيها ما لاقاه إبان رحلته من الحلة إلى مصياف مع ذكر المدن والقرى التي مرَّ فيها، وما تعرض له في رحلته... وسنذكر بعض مقاطع منها.

لهذا الشاعر ديوان شعر لم يطبع، ومن المرجح أن هناك قصائد أخرى لم يعثر عليها. وممَّا تجدر الإشارة إليه أن سنان قد مات قبل مزيد، لهذا فإن الأمير الشاعر أوصى بأن يدفن إلى جانبه في جبل «القاهر» على مقربة من بلدة «مصياف»، وقد نفذت الوصية.

من أشعاره:

أيحظى بقرب الدار صبٌّ متيَّم ... وقد شفَّه كأس من البين علقم
إلى كم ألوم النفس عند إذّكاركم ... وحتام أُخْفي ما ألاقي واكتمُ
وفي كبدي للبين نابٌ ومخلبٌ ... وحولي ذئاب للحوادث حُوَّم
وكم ليلةٍ قضَّيت فيها مآربي ... أعانقُ ربَّات الخدور وألثمُ
فيا دهر هل بعد التغيِّر رجعة ... وهل يشتفي من لاعج الشوق مغرم

وله:

أمَا والهوى لو عندها بعض ما عندي ... لما هجرت لكنما وجدها وجدي
وحق الهوى لو استطيع إذا مشت ... لأبسط ذلاً تحت أقدامها خدي

وله:

وشادنٍ أفديه لو يغتدي ... عليَّ في حكم الهوى يعتدي
أرق من مشمومه قده ... وقلبه أقسى من الجلمد
فالورد من وجنتيه اجتنى ... وثغره كالأقحوان الندي
ووجهه كالشمس شمس الضحى ... وقدُّه كالغصن الأملدِ
حلفتُ بالابن والآب معاً ... ثلاثة كنا على موعدِ
إني لأشتاقك يا سيدي ... كالماء يشتاق إليه الصدي

ومن شعره:

يـا لقومي من آل ظبيـة مالي لا أرى لي مخيمـاً في قبـاب
أنتـم خـيرٌ من أقيـم عليهـا عمـداً مشـرفـاً عـلى أطنـاب
إن سطا الخطب كنتم ماء مزنٍ أو دعا الحرب كنتم أسد غاب
رمتُ صبراً عنكم فأعوزني الصبرُ فـهـل لي إليكـم مـن إيـاب!
لا ومن أنشـأ البـريـة خلقـاً ذا انتقـالٍ من نطفـةٍ لتـراب
مـا تبـاعـدتُ عنكـم لمـلالٍ ليس لي رغبـة إلى الاغتـراب
غـير أن الحسام لا يستطيـع القطـع إلَّا مفـارقـاً للقـراب

وله:

هب لي الكرى فلقد أودى بي السهد أجلَّـدَ القلـب لـم ألـقَ لـه جلـدُ
إسأله فهو مجيبٌ حين تسأله هل كان غيرك فيه نـازلٌ أحدُ
يا واحداً بين أرباب الجمال ومن أضحى بذلك فيهم وهو منفردُ
السلسبيل لنا من فيك أم عسلٌ ولؤلؤ سلكـه المرجـان أم بردُ

وله:

سرى الركب فازدادوا على همهم همًّا بوادي الغضا عمًّا تسائلهم عمًّا
عن الجبل الفرد الذي شاع ذكره فمهما يسيروا لم يروا ذلك المهما
وركب سروا في ليلهم يسهرونه وقد ركبت فيه عساكرهم دهما
فلمَّا أنار الصبح وافاهم الكرى وأرمتهم الأحلام فاستحسنوا الحلما
رأوا بعض أتراب لسلمى وقد بدت إليهم فقال القوم قد برزت سلمى
ومن لم يرَ الشمسَ المنيرة في الضحى ولا البدر يستعظم لرؤيته النجما

وهذه مقاطع من قصيدة «الرحلة».

ندمتُ ولكن ليس يغني تندمي على ما مضى من عمري المتقدم
فقلت لدنيايا إلى كم تحمحمي إليك ذريني والجوى لا تقدمي
فما أنت لي دار المقام فأعلمي

ومنها:

سيرشد قلبي طالما كان يرشدا ويصلح أمراً كان بالأمس مفسدا
ويعرض عن سبل الضلالة للهدى يـوالي ولاة الأمـر آل محمـد
فحبهم فرضٌ على كل مسلم

همُ معشرٌ طالوا على النجم والسهى وفاقوا على أهل المكارم والنهى
وحازوا المدى بالحلم والعلم والنهى هم شجرة الطوبا هم سدرة النها
هم جنة المأوى هم بئر زمزم

ومنها:

رحلت وعيسي للنوى قد نهرتها ومنذ دعا الداعي الملُّح تركتها
ولمَّا دنا التعريس منها فركتها من «الحلة» الفيحاء حين صرفتها
وبغداد خلفي لم أطأها بمنسم

وسارت بنا سير الرياح وبادرت وحوش الفلا في جدها وتوافرت
وراحت كمذعورٍ النعام تنافرت وظلَّت بنا تطوي الفجاج وجاورت
بشط الفرا من كل جرمٍ مسنَّم

وبتنا بها عند الرئيس فمدنا بأنعامه بل للرحيل أعدنا
ولمَّا بدا الفجر المنير أمدنا إلى أن وصلنا أرض«شيزر»صدنا
مسيل من العاصي شديد التهجم

ومنها:

فقلت له ما زلت مذ كنت مسلما أجوب على من يعرف الأرض والسما
فيهدي ويجلي ناظريَّ من العمى إليك حططتُ الآن رحلي مسلما
مجيباً وها أنت المحكَّم فاحكم(*).

(*) المقصود «بالمحكَّم فاحكم» الامام «محمد بن الحسن بن نزار بن المستنصر» وهو ستان ونرى مزيد هنا يقلده رتبة الإمامة.

يعتبر «القصر الزمردي» الكبير الكائن في القاهرة «المعزيَّة» من أقدم القصور الفاطمية. فبناؤه تمَّ بعهد «جوهر الصقلي» ثم أصبح بعد مجيء الخليفة الإمام المعز لدين الله كعبة القصَّاد، وملجأ المعوزين، وندوة لأهل العلم والفضل تتجلى فيه عظمة الخلفاء الفاطميين وأخلاقهم ونبلهم وشرف محتدهم. فالحفلات العامة كانت تقام للفقراء في أرجائه، والمآدب تعد للمعوزين في فسحاته، والندوات العلمية تزخر برجال العلم والأدب والشعراء، والمجالس الأدبية أبداً زاهية زاهرة بفضل ما خلعه عليها هؤلاء الأئمة من حيوية ونشاط، وكل هذا كان حديث الناس، ومثار إعجابهم ودهشتهم، وشاركت القاهرة القصر الفاطمي بهذه النهضة الثقافية الكبرى، فسارت تتبع خطاهم متأثرة بتعاليمهم حتى أصبحت هي أيضاً منتدى عاماً يجتمع فيه مختلف الأجناس، ومتباين الشعوب من كافة الأقطار. فاختلطت ثقافتهم بالثقافة الفاطمية الزاهرة، وحضارتهم بتلك الحضارة الإسلامية الأصيلة التي عمل «الفواطم» على نشرها وتعميمها، فهم كما عرف عنهم من أعرق بيوت العرب وأشرفهم حسباً وأقدمهم في اعتناق الأدب والعلم.

كان للقاهرة «المعزيَّة» سور منيع له عدة أبواب ضخمة تغلق كل يوم عقب غروب الشمس، فلا يستطيع أحد أن يدخل إليها، أو يخرج منها إلا بأمر خاص، وما زالت هذه الأبواب إلى يومنا هذا، كما أن آثار السور باقية حتى اليوم، وكان للقاهرة أيضاً ضواح اشتهرت بروعتها وفتنتها، تضم منازل الأغنياء والموسرين والطبقة العالية من الشعب، وما جاوره وكان أكثرها جمالاً، وسكاناً، وروَاداً، ومظاهر، الحي الكائن في منطقة «الجمَّالية» من «الغورية» و «خان الخليلي» حيث تقوم مختلف المتاجر وقصور الأغنياء. أما قصر «الأمير نزار بن الخليفة الإمام المستنصر بالله» فكان يسمَّى قصر «المظفَّر» وهذا القصر بناه الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله، وجعله في شرقي القاهرة بالقرب من القصور الملكية الأخرى، وقد كان يمتاز عن بقية القصور بارتفاع شرفاته، وتعدد حجراته، وتناسق أروقته ومقاصيره.

أمّا هندسة بنائه فكانت على الطريقة الرومانية العريقة بالإضافة إلى الفن الإسلامي الماثل في كل الجوانب وكان يطل على ساحة القصور الملكية العامة الرفيعة الذرى، وعلى الخليج الفضي، وعلى بستان كافور، وعلى مسافات بعيدة من القاهرة، وكان قصر المظفّر من أغنى القصور الملكية زخرفةً ونقشاً وزينة، اختلطت فيه الفضة والعاج باللآلىء والأحجار الكريمة، وعندما كان يسرّح الناظر الطرف في أرجائه، ويتمتع بروائعه، يدرك أن مفاتن العالم كلها اجتمعت في هذا الصرح العجيب الرفيع المنار، الذي أنشأه الفاطميون لسكناهم وسكنى أحفادهم.

ومن المتنزهات الجميلة في القاهرة «البستان الكافوري» وهذه المتنزهات كانت في الجهة الغربية من المدينة حيث يقع وراءها خليج القاهرة الذي أسست خلفه بحيرة كبيرة من الحجارة الجميلة الملوَنة لسحب المياه من النيل، وإرواء الورود الناضرة، والأشجار الجميلة المورقة التي غرست في البستان، وقد كان منظرها من أمتع المناظر ومشهدها من أُجمل المشاهد وأدعاه إلى السحر والفنون وإثارة الشعور، وكانت فيه القاعات الجميلة، والمقصورات الغنية التي زينت بأجمل الرياش الثمينة، وفيه مئآت الطيور الداجنة الجميلة، والحيوانات الأهلية على اختلاف أنواعها، وبعضها في الأقفاص والبعض الآخر طليق، وكان على ضفة الخليج مجالس من الخشب كالشرفات وقد فرشت كلها بالسجاد الفاخر، وعليها المساند الحريرية المزركشة، وفوقها مظلات من الخشب يعَرّش عليها النبات الأخضر ويتدلى على قضبانها الورد الجميل، فكل ما في هذه المتنزهات ثمين يسترعي النظر، ويحمل الناظر على تسبيح الله لهذا الجمال الرائع الذي خلعه على هذه الحدائق الناضرة التي رعاها الفاطميون إرضاءً لميولهم الشاعرية وحبهم للطبيعة وللجمال، وإرواءً لرغبتهم بالعزلة والابتعاد والانقطاع للتأمل.

ونعود إلى قصر «الزمرّد» لنقول:

إنه أحد قصور الفواطم الذي تمَّ بناؤه وزخرفته في عهد الخليفة الفاطمي الإمام المعز لدين الله: فقد جعل طلاؤه بلون الزمرد تمييزاً وحباً بهذا اللون الرائع الجميل. وأَمّا موقعه فكان في شرقي مدينة

القاهرة القديمة إلى الشمال ما بين الأزهر وباب الفتوح، ويدخل في ذلك خان الخليلي، وبيت القاضي، والجمَّالية، والنحاسين.

وهذا القصر تمَّ بناؤه في عهد الفاتح الكبير «جوهر الصقلي» وكان يضمّ قسمين أحدهما: قصر الخليفة الخاص، ويضم جملة قصور أيضاً، وكان الآخر بمنزلة متنزّه يطل منه على بستان كافور، وكان بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم «ما بين القصرين» ويتسع لعشرة آلاف جندي ما بين فارس وراجل، وكان الخليفة يمر من أحد القصرين إلى الآخر من تحت الأرض بطريق أعده لذلك حتى لا تكثر رؤية الناس له فيستهينوا به.

وكان القصر في وسط مدينة القاهرة وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها، وكان له عشر بوابات فوق الأرض، وباب يقود إلى ممر أرضي يعبره الخليفة راكباً ليصل إلى قصر آخر، وقد كان من الفخامة بحيث اعتقد بعضهم أنه فاق قصر «لابيرانيت»، وقصر التيه الذي اتخذه «أمنحتيب» الثالث سنة ألف وثمانمائة وواحد قبل المسيح، وهو أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، وقد جعله مقراً لحكمه بالفيُّوم، والذي بلغ عدد حجراته ثلاثة آلاف، على أن شهرة هذا القصر قد تضاءلت أمام قصر الزمرّد، الذي بلغ عدد حجراته أربعة آلاف، وقد ظلّ قصر الزمُرّد داراً للخلافة الفاطمية منذ أقام فيه الخليفة الإمام المعز لدين الله سنة ٣٦٣ هـ إلى أن زالت الدولة الفاطمية من مصر سنة ٥٦٧ هـ.

ومن مميزات هذا القصر كثرة أبوابه. فمنها باب الذهب، وكانت تعلوه منظرة يشرف منها الخليفة في بعض الأوقات، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود في يومي العيدين وتعرف برحبة باب العيد... وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين، ويصل إلى باب الزعفران حيث مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة الفاطمية المالكة، وموضعه الآن خان الخليلي، وقد دفن فيه الإمام المعز لدين الله، وجيء من المغرب برفاة: عبد الله المهدي، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله، وكانت موضوعة في توابيت من ذهب، ودفنت في هذا المكان

...ومن الجدير بالذكر أن هذه المقبرة ظلت مدفناً للخلفاء وأولادهم

حتى أنشأ فيها «ركن الدين جهاركس الخليلي» أحد أمراء المماليك خانه المعروف باسمه، وعندئذٍ أخرج منها رفاة الفاطميين وألقاها على تلال «البرقيّة» بين باب الديلم وباب تربة الزعفران التي كان يصل منها الخليفة إلى الجامع لمشاهدة الناس والصلاة، ويقابل باب الديلم الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر وكان الخليفة يصلي فيه صلاة الجمعة، وبجوار رحبة باب العيد كانت دار الضيافة ويطلق عليها «دار سعيد السعداء» ويقابلها دار الوزارة، وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة ومحلها الآن شارع الصاغة، وتقع خزائن القصر بين هذا الباب، والجامع الأزهر، ومن هذه الخزائن خزائن الكتب والأسلحة والفرش، وقد بني أيضاً في موضع القصر الصغير «المارستان المنصوري الكبير» ويعرف اليوم بسوق النحاسين وبجواره إلى الشمال الميدان والبستان الكافوري، ودار الضيافة القديمة ورحبة الإقبال.

أمّا القصر الشرقي الكبير، وهو المكان المعد لسكن الخليفة، والموضع المخصص لجلوسه، وفيه تقيم أسرته، وحاشيته، ورجال بـلاطه، والدواوين، والخزائن، وكان مؤلفاً من عدة قصور منها قصر الزمرّد الذي جاء ذكره، وقصر المظفّر، وقصر الإقبال، وقصر البحر، وقصر الحريم، وقصر الشوك، ودار الوزارة، والضيافة، والضرب، وخزانة البنود، والكتب. أمّا القصر الصغير الغربي، فقد كان يتحول إليه الخليفة في أيام النيل للتنزه على الخليج ويقال لهذين القصرين معاً: القصور الزاهرة، وتؤلف داراً للخليفة،وقصراً للجند، ومركزاً للإدارة.

كان قصر الزمرّد آية في الإبداع، ومثالاً في البناء، فأرضه كانت مرصوفة بأنواع الرخام المتعددة الألوان. وفيها تذهيب بهيج بنضارته وبهائه، وفي السقوف ألواح تزينها الزخارف الذهبية الجميلة والنوافير التي تجري فيها المياه الصافية في أنابيب من الفضة والذهب، وأراضي وقنوات مرصوفة بالرخام، وأسلحة ودروع تلمع بالفضة والذهب، وكان في القصر دور واسعة وقباب وأروقة طليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة، والرسوم الملوّنة، وحيطانها بالوشي والديباج، وبساتين مظلّلة بالأشجار والرياحين، وكانت هذه مضرب المثل بحسن بهائها ورونقها، كما أنها امتازت بفخامـة بنائـها واتساعها، وبما يحيط بها من حدائق غنّاء وأشجار متكاثفة، كما ازدانت بالمناضد

الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصَّعة التي بلغت حـد الإتقان، مضافاً إلى كل ذلك الفرش الفاخر والمتاع الثمين، وغير ذلك من آيات الروعة والجمال.

إن حركة بناء القصور والمساجد والمشاهد والمناظر، وغيرها من المنشآت في القاهرة «المعزّية» والفسطاط تؤلف جزءاً متمماً لمنهاج الفاطميين في الفن والعمران والإنشاء. ولا تزال ناطقة بالعظمة، وضخامة السلطان، وسعة العلم، ودقة الصنع، والتطلع إلى البعيد.

فالفاطميون في هذا المجال نقلوا فن البناء عن البيزنطيين والفرس، ولكنهم أدخلوا عليه، وغيروا الكثير من أجزائه ممَّا زاد في جمال بنيانهم وروعته فنرى: الأبواب العالية مع صغر المدخل، والقباب الشامخة المزينة، والمنارات الشاهقة، والأعمدة الصغيرة، وكل هذا يدل دلالة واضحة على النبوغ والتقدم والازدهار. أمَّا مواكب الخلفاء التقليدية في مصر، فيمكن اختصار وصفها والقول:

بأن موكب الخليفة عندما كان يسير في كل يوم جمعة إلى الجامع الأزهر.. فكان يسلك شوارع القاهرة الرئيسية، خارجاً من باب الفتوح يحيط به حرس من الفتيان يتألق على أجسادهم الناعمة الذهب والحرير، وتخطف أشعة الشمس على حرابهم وسيوفهم، وهذا مشهد من أروع المشاهد. أمَّا الأعلام فكانت تخفق فوق رؤوسهم، والخيول تصهل، والرماح تتلألأ، والسيوف تلمع، والطرقات تموج بمن فيها كالنيل في فيضانه. أمَّا الهتافات فكانت تتعالى في الإنشاد، والمستقبلون ينثرون على موكب الخليفة أنضر زهرات وادي الكنانة، العابق، ثم لا تلبث أن تغص الشوارع الفسيحة بالناس المتدافعة على رحبها وامتدادها من جميع النواحي، ثم تنحدر كالسيل العرم، وتنتشر في أرجاء الشوارع وهي تهتف وتصفق متمنيةً أن تحظى من الخليفة المحبوب بنظرة أو بتحية أو بابتسامة، وإذا تساءل سائل عن ذلك الراكب على الفرس الأشهب، وهو يرتدي الثياب القصبيَة؟ فيكون الجواب... إنه من رجال أمير المؤمنين، لأن أمير المؤمنين لا يلبس القصب. إنه مقدم الفرسان من الجنود أرباب القصب وأرباب الأطواق الوردية. لقد كانت ألبستهم تخطف الأبصار، وهكذا سروج خيولهم المفضضة، ومن يسير في ركابهم من الخدم، وهذا كله ليس شيئاً بالنسبة إلى موكب الخليفة... فالخليفة كان يسير متهادياً تحت

المظلة فلا يُرى جيداً، وإنما ترى فرسه وما يحدق بها من أعلام الفرسان فالفرس التي كان يمتطيها، كان سرجها من الديباج الأحمر المصنوع من الذهب الخالص، وفي مقدمة السرج الأحجار الكريمة وفي عنق الفرس قلائد من الذهب، وحول قوائمها سلاسل من الذهب الخالص أيضاً، ويسمع رنينها إلى مسافات بعيدة، وكان الخليفة الفاطمي عند ركوبه في أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان يلبس الثياب البيضاء الكاملة والمنديل، والطيلسان. وفي صلاة عيد الفطر كان يرتدي الثياب البيضاء أيضاً، ويوم فتح الخليج يلبس ثوباً يسمّى «البدنة» من حرير مرقوم بالذهب، وفي المواكب المختصرة كان يخصص لنفسه الثياب المذهبة من البياض، وفي صلاة عيد الأضحى ثياباً من الحرير الموشح، وفي قصره كانت له ثياب خاصة تتميز بأن أكمامها على النصف من أكمام ثيابه التي يلبسها في المواكب، وهي قفطان من الكساء، وجبة وقباء وعباءة يتشح بها وقلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية يضعها على رأسه.

وكان الخليفة الفاطمي يتميز عن غيره بكثير من شارات الملك التي تقتضيها الأبهة والعظمة فكان إذا خرج في موكبه تقلَّد السيف العربي المجوهر الذي كانت له حمائل يعلق بها على الكتف الأيمن، وهو مدلًى إلى الجانب الأيسر. وتؤكد المصادر التاريخية أن هذا السيف كان «ذو الفقار» وهو سيف الإمام علي بن أبي طالب الذي غنمه النبي محمد (ص) في موقعة بدر من المشرك «منبِّه بن الحجَّاج».

وكان يضع على رأسه أيضاً تاجاً عظيماً ينعت بالتاج الشريف، وهو تاج الخلافة، وفيه من الجواهر ما لا يوجد في خزانة خليفة آخر، وكانت الدرة اليتيمة وزنتها سبعة دراهم تعلو عمامته وحولها جواهر أخرى دونها على جبهته مكان العمامة. أمَّا المظلة الموروثة من عهد الإمام المعز لدين الله الفاطمي فهي تشبه الهرم بشكلها، وكانت من الديباج الأزرق السماوي، وثوب الخليفة تحتها من هذا اللون أيضاً، ولو كانت حمراء لكان ثوبه أيضاً، وأمَّا الأهلة فمن الذهب، وفي قمتها رمانة ذهب كبيرة فوقها رمانة ذهب صغيرة أيضاً مرصعة بالجواهر ذات لمعان يخطف الأبصار، وقد كان حاملها يركب فرسه بجانب فرس الخليفة، وللمظلة قناة يركزها ذلك في قربوس فرسه، وهمه في

أثناء الركوب أن يراقب موقف الخليفة من جهة الشمس حيث لا تقع أشعتها عليه، ولعلَّ أحسن وصف ما قاله الشاعر الفاطمي ابن هانىء الأندلسي:

وعلى أمير المؤمنين غمامة	نشأت تظلّلُ تاجه تظليلا
نهضت بثقل الدرّ ضوعف نسجها	فجرت عليه عَسجداً محلولا
قد ضمَّ قطريها العجاج فما ترى	بين السنان وكعبه تحليلا
أيكية الذهب المرصّع رفرفت	فيها حمام ما دعون هديلا
وتباشر الفلك الأثيرَ كأنما	تبغي بهنَّ إلى السماء رحيلا

ويظهر موكب أمير المؤمنين، والعمامة البيضاء على رأسه بشكلها الإهليليجي وفي أعلاها فوق الجبهة تماماً حلية بشكل الهلال من ياقوت أحمر، وفي وسط الهلال جوهرة عظيمة مشهورة يقال لها «اليتيمة» قيل إن الخليفة الفاطمي الثاني الإمام القائم بأمر الله قد جاء بها من ديار المشرق، ويقال إن وزنها يبلغ سبعة دراهم، ووزن الهلال كله أحد عشر مثقالاً، وبدائرة اليتيمة قصبة زمرّد ربابية لها قدر عظيم وترى في الجانب الآخر من الموكب فارساً يحمل سيفاً حليته من الذهب المرصَّع بالجواهر وهو مغمد لا يظهر إلا رأسه، ويقال لحامله «حامل السيف». وأمَّا فرس الخليفة فتجد عشرات الصبيان، وعليهم المناديل البيض، وفي أواسطهم السيوف، وأوساطهم مشدودة بمناديل حمر وفي أيديهم الحراب مشهورة وهم بجانبي الخليفة كالجناحين. ويظهر والي القاهرة على رأسه يأمر وينهي ويحافظ على ترتيب الموكب ليسهل المرور ويمنع الازدحام.

.. جاء الفاطميون إلى مصر، فوجدوا فيها تربة صالحة للبذر والغرس، ولذلك وجهوا اهتمامهم لنشر تعاليمهم، وتعميم أفكارهم العلمية، وإحداث انقلاب فكري يشمل جميع النواحي الأخلاقية والسياسية والاجتماعية، وقد استجاب لهم أهل تلك البلاد، وسعدوا بهذه الحياة الرغيدة يخلعها «الفواطم» على وادي الكنانة ليسير في طريقه السوي نحو الهدف الأسمى والغاية المثلى تقوده الأماني والآمال.

لقد كانت القاهرة في عهد «الأئمة الفاطميين» وطن العجائب والغرائب، فهي بحق مدينة العلم، والفلسفة، والحب، والفن،

والشعر، والغناء، والفرح. ولا نعتبرها عاصمة العالم الإسلامي فحسب بل عاصمة العالم المتمدن المستنير كله، لأن أوروبا في ذلك الوقت كانت تسبح في غمرة بربرية قاسية من الجهل والانحطاط. فشعوبها كانت في سكرة طويلة لا تعرف صحواً ولا استفاقة. لقد كانت القاهرة تعج آنئذٍ بدور العلم، والمكتبات، والنوادي، والجمعيات، والمؤسسات الأدبية، وكانت حضارتها العمرانية تدل على عظمتها وعراقتها بالفنون. فهي زاخرة أبداً بالحصون والأبراج والشرفات التي يفوح منها عبير الشرق، وأريجه المعطّر. مضافاً إلى القصور الشاهقة والساحات العامة والحدائق ذات الزخارف والتماثيل العجيبة، والأعمدة المرمرية التي لم يكن يوجد ما يعادلها في الشرق والغرب على السواء

كان للفاطميين مواسم رسمية وأعياد هي:

موسم رأس السنة، وموسم أول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبي محمد (ص)، ومولد الإمام علي بن أبي طالب، ومولد الحسين بن علي، وفاطمة الزهراء، والإمام الحاضر «خليفة المسلمين»، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وأول شعبان، ونصفه أيضاً، وموسم ليلة رمضان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وعيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، ويوم النوروز.

وكان الخليفة يوم وفاء النيل يركب في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والموكب العظيم، ويضع التاج، وعليه الدرر اليتيمة، ولا يترك المظلة على رأسه في ذلك اليوم، ويركب الوزير الأول وراءه في جمع عظيم على ترتيب الموكب، ويخرج من القصر شاقاً القاهرة إلى باب «زويلة» ومنه يسلك الشارع إلى أن يجاور البستان المعروف بـ «عبّاس» فيعطف سالكاً على الجامع الطولوني، والجسر الأعظم حتى يأتي مصر، ويدخل من «الصنّاعة» وهي يومئذٍ في غاية العمارة وفيها دهليز ممتد بمصاطب مفروشة بالحصر العبداني، ويخرج من بابها مخترقاً مصر حتى يأتي المنظرة المعروفة برواق الملك على القرب من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجه له، والوزير الأول معه ماشياً إلى المكان المعد له، ويكون العشاري واقفاً على شاطىء النيل، وقد حمل إليه من القصر بيت ثمين من العاج والأبنوس كل جانب منه ثلاثة أذرع وطول

قامة رجل تام، فيركب في العشاري المذكور، وعليه قبة من خشب محَكّم الصنعة، وهو وقبته ملبّس بصفائح الفضة المذهبة ثم يخرج من دار الملك المذكورة، ومعه من الرجال والوزراء من يختاره من ثلاثة إلى أربعة، ثم يطلع خواص الخليفة إلى العشاري والوزير ومعه من خواصه اثنان أو ثلاثة لا غير، فيجلس الخليفة برواق بظاهر البيت المذكور بفوانيس من خشب مخروط مدهونة ومذهبة بستور مسدلة عليها، ويسير العشاري من باب المنظرة إلى باب المقياس العالي على الدرج فيطلع العشاري، ثم يدخل إلى الفسقية التي فيها المقياس، والوزير ومن معه بين يديه، فيصلي هو والوزير كل منهما ركعتين بمفرده، ثم يؤتى بالمسك والزعفران فيديفه في إناء بيده بآلة يحملها ويتناوله صاحب بيت المال وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرأون القرآن الكريم، وبعد ذلك يخرج من فوره راكباً في العشاري المذكور، ثم يعود إلى دار الملك ويركب منها عائداً إلى القاهرة، ويكون في النهر في ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونة بالناس للتنزه وإعلان الفرح.

وأمّا في اليومين الثالث والرابع من يوم التخليق، وهو يوم يأخذ النيل بالزيادة، فقد كانت تصنع في بيت المال موائد من التماثيل المختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات، ومنها ما يكون ملبساً بالعنبر أو الصندل، وقد تكون مفسَّرة العيون والأعضاء بالذهب، وكذلك يعمل على أشكال التفاح والأترج، وغير ذلك من الفواكه، وتخرج الخيمة العظيمة المعروفة «بالقاتول» فتنصب للخليفة في بر الخليج الغربي على حافته عند منظرة يقال لها «السكرة» على القرب من فم الخليج ويلف عمود الخيمة بديباج أحمر أو أبيض، أو أصفر من أعلاه إلى أسفله، وينصب فيها سرير الخليفة مسنداً إليه، وتكون عرانيسه ذهب ظاهرة، ويوضع على مرتبة عظيمة من العرش للخليفة، ويضرب لأرباب الرتب من الأمراء بقرب الخيمة خيم كثيرة على قدر مراتبهم في المقدار والقرب من خيمة الخليفة، ثم يركب الخليفة على عادته في المواكب العظيمة بالمظلة وتوابعها من السيف والرمح والألوية، ويزاد أربعون بوقاً، عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة يكون المنقرون بها راكبين، والمنقرون بالأبواق النحاسية مشاة ومن الطبول العظام عشرة، وعند الركوب يحضر الوزير الأول من دار

الوزارة راكباً في هيئة عظيمة، ويركب حينئذٍ إلى باب القصر الذي يخرج منه الخليفة، ويخرج الخليفة من باب القصر راكباً، وبعض رجال الحاشية مشاة من حوله وعليه ثوب يسمَّى البدنة وهو حرير مرقوم بذهب لا يلبسه في غير ذلك اليوم، والمظلة بنسبة، ويسير الموكب على الترتيب المتقدم في ركوب أول العام حتى يأتي الجامع الطولوني، ويكون قاضي القضاة وأعيان الشهود جلوساً بين يديه من هذه الجهة فيقف لهم الخليفة وقفة عظيمة، ويسلّم على القاضي فيتقدم القاضي ويسلّم عليه ثم يركبون، ويسير الموكب حتى يأتي ساحل الخليج فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة فيتقدمه الوزير الأول على العادة، فيترجل على باب الخيمة، ويجلس على المرتبة الموضوعة له فوقه، ويحيط به رجال الحاشية والأمراء، ويوضع للوزير كرسيه المعتادة فيجلس عليها ورجلاه تحكان الأرض، ويقف أرباب الرتب صفين من سرير الخليفة إلى باب الخيمة، وقـراء الحضرة يقرأون القرآن ساعة زمانية، فإذا فرغوا من القـراءة، استأذن صاحب القصر حضـور الشعراء للخـدمة، فيؤذن لهم، ويتقدمون واحداً بعد واحد، على مقدار منازلهم المقررة لهم، وينشد كل منهم ما نظمه، فإذا فرغ أتى غيره، والحاضرون ينتقدون كل شاعر وما يقوله، ويحسنون منه ما حسن، فإذا انقضى هذا المجلس نهض الخليفة من السرير، فركب إلى المنظرة المعروفة بالسكرة بقرب الخيمة، والوزير الأول بين يديه، وقد فرشت بالفرش المعدة لها فيجلس الخليفة بمكان معد له منها، ويجلس الوزير بمكان منها بمفرده، ويجلس القاضي والشهود في الخيمة البيضاء، وعندما يطل منها أحد الشيوخ يشير بفتح السد، فيفتح بالمعاول، وتضرب الطبول والأبواق من البرين، وفي أثناء ذلك يصل السماط من القصر بصحبة صـاحب المائـة، وعدتهـا مئة شـدة في الطيافـير الواسعـة، وفي القوارير الحريرية، وفوقها الطراحات النفيسة وريح المسك تفوح منها فتوضع في خيمة واسعة معدة لذلك، ويحمل منها الوزير للأمراء من التماثيل على قدر مراتبهم. أمَّا القاضي والشهود فلا يكون في موائدهم تماثيل، فإذا اعتدل الماء في الخليج دخلت فيه العشاريات اللطاف، ووراءها العشاريات الكبار وهي سبعة: الذهبي المختص بـالخليفة، والفضي والأحمـر، والأصفـر، والأخضر، والـلازوردي،

والصقلي، وهو عشاري النشأة ومن بحـار صقلية، وكـان عليها الستور، وفي أعناقها الأهلة، وقلائد العنبر، والخرز الأزرق، وتسير حتى ترسو على بر المنظرة التي فيها الخليفة، وإذا صلّى الخليفة العصر ركب لابساً غير الثياب التي كانت عليه في أول النهار، ومظلته تكون مناسبة لثيابه التي لبسها، وباقي الموكب على حاله، ويسير في البر الغربي من الخليج شاقاً البساتين حتى يصل إلى باب القنطرة، فيعطف على يمينه، ويسير إلى القصر، بينما الوزير يتابع طريقه إلى داره كالمعتاد.

ألموت ذكر القزويني ألموت فقال محدداً موقعها: «ألموت قلعة حصينة.. بين قزوين وبحر الخزر، على قلّة جبل وحولها وهاد، لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها وهي كرسي ملك الإسماعيلية».

وقيل في اسم ألموت الكثير: فمن قائل بأن أصل الاسم في لغة أهل الديلم «آلة الموت» أي «تعليم العقاب» فالآلة عندهم هي العقاب والموت هي لفظ آموخت أي التعليم، مخفّفاً ، ومن قائل بحساب الحروف وإن مجموع حروف الاسم يطابق سنة استيلاء الحسن عليها، ومن قائل، كما في كتاب «فصول وأخبار»، إن الاسم عربي أصلاً وهو الموت ومن ذا لا يعرف ما هو الموت؟

ولكن سواء كان الأسم ديلميا أم عربياً فإن ألموت تعني المنعة والعزة والموت والزوال لكل مقتحم لها ومتطفّل عليها.

الحشّاشون بعض الأساطير عصيّ على الموت ولا سبيل للحقيقة التاريخية إلى دحضه، كتفاحة حوّاء الشهيرة على رغم أن التوراة لم تذكُر التفاح بحرف، وكجنّة قلعة ألموت التي وعد «شيخ الجبل» بها أعـوانه وأنصاره المخلصين.

والحكاية، بإيجاز، تقول إن «شيخ الجبل» أي حاكم ألموت، كان قد أنشأ بستاناً سوّره وأجرى فيه أنهاراً من خمر وعسل ولبن، وكان يدخل إليه أعوانه الفتيان بعد أن يسقيهم شراباً يذهلهم عن أنفسهم حتى إذا أفاقوا وجدوا أنفسهم وسط اللذائذ الحمر الثلاثة، فإذا تمتعوا بكل ذلك مدة ما، سقاهم الشيخ من رحيقه العجيب ثانية فإذا

أفاقوا قال لهم إنهم قد عاينوا الجنّة ولا سبيل إليها إلاّ بالطاعة ثم يسلمّهم خناجر من ذهب ويمضي كل لاغتيال عدو من أعداء الشيخ.

ومن هنا صار اسم هؤلاء الحشاشين ونقله الصليبيون فصار: «أسّاسين ASSASSINS» وتعني القتلة ومرتكبي الغيلة. ولكن لنا رأينا وها نحن نبسطه ونقول:

بعث القيصر الألماني فردريك بربروس (١١٢١ ـ١١٩٠م) وكان مع الحملة الصليبية الثالثة، مجموعة كلّفها برصد العدو (أي الصف الإسلامي) واستطلاع أحواله، فلما عادت المجموعة عام ١١٧٥ م رفعت له تقريراً تحدّثت فيه عن جماعة شديدة البأس لا تعرف القانون وتأكل الخنزير وتبيح الفروج بما في ذلك المحارم كالأم والأخت والابنة، وتعيش في قلاع جبلية شاهقة، وأرضها غير خصبة وشيخها رهيب يخافه المسلمون والمسيحيون على حد سواء، والشيخ يملك قصوراً أحاطها بأسوار عالية ولم يترك منفذاً غير باب صغير جداً، وفي تلك القصور يعيش أولاد أكّاريه، يعلّمهم ويربيهم منذ صغرهم حتى يشبّوا، على طاعته وخدمته ويعدهم بالجنّة جزاء ولائهم وبالموت إن سوّلت لهم أنفسهم العصيان أو الخروج على أوامره.

وولاء فتيان الشيخ للشيخ صار من الشهرة بمكان، حتى إن التروبادرو صار يناجي خليلته مغنياً لها: «وكما يأتمر الحشاشون بأوامر سيدهم دون نكوص، فإنني أنا أيضاً خدمت الحب ووفيت له ولم أتقاعس».

وقريباً مما ذكرنا، ما يرويه أرنولد الليبيكي، الألماني (توفي ١٢١٢ م) وكان رئيساً لدير رهبان يوحنا في ليبيك، وخلاصته أن شيخ الجبل يوزّع الخناجر على الفتيان ويسقيهم شراباً ويريهم بقوة سحره أحلاماً كاذبة كلها لذة وغبطة ونيل مراد، حتى إذا أفاقوا الخ الخ..

ولكن الرحالة البندقي ماركو بولو (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤ م) هو الذي رسّخ هذه الأسطورة بشكل نهائي، فهو في الكتاب الأول من رحلته يعقد فصولاً يتحدّث فيها عن «الملاحدة» وشيخ الجبل «علاء الدين» ويفصّل من أمر الشيخ ما ذكرنا.

وفي العام ١٨٠٩ م ألقى سلفستر دي ساسي محاضرة في الأكاديمية

الفرنسية، تضمّنت بحثاً اثيمولوجياً في أصل لفظ «الأسّاسين» وينتهي إلى الربط بين الحشيش ونزارية ألموت، وقد نشر دي ساسي بحثه هذا عام ١٨١٨ م تحت عنوان: «Mernoire Sur la dymastic des assassins».

قد يكون من نافل القول إن في تلك الروايات القديمة، الصليبية وغير الصليبية، شنشنة معروفة طالما تعرضنا لها فيما مضى من فصول هذا الكتاب، فوصفُ الإسماعيلية بالإلحاد وهم الذين يقرُّون بألوهية ووحدانية الله ونبوة محمد (ص)، صار رسالة معروفة المصدر، كما نعتقد. وأمّا حديث الجنّة فهو عندي تفسير لتلك الجسارة النادرة، ولروح الشهادة العالية لدى فدائية ألموت؛ وما دام الإسلام السلطوي قد حرّم الجنة على الشيعة والإسماعيلية، فإن القوم لم يجدوا تفسيراً غير جنّة أرضية، وساعدهم على هذا التفسير ما أنجزه حسن بن الصبّاح في ألموت ووعرها حتى استحالت بستاناً وارفاً، وتمّ لهم كل ما تطلبه أسطورتهم من عناصر، فالفدائي إذن لا يقتل ملك أورشليم الصليبي وغيره من أعداء الأمة لإيمان يشحنه عزيمة بل لنيل الجزاء والفوز بالجنة، لا جنة الله فهي وقف على الخليفة وفقهائه وشرطته، بل جنة حسن بن الصبّاح وهي ثمرة السيمياء والعقاقير المخدرة.

لا أعلم أن أحداً رمى الإسماعيلية بشيوعية النساء والزنا بالمحارم، وقد يكون المقصود جماعة أخرى ولكن القصة تشبه مضمون ما جاء على لسان ماركو بولو، وهذا يدعم ما ذهبنا إليه وهو تفسير ما يجري بكل شائن ومعيب دون الالتفات إلى الحقيقة الأولى وهي الغيرة على الدين وعلى الأمة.

ويفسّر البعض اللفظ فيرده إلى واحد من خمسة:

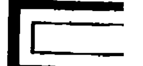
١ ـ حساسان، نسبة إلى الحسن بن الصبّاح شيخ الجبل وخالق المنظمات الفدائية، وهو برأينا بعيد فالنسبة ان صحت لا تصاغ هكذا.

٢ ـ حساسون، نسبة إلى الحس والعاطفة، وهذا أيضاً بعيد، فما أنا بالذي يصدّق بأن صليبياً جلفاً في موقع حياة أو موت يصف رجلاً أقبل عليه يريد اغتياله بمثل هذه الرومنطقية الزائفة.

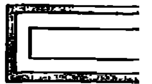
٣ ـ أسّاسين ASSASSINS وهي كما هي الآن وكما تعني الآن وصف بها الصليبيون الإسماعيليين ثم جاء المستشرقون فاستشرقوا وصار القوم حشّاشين، وهذا تفسير الماء بالماء بعد جهد شهير.

٤ ـ اساسيون، أي نسبة إلى الأساس الذي تقول به الإسماعيلية، ونحن نرد هذا القول، لأن المصطلح المذكور لا سبيل لأهل البلاد من المسلمين إليه إلّا بعد قبول وعلم، فما بالك بالصليبيين؟

٥ ـ عسّاسون، وهو عندنا الأصوب والأرجح، ففدائية الجبل عرفوا بخفة حركتهم وأنهم يعسّون أي يطوفون في الليل مراقبين ومدافعين ومهاجمين.



فهرس الاعلام



فهرس الاماكن

فهرس القبائل والعائلات والفرق

المصادر

المصادر العربية

ابن سينا في موانع اخوان الصفاء ـ عارف تامر.
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ المقريزي.
اثبات النبوأت ـ السجستاني ـ عارف تامر.
أخبار مصر ـ المسبحي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ ابن حمّاء القاضي.
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ـ فوندر.
أروى بنت اليمن ـ عارف تامر
أساس التأويل ـ النعمان بن حيُّون ـ تحقيق عارف تامر.
استتار الأمن ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أعيان الشيعة ـ محسن الأمين العاملي.
افتتاح الدعوة «النعمان بن حيُّون» تحقيق وداد القاضي.
الإمام المستنصر بالله الفاطمي ـ عبد المنعم ماجد.
البيان المغرب في أخبار المغرب ـ ابن عذارى.
تاج العقائد (علي بن الوليد) تحقيق عارف تامر.
تاريخ أخبار القرامطة ـ ثابت بن سنان وابن العديم.
تاريخ الاسلام السياسي والديني ـ حسن ابراهيم حسن.
تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ـ طه أحمد شرف.
تاريخ جوهر الصقلي ـ علي ابراهيم حسن.
تاريخ الرسل والملوك ـ الطبري.
تقويم البلدان ـ أبو الفداء.
تميم بن المعز لدين الله ـ عارف تامر.
ثورة القرامطة الاشتراكية ـ عارف تامر.
جوهر الصقلي «القائد» ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله ـ عارف تامر.
الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ عبد المنعم ماجد.
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ـ محمد عبد الله عنان.
حركات الشيعة المتطرفين ـ محمد جابر عبد العال.
حضارات الاسلام ـ جوستاف فون جرونبوم.
دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ عبد العزيز الدوري.
دعائم الاسلام (النعمان بن حيُّون) تحقيق آصف فيضي.
دولة النزارية ـ طه أحمد شرف.
راحة العقل والكرماني ـ محمد مصطفى حلمي ومحمد كامل حسين.

الرياض ـ (الكرماني) ـ تحقيق عارف تامر.
سيرة الاستاذ جوذر الكاتب ـ محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة.
سيرة جعفر الحاجب ـ (اليماني) مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
شرح ديوان ابن هانيء الأندلسي ـ عارف تامر.
صلة تاريخ الطبري ـ غريب بن سعد.
الصليحيون في اليمن ـ حسين همذاني.
عبقرية الفاطميين ـ محمد حسن الأعظمي.
عبيد الله المهدي ـ إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية ـ حسن ابراهيم حسن.
العزيز بالله ـ عارف تامر.
العصر العباسي الأول ـ شوقي ضيف.
العصر العباسي الأول ـ عبد العزيز الدوري.
عيون الأخبار ـ ادريس عماد الدين.
الغزالي بين الفلسفة والدين ـ عارف تامر.
الغلو والفِرق الغالية في الحضارة الاسلامية ـ عبد الله سلوم السامرائي.
الفاطميون في مصر ـ حسن ابراهيم حسن.
الفرق بين الفِرق ـ الإمام أبو منصور البغدادي.
فرق الشيعة ـ النوبختي.
فصول وأخبار (مخطوط ـ نور الدين أحمد).
في أدب مصر الفاطمية ـ محمد كامل حسين.
القرامطة ـ عارف تامر.
كتاب البلدان ـ اليعقوبي.
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ـ الحمادي اليماني.
كنوز الفاطميين ـ زكي محمد حسن.
لمعة من أخبار المعز ـ مؤلف مجهول.
المجالس المستنصرية ـ الداعي ثقة الإمام.
المجالس والمسايرات ـ النعمان بن حيُّون.
المجلة الذهبية ـ علي محمد جبارة.
مروج الذهب ـ المسعودي.
معجم البلدان ـ ياقوت الحموي.
المعز لدين الله ـ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف.
المعز لدين الله ـ عارف تامر.
المِلل والنحل ـ الشهرستاني.
الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين ـ عارف تامر.
المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ـ محمد كامل حسين.
الناصر لدين الله ـ سيمون حايك.

نزهة الأفكار ـ ادريس عماد الدين.
النظم السياسية ـ حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن.
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ـ محمد جمال سرور.
نور مبين قبل الله المتين ـ علي محمد جبارة.
الهمة في آداب اتباع الأئمة ـ محمد كامل حسين.
وفيات الاعيان ـ ابن خلكان.

المصادر الأجنبية

A Short History of the Fatimid - Khalifate - London 1923.
A Guide to Ismaili Literature - W. Ivanow - London 1934.
A Chronological List of the imams and Dais of the Monstalian Ismaïlis. "Fyzee - Asaf" Royal asiatic Society - London 1934.
A Compendium of Ismaili es oteries Islamic Culture. H. Hamdani - 1937.
Cadi an-Numan (J,B,R,A,S) Asaf Fyzee - London 1934.
Cairo - Jerusalem and Damascus - Margoliotte - Oxford 1907.
Essai sur l'histoire de l'islamisme - Dozy. R.P.A. - Paris 1879.
Essai sur l'histoire des Ismaeleens de la perse Defrenery M.C. - Leyden.
Etudes sur la Conquete de l'Afrique par les Arabes - H. Fouruel - Paris 1881.
Esquisse d'une bibliographie Carmathe. L. Massignon - Cambridge 1922.
Enguête au pays du Levant. M. Barres - Paris 1924.
Fragments relatifs a la doctrine des ismailis. S. Guard - Paris 1874.
Ferishta - Mohamed Kassim - (history of the rise of the Mughal) Power of India. 4 vol. translated by. John Briggs - London 1928, and - Cambridge - History of India 111 pages or Big. Si Tahr.
A forgotten branch of Ismailis' - W. Nanow - J.R.A.S. 1938.
Geschichte des Fatimids Caliph. Gottingen, 1881.
Histoire des Muslumans d'Espagne.
Histoire de L'ordre des Assassins - Hammer - Paris 1833.
Literary History of Persia - E. Browne. G. - London 1909.
Les siècles obsucres du Maghreb - Paris 1927.
Le Dogme et la loi de L'islam - Paris 1920.
La fin de L'empire des Carmathe du Bahrein. De Geoje M. - Leyden 1895.
Literary History of the arabes - Nicholson - Cambridge 1930.
Mémoires sur les Carmathes du Baherein et les Fatimides - D. Geoje M. - Leiden 1886.
Some unknown Isamaïli authors and their works. H. Hamdani 1933.
Mémoires historiques sur la Dynastie de Khalifs Fatimid's - Paris 1836.
The preaching of Islam. A. Thomas - London 1935.

The rise of the Fatimids - Calcuta - W. Ivanow 1942.
The Karmathians - De Goeje - 1895.
The Ismailian Low of Muta - Assaf - Fyzee - London 1929.
The origins of Ismailism . B. Lewis - Cambridge 1940.
The story of Cairo - Lane poole - London 1912.
On the Geneology of Fatimid Caliphs. - H. Hamdani Cairo 1958.
The Quddahid Legend - A. Hamdani 1963.
The Shia of India .. J. N. Hollister.

